خصائص السور والآيات المدنية

ضوابطها ومقاصدها

تأليف

د. عادل محمد صالح ابو العلا

غفر الله له ولوالديه

جامعة الملك عبد العزيز

كلية الآداب

قسم الدراسات الإسلامية

دار القبلة للثقافة الإسلامية
جدة

مؤسسة علوم القرآن
بيروت

فهرس الموضوعـــات

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضـــــوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضـــــوع	صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ..

" البقرة ٣١ "

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي ثمرة جهدي هذا إلى ..

جدي الجليل سيدي الشيخ محمد حسين أبو العلا أطال الله عمره

وسيدي الوالد العزيز الشيخ محمد صالح أبو العلا حفظه الله

اللذين كان لتوجيههما السديد أكبر الأثر في مواصلتي

لطلب العلم واللذين وجهاني الوجهة الصحيحة

للسير في طريق الحياة - وفاءً وتقديراً ،

فجزاهما الله عني خير الجزاء

وأثابهما أحسن المثوبة

تقريظ

الامين العام لرابطة العالم الاسلامي
معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم بالقلم وقضى بالنجاح لذوى العزائم والهمم ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على هادي الأمم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه المخصوصين بجزيل النعم . وبعد :

فلقد كان من توفيق الله أن هدى ابننا البار ابن جامعة أم القرى النجيب الشيخ عادل محمد صالح أبو العلا إلى مطالعة قراء العربية بمؤلف جديد نافع مفيد إن شاء الله يضاف إلى ما فى خزائن الكتب الإسلامية من نفائس غالية ثمينة ويحل معها منزلة الأعز الأكرم .

وإذا كان شرف الكتابة وقدرها بشرف وقدر موضوعها وهو قول ثابت وسديد فإن ما خطه السيد/ عادل أبو العلا بيمينه له وزنه وقدره لأنه يتصل بعلوم القرآن الكريم بل هو منها فى الصميم . كيف لا وعنوان الكتاب ــ والكتاب يقرأ من عنوانه ــ (خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها) فى كتاب الله المبين . وغير خاف أن تبيان خصائص المدني من آي الذكر الحكيم يقف القارىء الكريم إذا أصغى سمعه وألقى قلبه على كثير مما ينبغي أن يفقهه طالب العلم من مصدر التشريع الإسلامى وفى طليعة تلك الخصائص تبيين الناسخ والمنسوخ أولا وتعيين ميقات طلب العبادات فى مستهل نزول الوحي السماوي بها من لدن حكيم خبير . وما يضاف إلى ذلك من سمات ومميزات السور والآيات المدنية من حيث لون الأسلوب فى هدوئه وطول النفس معه وإرخاء العنان فيه والمجادلة بالتى هى أحسن . وتوخى المنطق وإقامة الأدلة والبراهين وما إلى ذلك مما أفردت له أسفار ومجلدات قديماً وحديثا جعلها الكاتب بين يديه ونصب عينيه فأفاد منه وأضاف إليها ما ترك الأول للآخر .

كل أولئك فى تنسيق وترتيب يغبط عليه مع مقدمة فيها . وفى الخاتمة فهارس تيسر للمطلع عليها مهمة الإفادة منها وتجعلها ثمرات سهلة التناول دانية القطوف .

والله يزيد فى الخلق ما يشاء ، ويؤتي الحكمة من يشاء إنه واسع الفضل والعطاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه النجباء .

د . عبد الله عمر نصيف

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

حرر في يوم الاثنين الموافق للخامس من شعبان عام
ألف وأربعمائة وستة من الهجرة النبوية المباركة.

تقريظ العلّامة قاضي القضاة
فضيلة الشيخ محمد المنتقى الكشناوي

بســم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل القرآن بأيسر الوجوه ، وأفصح اللغات ، وفصل آياته وأتقنه وأحكمه ، وتعبّدنا بتحريره وإتقان قراءته وتدبره ، وجعل ذلك من أعظم القربات ، وأسبغ علينا نعمه وأفاض لدينا مننه ، وجعلنا من خدّام شرعه الذى علّمنا فروضه وسننه ، وخصّنا بإرسال أكرم الخلق عليه الذى طهّر قلبه وأظهر لسانه وجعل خير الناس أمته . وخير القرون قرنه الذى بوجوده شرفه أبو القاسم سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم البررة الكرام والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فإن أولى ما أفنى فيه المكلف عمره وعلّق خاطره . وأعمل فيه فكره تحصيل العلوم النافعة الشرعية واستعمالها فى الأعمال المرضية ، وأهم ذلك علم كتاب الله تعالى الذى تولى سبحانه حفظه بفضله وأعجز الخلائق أن يأتوا بمثله ، وجعل ذلك برهاناً لتصديق رسالة من أُنزل عليه . ثم إن العلوم المتعلقة به كثيرة وفوائد كل علم غزيرة . وإن من أجلّها وأفضلها علم (علوم القرآن) الذى تعددت مباحثه وتشعبت فروعه ، وكلها لازمةٌ للمشتغلين بكتاب الله عز وجل تفسيراً واستنباطاً للأحكام.وكتاب (خصائص السور والآيات المدنية) الذى صنفه الشيخ الجليل والحبر النبيل الأستاذ الكامل والولد الفاضل المرجو له كل الخير والبركة ، محي السنة وناصر الحديث ظهير الدين عادل محمد صالح أبو العلا حفظه الله تعالى وأمد عمره فى طاعة الله تعالى (آمين) .

(رسالة مقدمة الى قسم الدراسات العليا الشرعية لنيل درجة الماجستير فى الكتاب والسنة (١٤٠٤ هـ ـــ ١٩٨٤ م) بجامعة أم القرى .

من أجلّ المصنفات فى هذا الباب وأدقها وأسناها ، جامعاً للصحيح من الأقاويل ، عارياً عن الشبه والتصحيف والتبديل ، محلى بالأحاديث النبوية ومطرزاً بالأحكام الشرعية ، مرصعاً بأحسن الاشارات مخرجاً بأوضح العبارات مفرغاً فى قالب الجمال بأفصح مقال ، استوعب فيه كل الاستيعاب وعرض الآراء بأمانة وموضوعية ولطف مأخذ ، مبنى على ترجيح فيما رجّح بأدلة قوية . فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة منقلبه ومآبه . ولما كان هذا الكتاب كما وصفت أحببت أن أقول لطلاب العلم : « خذوه بقوة » فلله در المصنف فى إختياره لهذا الموضوع وفقنا الله وإياه لما فيه رضاه ، لقد قرّب إلينا البعيد وسهله ، اللهم اغفر لمصنفه ولقارئه ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وتابع بيننا وبينهم بالخيرات .

رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

قاضى القضاة فى جمهورية نيجيريا سابقا ، المستشار الدينى لسفارة نيجيريا
عامة وخاصة مكتب شئون الحجاج حاليا
محمد المنتقى الكوماسي الكشناوي
عفا الله عنه وسامحه ولجميع المسلمين
والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على
سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين
آمين
١٤٠٦/٧/٢٧ هـ
١٩٨٦/٤/٦م

تقريظ
سعادة الأستاذ الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وعلينا معهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنه من فضل الله على الإنسان أن يتوجه إلى كلام رب العالمين بالبحث والدراسة ، وأشرف أمته عليه الصلاة والسلام هم حملة القرآن كما جاء فى الحديث الذى رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ « **أشراف أمتى حملة القرآن** » .

وفى كتاب الله تعالى ، قوله سبحانه ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾ .

ولقد خصّ الله جل شأنه هذه الأمة المحمدية بهذا الكتاب المبارك وخصّ به من شاء منهم ممن أهّلهم له واصطفاهم للنصيحة لكتابه ونشر علومه والدعاء إليه ، وانتقى لهذا العلم العدول من الأمة ، يبلغونه إلى من بعدهم جيلاً بعد جيل حتى وصل إلينا كعهد الصحابة به .

وأمرنا بتبليغه إلى من بعدنا ، وهكذا الأمر إلى أن تقوم الساعة ، ثم إن شرف العلم من شرف موضوعه ، وان أشرف العلوم على الاطلاق تفسير القرآن الكريم ومدارسته .

قال الله تعالى ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه « **يؤتي الحكمة : قال القرآن** » .
قال ابن عباس يعنى تفسيره ، فإنه قد قرأه البر الفاجر » .

وإن ممن اختارهم الله تعالى لحمل هذه الأمانة وتقلد هذا الشرف الأخ الفاضل والطالب النابه الأستاذ الشيخ عادل محمد صالح أبو العلا الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، فلقد عاصرته طوال عدة سنين فلمست فيه روح المسلم الحق الذى يغار على دينه أن يمس ، يساعده على ذلك خلقه الحسن ومثابرته على الاطلاع والنهل من ينابيع التراث الإسلامى مع تتبع كل جديد .

وكان نتاج ذلك تلك الباكورة الطيبة المباركة « خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها » . ولقد عاصرت كتابتها وقرأتها معه حين كتابتها ورأيته قد جمع فيها أقوال السلف الصالح ، وعالجها معالجة الخبير بهذا العلم الجليل ، ونراه فى النهاية قد وقف على مايمكن أن يكون هناك من خلاف بين أقوال العلماء ، مستخلصا من ذلك الدروس المستفادة من خصائص القرآن المدنى ومقاصده .

اللهم اجزه عن القرآن خير الجزاء ، هو ومن أسهم معه فى إخراج هذا البحث الى عالم المطالعات المطبوعة .

ندعوه سبحانه أن يهيء له ولكل باحث ، السبل لإخراج الكثير والكثير لنشر الدعوة الاسلامية ــ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

كتبه

أ. د محمد أحمد يوسف القاسم

الاستاذ بقسم التفسير بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر بالقاهرة

١٤٠٦/٧/١٥ هـ

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه . ونستغفره ونستهديه . ونؤمن به ونتوكل عليه ونسأله الخير كله . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا .. من يهده الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . أنزل على عبده الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين .

وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ودعا إلى سبيل ربه حتى أتاه اليقين ، المؤيد بالمعجزات الباهرة وأبلغها وأخلدها القرآن الكريم .

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقه واهتدى بهديه إلى يوم الدين ..

أما بعد :

فمنذ كنت أطلب العلم فى كلية الشريعة فرع الكتاب والسنة بجامعة أم القرى (فى المرحلة الجامعية) أجد فى نفسى الميل الشديد لمادة (علوم القرآن) لما لها من تعلق بمعرفة كتاب الله عز وجل .

ذلك الكتاب الذى أعيت بلاغته البلغاء ، وأعجزت حكمته الحكماء وأخرست فصاحته الخطباء .

فان أولى وأجدر ما أعملت فيه القرائح ، وعلقت به الأفكار اللواقح التعمق بالبحث والدراسة حول ما احتوى عليه هذا الكتاب العزيز من أسرار التنزيل والكشف عن حقائق التأويل الذى بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول . عمت محاسنه مطالعه ومقاطعه . وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه .

قال الحرالى[1] : فى بيان فضل المشتغل بعلوم القرآن :

---

(١) الحرالى : نسبة إلى حراله ، وهو أبو الحسن على بن أحمد بن الحسن التجيبى ، صاحب التفسير العظيم . اعتمد عليه البقاعى في تفسيره وله ايضا شرح الموطأ والشفاء . توفى سنة ٦٣٧ هـ . انظر شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي (٥ : ١٨٩) ط/القدسى ١٣٥١ هـ ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، مطبعة دار الكتب المصرية (٦ : ٣١٧) .

« وأكمل العلماء من وهبه الله تعالى فهما فى كلامه ، ووعيا عن كتابه وتبصرة فى الفرقان ، واحاطة بما شاء من علوم القرآن . ففيه تمام شهود ما كتب الله لمخلوقاته من ذكره الحكيم ، بما يزيل بكريم عنايته من خطأ اللاعبين إذ فيه كل العلوم »[1] أ.هـ .

ونظراً لذلك فقد وقع اختيارى بحمد الله تعالى على أن أكتب رسالتى لمرحلة الماجستير فى (خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها) .

بالاضافة إلى ما سبق أن أسلفته عن أهمية مادة علوم القرآن وشغفى بها، هناك العديد من الحوافز التى جعلتنى أختار هذا الموضوع وأهمها :

(١) أننى وجدت جل من كتبوا فى المكى والمدنى — على كثرتهم — قل أن خرجوا به عن إطار التعريف والضبط وذكر بعض خصائصه ومقاصده على وجه الاختصار ، فليس هناك كتاب مؤلف — فيما أعرف[2] — جمع أقوال أهل العلم فى ماهية المكى والمدنى،وحقق إختلاف الروايات والأقوال فى سوره وآياته بحسب نزولها وذكر خصائصها ومقاصدها باستثناء الرسالة المقدمة من زميلى الدكتور (أحمد عباس البدوى) والتى حصل بها على الدكتوراه عام ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م والتى كانت فى الشق الأول من الموضوع، وهو (خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها) .

(٢) وكانت تلك الرسالة السابقة أيضا حافزاً لى على اكمال الطريق الذى شق عُبابه زميلى الدكتور (أحمد البدوى) فيكون الموضوع قد خدم من جانبيه .

ولقد أفدت من منهجه ومما كتبه فجزاه الله عنى خير الجزاء .

---

(١) البرهان للامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى (١ : ٥) .

(٢) ممن كتبوا فى هذا العلم (مكى بن أبى طالب والعز الدرينى) ولقد بحثت طويلا بين المخطوطات فى مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى وفى المكتبة الظاهرية وغيرهما من المكتبات فلم أعثر على شيء مما كتبوا .

(٣) ولقد أشار المرحوم فضيلة الشيخ (عبد العظيم الزرقاني) فى كتابه (مناهل العرفان) فى بداية حديثه عن المكى والمدنى ، فقال : (ليس من غرضنا فى هذا البحث أن نستقصي بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره . وأن نحقق ما كان منها مكيا وما كان مدنيا فتلك محاولات كبيرة جديرة أن تفرد بالتآليف)(١) .

(٤) ان علم المدنى والمكى من القرآن يعد من أشرف علوم القرآن . لأن تحديد زمان ومكان نزول الآية مهم جداً فى تمييز الناسخ من المنسوخ .

وهو السبيل لمعرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام .

ولقد أفصح عن أهميته أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتابه (التنبيه على فضل علوم القرآن) :

(من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاء ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك . ثم ما نزل بمكة وحكمه مدنى وما نزل بالمدينة وحكمه مكى . وما نزل بمكة فى أهل المدينة وما نزل بالمدينة فى أهل مكة . ثم ما يشبه نزول المكى فى المدنى وما يشبه نزول المدنى فى المكى ... الخ)(٢) .

كل تلك الأسباب التى أشرت إليها جعلتنى أختار هذا الموضوع لبحث أتقدم به إلى جامعة أم القرى لنيل درجة الماجستير فى الكتاب والسنة .

وعلى الرغم من قلة زادى وقِصَر باعى فقد استعنت بالله تعالى فى كتابة هذا البحث ، وأسأله التوفيق والعون والسداد ، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم ويجعل فيه النفع للمسلمين .

وبإذنه الله تعالى سيكون منهج البحث على النحو التالى :

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١ : ١٨٥) ط/عيسى البابي الحلبي .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (١٩٢:١) ط/عيسى البابى الحلبي .

منهج البحث في هذه الرسالة

أولا :

سأذكر أشهر التعاريف فى المدنى والمكى عند العلماء ، وأرجح أشهر الآراء عند الجمهور ، وهو إختيار الزمان ، لأن هذا التعريف يتميز بالضبط والحصر ، وسأجعله منهجا لى فى جميع الآيات والسور التى بحثتها باذن الله .

ثانياً :

سأعدد الخصائص الأسلوبية والموضوعية للمدنى ، وزيادة فى الايضاح سأذكر كذلك خصائص المكى اكمالاً للفائدة إن شاء الله .

ثالثاً :

سأبحث عن أشهر الروايات والأقوال فى تحديد المدنى والمكى من القرآن ، وسأقوم بدراسة مفصلة عن كل سورة من السور المختلف فيها ، وسأرجح نزول السورة بما ورد من الأحاديث والآثار الصحيحة والمشهورة . أما إذا لم تكن هناك اية أحاديث أو آثار يفهم منها مدنية السورة أو مكيتها فالجأ الى دراسة أسلوبها وموضوعها والموضوعات التي تعالجها بحول الله .

رابعاً :

هناك الكثير من الآيات المدنية فى السور المكية . وآيات مكية قليلة فى سور مدنية ، سأقوم بدراستها دراسة مفصلة فى كل سورة على حدة .

خامساً :

سأفصل القول فى كل مقصد من مقاصد السور والآيات المدنية وسأجعل له فصلاً مستقلاً مثل التشريع فى العبادات والمعاملات ، وكذلك محاجة أهل الكتاب ، بعون الله .

سادساً :

أما أهمُّ المراجع التى استفدت منها بعد القرآن الكريم :

(١) فبالنسبة لكتب علوم القرآن استفدت كثيراً من البرهان للزركشي والاتقان للسيوطي وغيرهما .

(٢) وكذلك استفدت من معظم كتب السنة المطهرة وبخاصة الصحيحين .

(٣) وكذلك رجعت الى كثير من التفاسير مثل تفسير ابن كثير وتفسير القرطبى والطبرى والرازى والالوسى وظلال القرآن للسيد قطب .. الى غير ذلك مما هو موضح فى فهرس المراجع .

خطة البحث :

اشتمل البحث على مقدمة وبابين وخاتمة على النحو التالى :

المقدمة :

بينت فيها السبب الداعي لاختيار هذا الموضوع وأهميته ، كما بينت فيها المنهج الذى التزمته عند كتابة الرسالة .

الباب الأول : وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول :

أولاً : المراد من المدنى والفرق بينه وبين المكي .

ثانياً : الضوابط التى يُعْرف بها المدنى والفرق بين تلك الضوابط وضوابط المكى .

ثالثاً : خصائص السور والآيات المدنية :

(أ) من الناحية الأسلوبية .

(ب) من الناحية الموضوعية .

الفصل الثانى : بيان السور المتفق على مدنيتها والمختلف فيها .

الفصل الثالث : بيان الآيات المدنية فى السور المكية ، والآيات المكية فى السور المدنية .

الفصل الرابع : دحض الشبهات التى أثيرت حول المدنى والمكى من القرآن الكريم .

الباب الثانى : وفيه أربعة فصول :

مقدمة : فى بيان حالة المجتمع المدنى وقت هجرة النبي ﷺ .

الفصل الأول : التشريعات التفصيلية والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات ، مع بيان الحكمة التشريعية .

الفصل الثانى : محاجة أهل الكتاب، وبيان الصفات التى وصفهم بها القرآن الكريم .

الفصل الثالث : بيان ضلال المنافقين وما اتصفوا به من الصفات القبيحة ، وما أعد لهم من العذاب والنكال ، وموقف الرسول ﷺ تجاههم . وأشهر مواقفهم العدائية للمسلمين .

الفصل الرابع : بيان قواعد الجهاد وحكمة تشريعه، والأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والصلح والمعاهدات .

الخاتمة : وتَحوى النتائج التي توصلْت إليها من خلالِ هذا البحث .

* * *

الباب الأول
وفيه أربعة فصول

الفصل الأول : أولاً : المراد من المدني والفرق بينه وبين المكي

ثانياً : الضوابط التي يعرف بها المدني والفرق بين تلك الضوابط وضوابط المكي .

ثالثاً : خصائص السور والآيات المدنية :

أولاً : من الناحية الاسلوبية .

ثانياً : من الناحية الموضوعية .

الفصل الثاني : بيان السور المتفق على مدنيتها والمختلف فيها .

الفصل الثالث : بيان الآيات المدنية والسور المكية والآيات المكية في السور المدنية .

الفصل الرابع : دحض الشبه التي اثيرت حول المدني والمكي من القرآن الكريم .

الفصل الأوّل

المراد من المدنى والفرق بينه وبين المكى :

إنّ مما اختص الله به كتابه العزيز من الخصوصيات أنه لم ينـزل دفعة واحـدة ، بل أنزل منجماً أى مفرقاً بحسب الوقائع التي تقتضى نزول ما ينزل منه . إما جوابا عن سؤال وجه إليه ﷺ . أو حكماً فى قضية عرضت عليه أو رداً على زعـم من مزاعـم المشركين في مسائـل الاعتقـاد والبعـث والجزاء أو غيرهما أو نقضا لمطعــن من مطاعـن اليهود والنصارى فى الرسالـة المحمديـة أو بيانـاً عامـاً للنـاس فى الدعـوة إلى الله وأصول الشريعـة وأحـوال المعـاد إلى غير ذلك مما قام الـرسول ﷺ بتبليغــــه إلى أمته مدة حياته صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الأمر قد أفصح به القرآن الكـريم فى معـرض الـرد على الكفـار الذيـن انتقدوا عدم نزوله دفعة واحدة[1] .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[2] .

أى أنزلنـاه كذلك لتثبيـت فؤادك بالوحـى المتتابـع الـذى تجدد به صلـتك بالسمـاء ، ويستمـر إمدادهـا لك بالعـون ، فيطمئـن المؤمنـون إلى عنايـــة الله بك ورعايته لك ، ويرتدع الكفار عن تكذيبك ومحاجتك .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم بسنـده عن ابـن عبـاس رضى الله عنهمـــا قال : (فصل القـرآن من الذكـر فوضع فى بيت العـزة فى السمـاء الدنيـا فجعـل جبريـل عليه السلام ينزله على النبى ﷺ ويرتله ترتيـلا) هذا حديث صحيـح الإسنـاد ولم يخرجاه ، وقد صححه الذهبى فى التلخيص[3] .

(١) باختصار من كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلاميـة رجب ١٣٨٨ هـ (ص ٣٥) ، من مقـال للأستاذ عبد الله كنون . ط/ المدنى، القاهرة

(٢) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٣) المستدرك على الصحيحين للامام الحافظ أبى عبد الله الحاكم النيسابورى وبذيله التلخيص للذهبى (ص ٢٢٣) جـ ٢ . الناشر دار الكتاب العربى، بيروت .

هذا وان كان الحديث موقوفاً لكنه فى درجة المرفوع ، لأنـه أمـر لا يعـرف إلا عن طريـق الوحـى ، ومعلـوم أن قول الصحـابى الـذى لم يأخـذ عن الاسرائيليـات فيمـا لا مجال للرأى فيه له حكم الرفع .

وقد ذكر السيوطى عن القرطبى أنه حكـى الاجماع على أن القـرآن نزل جملـة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا[١] .

وكان نزول القـرآن الكـريم على نبيـه صلـوات الله وسلامـــه عليـــه فى مدى ثلاث وعشرين سنة تقريبا ، فبعضه نزل فى مكـة وبـعضه الآخر نزل بالمدينـة بعـد الهجـرة ، فكان ينزل عليه القرآن أينما أقام فى السفر والحضر فكان منه المكى ومنه المدنى .

ولقد اختلفت وجهة أنظار العلماء فى تعريف المدنى والمكى :

(أ) فمنهم من عرفهما باعتبار حال المخاطبين بهما .

(ب) ومنهم من عرفهما باعتبار مكان نزولهما .

(جـ) ومنهم من عرفهما باعتبار زمان نزولهما .

واليك تفصيل تلك التعاريف الثلاثة فى المدنى والمكى .

أولا :

التعريف الأول : من نظر إليهما باعتبار حال المخاطبين بهما :

(إن المدنى ما وقـع خطابـا لأهـل المدينـــة ، والمكـــى ما وقـــع خطابـــا لأهـــل مكة)[٢] .

ولقد اتخذ أصحاب هذا القول المخاطبين حداً للضبط .

أخـرج أبـو عبيـد[٣] فى فضائـل القـرآن عن ميمـون بن مهـران[٤] : (ما كان فى

---

(١) انظر الاتقان (١ : ٤١) .

(٢) انظر الاتقان في علوم القرآن للحافظ جلال الدين السيوطى (١ : ٩) دار الفكر ، بيروت .

(٣) القاسم بن سلام (١٥٧ ـــ ٢٢٤ هـ) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه تولى القضاء بطرطوس ١٨ سنـة وحـج وتـوفى بمكـة . من كتبـه (الغـريب المصنـف)خ /مجلـدان فى غريب الحديث . ألفـه فى نحو من أربـعين سنـة وهـو أول من صنـف فى هذا الفـن ، (فضائـل القـرآن) خ ..... انظـــر الاعـــلام (٥ : ١٧٦) دار العلم للملايين .

(٤) ميمـون بن مهـران البرق (٣٧ ـــ ١١٧هـ) أبـو أيـوب فقيـه من القضاة كان مولى لامـرأة فى الكوفـــة=

القرآن يأيّها الناس أو يا بنى آدم فإنه مكى . وما كان يأيّها الذين آمنوا فانه مدنى)[1] .

وذلك لأن الكفر كان هو السائد على جميع أرجاء المعمورة ، فخوطبوا بـ(يأيها الناس) فالخطاب لأهل مكة ، وإن كان غيرهم داخلا فيهم .

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة ودخلوا فى دين الله أفواجا خوطبوا بـ (يأيّها الذين آمنوا) .

قال الرازى فى تفسيره : (حكى عن علقمة والحسن أنه قال : (كل شىء فى القرآن يأيها الناس فانه مكى ، وما كان يأيها الذين آمنوا فبالمدينة)[2] .

ولقد تعقب هذا الرأى بأنه غير ضابط ولا حاصر .

فان هناك فى القرآن آيات كثيرة ليست مصدرة بأحدهما نحو قوله تعالى : ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين** ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ.خلق الإِنْسَانَ مِن عَلَق**)[4] .

وتعقب أيضا بأنه غير مطرد فسورة النساء مدنية ، وصدرت بقوله تعالى : ﴿ **يأيّها النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ** ﴾[5] . وجاء فيها أيضا قوله تعالى : ﴿**يأيّها النّاس قَدْ جَآءَكُمْ الرّسُولُ بالحقّ مِن رّبّكُمْ** ﴾[6] . وقوله تعالى فى سورة البقرة المدنية : ﴿ **يأيّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُم** ﴾[7] .

واعتقته فنشأ فيها ثم استوطن الرقة وكان ثقة فى الحديث كثير العبادة .أ.هـ انظر الاعلام (٨ :٣٤٢) ، خير الدين الزركلي ط/دار العلم للملايين .

(١) الاتقان للسيوطى (ص ١٧) .جـ ١ .

(٢) التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى (٢ : ٨٢ ـــ ٨٣) ط/الثانية ، دار الكتب العلمية بطهران .

(٣) البقرة : ٤٣ .

(٤) العلق : ١ ـــ ٢ .

(٥) النساء : ١

(٦) النساء : ١٧٠ .

(٧) البقرة : ٢١

وبذلك نستخلص ان هذا التعريف غير شامل لجميع الشروط إذ آن مبنى التقاسيم والتعاريف يقوم على الضبط والانحصار والاطراد[1] .

ثانيا : التعريف الثانى :

من نظر إليهما باعتبار مكان نزولهما :

(إن المدنى ما نزل فى المدينة والمكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة)[2] .

ويشمل المدينة ضواحيها كالمنزل عليه فى بدر وأحد ، ويشمل مكة ضواحيها كالمنزل عليه فى منى وعرفات والحديبية .

وهذا التقسيم اعتبر المكان وحدة للضبط .

ولقد تعقب بأنه غير حاصر ولا مطرد . فهناك آيات لم تنزل فى المدينة ولا مكة بل نزلت فى الأسفار مثل قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ..... الآية** ﴾[3] . فقد نزلت عليه ﷺ وهو مسافر لغزوة تبوك[4] .

قال الواحدى : ثم أنزل فى المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتبعُوكَ** ﴾[5]

فبالقطع ليست من القسم المكى ولكن هل نعدها من القسم المدنى مع أنها لم تنزل بالمدينة ؟ .

وقوله تعالى ﴿ **إنَّ الّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرَادُّكَ إلىَ مَعَاد .. الآية** ﴾[6]
أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك رضى الله عنه قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله ﴿ **إنَّ الّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القرْآن لَرادُّكَ إلىَ معَاد** ﴾ إلى مكة ..

---

(١) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم للدكتور أبو شهبة ، ط/ الثانية بمطابع القاهرة الحديثة ١٩٧٣ م .
(٢) انظر الاتقان (١ : ٩) .
(٣) التوبة : ٤٢ .
(٤) انظر اسباب النزول للعلامة محمد بن أسعد العراقى مخطوطة من مصورات مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى . رقم المخطوطة فى مكتبة دبلن ٥١٩٩ .
(٥) انظر أسباب النزول للواحدى تحقيق السيد صقر (ص ٢٤٦) .
(٦) القصص : ٨٥ .

وأخرج ابن مردويه عن على بن الحسين بن واقد رضى الله عنه قال : (كل القرآن مكى أو مدنى . غير قوله تعالى : ﴿**إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**﴾ فإنها أنزلت على رسول الله ﷺ بالجحفة حين خرج مهاجرا إلى الله فلا هى مكية ولا مدنية . وكل آية نزلت على رسول الله ﷺ قبل الهجرة فهى مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان، وكل آية نزلت بعد الهجرة فإنها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان)[١] .

وبهذا يتضح أن هذا التعريف غير حاصر لأنه يثبت الواسطة (ولا ريب أن عدم الضبط فى التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يذكر من الأقسام وذلك عيب يخل بالمقصود الأول من التقسيم وهو الضبط والحصر)[٢] .

ثالثاً : التعريف الثالث :

من نظر إليهما باعتبار زمان نزولهما .

وهذا أصح وأشهر الاعتبارات وأضبطها وعليه جمهور العلماء وهو : (أن المدنى ما نزل بعد هجرته ﷺ إلى المدينة وإن كان نزوله بمكة أو ضواحيها ويدخل فيه ما نزل عليه ﷺ فى سفره، والمكى مانزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة)[٣] .

وقد اتخذ هذا التقسيم الزمان وحدة للضبط ولن نجد زمانا أليق للتمييز بين المكى والمدنى إلا الهجرة .

وهو تقسيم حاصر وضابط ومطرد بخلاف سابقيه ، وذلك لأنه تنعدم على القول به الواسطة ، ولا تخرج عنه آية من الآيات .

فالآيات إما أن يكون نزولها قبل الهجرة فنطلق عليها مكية أو بعد الهجرة فنطلق عليها مدنية دون النظر إلى مكان النزول بالذات .

---

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطى (٥ : ١٣٨ — ١٤٠) للامام الحافظ الكبير جلال الدين السيوطى (٨٤٩ هـ — ٩١١هـ) ط/دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت وبهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس .

(٢) انظر مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى (١ : ١٨٦) ط/الثالثة ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(٣) انظر الاتقان (١ : ٩) .

وعليه فقوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينا** ﴾[1] مدنية مع أنها نزلت فى عرفة فى حجة الوداع .

أخرج مسلم فى صحيحه عن عبد بن حميد أخبرنا جعفر بن عون أخبرنا أبو عميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال :

« جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين . آية فى كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال وأى آية ؟ قال : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الاسْلَامَ دِينا** ﴾ . فقال عمر إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه والمكان الذى نزلت فيه : نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات فى يوم الجمعة[2] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **إنّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تؤدّوا الأَمَانَاتِ إلى أهلِهَا** ﴾[3] . مدنية مع أنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح .

قال القرطبى : (قال ابن جريج وغيره ، ذلك الخطاب للنبى ﷺ خاصة فى أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة بن أبى طلحة الحجبى العبدرى من بنى عبد الدار ، ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وكانا كافرين وقت فتح الكعبة فطلبه العباس بن عبد المطلب لتنضاف له السدانة إلى السقاية ، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة وكسر ما فيها من الأوثان وأخرج مقام ابراهيم ، ونزل جبريل بهذه الآية ، فقال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية وما كنت سمعتها من قبل منه فدعا عثمان وشيبة فقال : خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم)[4] ا.هـ .

---

(١) المائدة : ٣

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب التفسير (١٨ : ١٥٤) ط/الثانية دار الفكر بيروت ١٣٩٢ هـ .

(٣) النساء : ٥٨ .

(٤) تفسير القرطبى (الجامع لاحكام القرآن) لأبى عبد الله محمد بن أحمد الانصارى القرطبى (٥ : ٢٥٦) مطبعة دار الكتب المصرية ـــ الطبعة الثانية ١٣٥٦ هـ .

وبناء على ذلك ذلك فإن كل ما نزل من القرآن الكريم قبيل الهجرة يطلق عليه مكى سواء أنزل فى مكة أم فى الطائف أم فى أى جهة أخرى .

وكل ما نزل عليه بعد الهجرة يطلق عليه مدنى سواء أنزل بالمدينة أم فى الغزوات أم الأسفار أم فى طريقه إلى الهجرة .

وعليه فان قوله تعالى فى سورة الفتح : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا** ... ﴾[1] . آية مدنية . فقد نزلت على رسول الله ﷺ فى منصرفه من الحديبية . كما ورد ذلك فى مسند الإمام أحمد بن حنبل عن قتادة عن أنس قال : لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا** ﴾ . قال المسلمون يا رسول الله هنيئا لك ما أعطاك الله فما لنا ؟ فنزلت : ﴿ **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾[2] .

وقد أخرجه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ـــ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ـــ « قال الحديبية . قال أصحابه : هنيئا مريئا فما لنا ؟ فأنزل الله : ﴿ **لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾[3] » .

ومن خلال هذا العرض نخلص إلى أن التعريف الثالث للمدنى والفرق بينه وبين المكى هو الذى عليه الاعتماد والعمل ولا يرد عليه ما ورد على التعريف الأول والثانى .

الموازنة بين الآراء الثلاثة :

من خلال النظر فى التعاريف الثلاثة للمدنى من القرآن والفرق بينه وبين المكى) .

---

(١) الفتح : ١

(٢) مسند الامام أحمد (٣ : ١٢٢) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٨ : ٤٥٦) كتاب المغازى . للحافظ شهاب الدين ابى الفضل العسقلانى المعروف بابن حجر (٧٧٣ ـــ ٨٥٢ هـ) ط/البابى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٧٨ هـ/١٩٥٩ م .

نجد أن التعريف الأول اتخذ المخاطبين هم الحد الفاصل لمعرفة المدنى من المكى فى القرآن وهو الذى يشير بأن المدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة والمكى ما وقع خطابا لأهل مكة .

وهو تعريف غير حاصر . فهناك العديد من الآيات التى لا تكاد تعد ليس فيها « يأيها الذين آمنوا » ولا « يأيها الناس » .. نضيف إلى ذلك أنه غير مطرد إذ أن سورة البقرة وهى مدنية نجد فيها قوله تعالى : ﴿ **يأَيُّها الناسُ اعْبُدوا رَبَّكُمْ** ﴾[1] . وسورة النساء مدنية ومفتتحها ﴿ **يأَيُّها الناس اتقوا ربكم** ﴾[2] . وبهذا يتضح أنه غير حاصر ولا مطرد وذلك عيب يخل بالتعريف إذ يشترط فى التعاريف قيامها على الضبط والانحصار والاطراد .

أما التعريف الثانى : فقد اتخذ المكان حدا ضابطا . وهو الذى نص إلى أن المدنى ما نزل بالمدينة والمكى ما نزل بمكة ومن المعروف أن هناك آيات نزلت خارج المدينة وأخرى نزلت خارج مكة وبهذا يكون التعريف أثبت الواسطة ، كما أشار إلى ذلك السيوطى ، فما نزل بالأسفار لا يسمى مدنيا ولا مكيا ، فهو إذن غير حاصر ولا ضابط وعدم الحصر عيب يخل بالتعريف .

أما التعريف الثالث : الذى اتخذ الزمان حداً ضابطا وهو الذى أميل إلى ترجيحه والمشهور بين العلماء وهو :

(ان المدنى ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان نزوله بمكة ، والمكى ما نزل قبل الهجرة) .

وكما وضحت سابقا نجد أن هذا التعريف حاصر وضابط ومطرد وتنعدم فيه الواسطة ولا يرد عليه ما ينقضه .

لهذا كان هو أصح وأرجح الأقوال ، وهو الذى أتخذه منهجا ، بإذن الله تعالى — فى الحكم على الآيات التى أتعرض لها أثناء دراستى وتحليلى لهذا الموضوع .

---

(١) البقرة : ٢١ (٢) النساء : ١

الضوابط التي يعرف بها المدنى والفرق بين تلك الضوابط وضوابط المكي .

للعلماء فى ضبط المدنى والمكى طريقان :

الطريق الأول : السماع .

الطريق الثانى : القياس(١) .

وإليك بيان ذلك بالتفصيل .

الطريق الأول : السماع :

وهو النقل الصحيح عن الصحابى أو التابعى بقرينة تفهم من كلام الراوى تحدد زمن نزول الآية .

ولم يحفظ عن النبى ﷺ فى ذلك قول ، ولا ورد عنه أنه قال إن هذه الآية أو السورة نزلت بمكة أو بالمدينة .

وقد نقل الزركشى(٢) ــ رحمه الله ــ فى البرهان كلاما نفيسا عن القاضى أبى بكر الباقلانى(٣) فى الانتصار بعد أن طرح سؤالا وهو أنه هل نص النبى ﷺ على بيان ذلك (أى : الآيات المكية والمدنية) ؟ .

قال : « إنما هذا يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم ، كما أنه لابد فى العادة من معرفة معظمى العالم والخطيب ، وأهل الحرص على حفظ كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولا وآخرا ، وحال القرآن فى ذلك أمثل والحرص عليه أشد ، غير أنه لم يكن من النبى ﷺ فى ذلك قول ولا ورد عنه أنه قال :

---

(١) الاتقان (١ : ١٧) .

(٢) هو الامام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ، ولد بمصر سنة ٧٤٥ هـ شافعي المذهب وله الكثير من المؤلفات يربو على الثلاثين مؤلفا منها البرهان فى علوم القرآن ، اعلام الساجد باحكام المساجد ، البحر المحيط فى أصول الفقه ، توفى سنة ٧٩٤ هـ .

(٣) القاضى الباقلانى : هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلانى ، ولد بالبصرة وتوفى فى بغداد عام ٤٠٣ هـ ومن اشهر مؤلفاته اعجاز القرآن . انظر : كتاب اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق سيد صقر (ص ٥٣ ــ ٥٤) طبعة دار المعارف ، أنظر : وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (٦٠٨ ــ ٦٨١ هـ) حققه د. احسان عباس (٤ : ٦٠٨) ط/دار صادر .

اعلمـوا أن قدر ما نزل بمكـة كذا وبالمدينـة كذا ، وفصلـه لهم ، ولـو كان ذلك منـه لظهر وانتشر .

وإنما لم يفعلـه لأنـه لم يؤمـر به ، ولم يجعـل الله علـم ذلك من فرائض الأمـــة، وإن وجب فى بعضه على أهـل العلـم معرفـة تاريخ النـاسخ والمنسوخ ليعـرف الحكـم الذى تضمنها ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ بعينه ، وقولـه هذا هو الأول المكى وهذا هو الآخر المدنى .

وكـذلك الصحابـة والتابعـون من بعدهـم لما لم يعـتبروا أن من فرائض الديــن تفصيـل جميـع المكـــى والمدنى مما لا يسوغ الجهـــل به ، لم تتوفـــر الدواعـــى على إخبارهـم به ، ومواصلـة ذكـره على أسماعهـم ، وأخذهـم بمعرفتـــه وإذا كان كذلك ساغ أن يختلف فى بعض القـرآن هل هو مكـى أو مدنى وأن يعملـوا فى القـول بذلك ضربا من الـرأى والاجتهاد ، وحينئـذ فلـم يلـزم النقـل عنهم ذكـر المكـى والمدنى ، ولم يجب على من دخل فى الإسلام بعد الهجـرة أن يعـرف كل آيـة نزلت قبـل إسلامـه : مكية أو مدنية ، فيجوز أن يقـف فى ذلك أو يغـلب على ظنـه أحـد الأمريـن ، وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته فى النـاس ولـزوم العمـل به لهم ووجوب ارتفاع الخلاف فيه[1] »ا.هـ .

ونستطيع أن نوجز كلام القاضى فى ثلاث نقاط وهى :

(١) ان العلـم بالمكـى والمدنى لم يكـن مما علمـه الـرسول ﷺ لصحابتـه ويرجـــع هذا العلم لحفظ الصحابة والتابعين .

(٢) ان هذا العلـم علـم اجتهادى يجوز لعلمـاء الأمـــة أن يحكمـــوا فيـــه بحسب اجتهادهم .

(٣) ان هذا العلم فرض كفاية فمعرفته ليست واجبة على كل مسلـم ، لكـن لا بد من معرفتـه لبـعض العلمـاء حتـى يكونـوا على معرفـة وافيـة بتـاريخ التشريـــع الاسلامى ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، والتدرج فى الأحكام والتكاليف .

ولكن عظمة ومكانة هذا العلم لم تهتـز بهذا القـول فالقـاضى أبـو بكـر أوجبها

---

(١) البرهان لبدر الدين الزركشى (١ : ١٩١ ــ ١٩٢) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

على علماء الأمة ، ولقد أفصح العلامة أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى[1] بوضوح عن أهمية هذا العلم فى كتابه (التنبيه على فضل علوم القرآن) يقول : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله ، وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاء . وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى . وما نزل بمكة فى أهل المدينة وما نزل بالمدينة فى أهل مكة ثم ما يشبه نزول المكى فى المدنى وما يشبه نزول المدنى فى المكى ثم ما نزل بالجحفة وما نزل ببيت المقدس وما نزل بالطائف وما نزل بالحديبية ، ثم ما نزل ليلا وما نزل نهارا وما نزل مشيعا وما نزل مفردا ، ثم الآيات المدنيات فى السور المكية والآيات المكية فى السور المدنية ، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة وما حمل من المدينة إلى مكة وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، ثم ما نزل مجملا وما نزل مفسرا ، وما نزل مرموزا ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدنى . هذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم فى كتاب الله[2] » .

وكلام النيسابورى هذا لا يتناقض مع كلام القاضى أبى بكر . فهو يلزم المجتهد المفسر لكتاب الله أن يكون على إحاطة كاملة بعلم المكى والمدنى . ولقد اشتهر من الصحابة والتابعين الكثير ممن عنوا بدراسة القرآن الكريم وساعدهم على ذلك وجودهم فى فترة نزول الوحى والتنزيل يشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله ومن هؤلاء الصحابة على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس . ولقد كان لنشأة على بن أبى طالب رضى الله عنه فى بيت النبوة وزواجه بالسيدة فاطمة الأثر الكبير فى بلوغه درجة عالية من العلم .

وأخرج ابن سعد بسنده عن على قال : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت . إن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا طلقا[3] .

---

(١) العلامة محمد بن حبيب النيسابورى . اديب واعظ ، مفسر ، صاحب عقلاء المجانين — ط.صنف فى القراءات والتفسير والأدب وتناقل الناس تصانيفه . ومن كتبه التنزيل وترتيبه — خ.. فى الظاهرية توفى سنة ٤٠٦ هـ الاعلام (٢:٢١٣) .

(٢) البرهان (١ : ١٩٢) .

(٣) طبقات ابن سعد (٢ : ٣٣٨) .

وعنه ايضا عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو حسن[1] .

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن مسعود قال :
(والله الذى لا إله غيره ما أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[2] .

وإليك نصا صريحاً من ابن عباس يدل على شمول معرفته بالمكى والمدنى والناسخ والمنسوخ .

روى مسلم بسنده عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس ألمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة ؟ قال : لا .

فتلوت عليه هذه الآية التى فى الفرقان : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق ».. إلى آخر الآية قال : هذه آية مكية نسختها آية مدنية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا) وفى رواية ابن هشام :
فتلوت عليه هذه الآية التى فى الفرقان (إلا من تاب ..)[3] .

وإليك بعض الأمثلة على مدنية الآيات أو السور أو مكيتها بقرينة تفهم من كلام الراوى مثال ذلك :

روى البخارى[4] بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة[5] ، وهو يتوكأ على عسيب[6] فمر بنفر من اليهود

---

(١) طبقات ابن سعد (٢ : ٣٣٩) .
(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى كتاب فضائل القرآن (١٠ : ٤٩) ط/ البابى والحلبى سنة ١٣٧٨ هـ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب التفسير (١٨ : ١٦٠) دار الفكر بيروت .
(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٧ : ٣٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .
(٥) فى رواية مسلم من طريق مسروق عن ابن مسعود بلفظ (كان فى نخل) . وزاد فى رواية العلم (بالمدينة) . ا.هـ فتح البارى (١٠ : ١٠٩) .
(٦) العسيب ــ بوزن عظيم ــ وهى الجريدة التى لا خوص فيها .

فقال بعضهم : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون . فقاموا إليه فقالوا : يا أبا القاسم . حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت عنه حتى صعد الوحى . ثم قال : « **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** »(١) .

فالآية مدنية كما هو واضح من الحديث . وذلك يفهم من كلام الراوى عند قوله (فى حرث بالمدينة) وقوله (فمر بنفر من اليهود) واليهود كانوا يقيمون فى المدينة .

ولا شك أن معرفة سبب النزول من أهم القرائن المساعدة لاعطاء حكمنا على الآية بأنها مدنية أو مكية .

فالآيات التى نزلت بصدد المنافقين ننزلها منزلة المدنى . لأن النفاق لم يظهر إلا فى المدينة بعد الهجرة .

مثل قوله تعالى : ﴿**وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾(٢) .

أخرج البخارى بسنده عن ابن شهاب قال أخبرنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لما مات عبد الله بن أُبيّ ابن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه . فقلت يا رسول الله أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا كذا وكذا أعدد عليه قوله . فتبسم رسول الله ﷺ . وقال : أخر عنى يا عمر فلما أكثرت عليه . قال إنى خيرت فاخترت . ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها . قال : فصلى رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ـــ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا إلى قوله وهم فاسقون ـــ قال : فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ . والله ورسوله أعلم(٣) .

كذلك الآيات التى نزلت بشأن الأحكام الشرعية فإن معظمها نزلت

---

(١) الاسراء : ٨٥ (٢) التوبة : ٨٤ .

(٣) صحيح البخارى بهامشه فتح البارى (٩ : ٤٠٦ ـــ ٤٠٧) .

بالمدينة وأيضاً الآيات التى نزلت فى شأن الجهاد والغزوات وأحكام الصلح والمعاهدات فهي مدنية[1] .

والآيات التى نزلت لتثبت العقيدة فى قلوب الناس وبشأن المشركين وبيان زيف عقائدهم وجحدهم بالرسالة والكتاب فهى فى الغالب مكية مثل قوله تعالى : ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً. سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ..** ﴾[2]

فقد نزلت فى الوليد بن المغيرة أحد صناديد قريش وزعمائها الطغاة الجبابرة أخرج الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الوليد بن المغيرة جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال ياعم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا قال : لم . قال : ليعطوكه فانك أتيت محمدا لتتعرض لما قبله قال قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا قال فقل فيه قولا يبلغ قومك إنك منكر له أو أنك كاره له قال وماذا أقول ، فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة[3] ، وانه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ومايعلى وإنه ليحطم ما تحته . قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعنى حتى أفكر ، قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه[4] . فالآيات مكية بلا نزاع لأن الوليد بن المغيرة كان فى مكة والحادثة وقعت قبل الهجرة .

---

(١) راجع موضوع (ضوابط المدنى) فى الموضوع الذى يلي هذا البحث (ص٣٦) من بحثنا هذا .

(٢) سورة المدثر : ١١ — ١٧ .

(٣) أى رونقاً وحسنا .

(٤) المستدرك للحاكم (٢ : ٥٠٧) الناشر دار الكتاب العربي ، بيروت .

وخلاصة القول :

(١) أن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم كان لهم الفضل الأول فى وصول علم المدنى والمكى الينا وذلك من خلال ما رووا لنا من الأحاديث .

(٢) إن علم أسباب النزول ذو علاقة وثيقة بعلم المكى والمدنى ولا يكادان يفترقان .

الطريق الثاني : القياس :

وهو الضابط الذى يعرف بواسطته أن الآية أو السورة مدنية أو مكية وهو ليس مطردا بل مبنيا على الغالب والكثرة . ومرجعه إلى الألفاظ والتراكيب . ولكل من المدنى والمكى ضوابط . وتعرف بالتتبع والاستقراء .

ضوابط السور والآيات المدنية .

أولا : « كل سورة فيها فريضة أو حد فهى مدنية »[1] .

فاذا ما تتبعنا الآيات أو السور التي فصلت الفرائض وكيف يقسم الميراث على الورثة نجدها أنها مدنية . فمثلا سورة النساء عنيت منذ بدايتها من قوله تعالى : ﴿ **للرجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوَالِدانِ والأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوالدانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنهُ أَوْ كَثُرَ . نَصِيباً مَّفْرُوضاً** ﴾ الى قوله تعالى ﴿ **وصية من الله والله عليم حليم** ﴾[2] . كذلك سورة البقرة والأنفال والتوبة والأحزاب تعرضت فى بعض آياتها للفرائض وكيفية توزيعها وجميع تلك السور مدنية وكذلك الآيات والسور الكريمة التي فصلت الحدود تعد من الجانب المدنى فقد شرع الله لعباده كثيراً من الحدود وألزمهم إقامتها كحد القتل والزنى والسرقة وفى تطبيق تلك الحدود وغيرها من حدود الله أمان للناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وليكون هذا العقاب الصارم عبرة للناس حتى يرتدع أهل البغي والفساد .

---

(١) الاتقان (١ : ١٨) .

(٢) سورة النساء : ٧ — ١٢ .

وهذا التشريع من لدن العزيز فى سلطانه الحكيم فى أمره ونهيه الذى لا تخفى عليه مصالح عباده . قال تعالى : ﴿ **يأيها الّذين آمنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فى القَتْلَى الحُرُّ بالحُرِّ وَالْعَبْد بالْعَبْدِ والأنثى بالأُنثى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أخِيهِ شَىْءٌ فاتبَاعٌ بالمعْرُوفِ وأدَاءٌ إلَيْهِ بإحْسَانٍ ذلك تَخْفِيفٌ مِن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَن اعتَدَى بَعْدَ ذَلكَ فَلَهُ عَذَابٌ ألِيمٌ . وَلَكُمْ فى القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الألْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون** ﴾[1] . وسوف أتوسع فى هذا الموضوع بالتفصيل إن شاء الله فى خصائص السور المدنية .

ثانياً :

قال السيوطى فى الإتقان نقلا عن مكى بن أبى طالب : (كل سورة فيها ذكر المنافقين مدنية وزاد غيره سوى العنكبوت)[2] فإنها مكية إلا إحدى عشرة آية من مقدمتها مدنية وهى التى ورد فيها ذكر المنافقين ومن خلال تتبعى للسور والآيات التى ورد فيها ذكر المنافقين وجدتها فى البقرة والنساء والمائدة والتوبة والأحزاب والحديد والحشر والمنافقون وجميع هذه السور مدنية وسوف أتعرض للآيات فى موضوع خصائص السور والآيات المدنية بالتفصيل إن شاء الله تعالى[3] .

ثالثاً :

كذلك كل سورة فيها ذكر الجهاد أو بيان لأحكامه فهى مدنية حتى سورة (الحج) عند من يرى أنها مكية فآية الجهاد فيها مدنية .

فلقد وردت آيات الجهاد فى سورة آل عمران والنساء والأنفال والأحزاب والحديد والحشر . وضمت أحكامه وحضت عليه وفصلت أحكام الصلح والمعاهدات وسوف أتعرض للآيات بالتفصيل فى الحديث عن الجهاد فى موضوع خصائص السور المدنية[4] .

---

(١) البقرة : ١٧٨ – ١٧٩ .

(٢) الاتقان (١ : ١٨) .

(٣) راجع (ص ٤٣٠) من بحثنا هذا .

(٤) راجع (ص ٤٥٧) من بحثنا هذا .

ضوابط السور والآيات المكية :

أولاً :

كل سورة ورد فيها لفظ « كلا »[1] فهي مكية . وهذه الكلمة قد ذكرت فيما بين سورة (مريم) وسورة (الهمزة) فى خمس عشرة سورة وكلها مكية وورد ذكرها ثلاثا وثلاثين مرة ، حسب تتبعى لهذه اللفظة فى تلك السور قال السيوطى فى الاتقان : قال الدرينى رحمه الله :

(وما نزلت « كلا » بيثرب فاعلمن ولم تأت فى القرآن فى نصفه الأعلى)

وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جبابرة فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول ومانزل منه فى اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم)[2] .

ومثال لسورة مكية ورد فيها (كلا) :

قال تعالى : ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ . كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ .. ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾[3] .

فهذه السور المكية وردت فيها (كلا) ثلاث مرات على سبيل الزجر والردع .

ثانياً :

كل سورة ورد فيها آية السجدة فهى مكية وهى فى القرآن فى خمسة عشر موضعا تبدأ من سورة (الأعراف) وتنتهى بسورة (العلق) على خلاف فى حصرها[4]

وفى سورة (الرعد) و (الحج) خلاف بين العلماء .

---

(١) أنظر الاتقان (١ : ١٨) .

(٢) الاتقان (١ : ١٨) .

(٣) سورة التكاثر : وهي ٨ آيات .

(٤) قال القرطبى : أولها خاتمة الأعراف وآخرها خاتمة العلق . أنظر تفسير القرطبى (٧ : ٣٥٧) .

ومثال (لسجدة) فى سورة مكية قوله تعالى : ﴿ وَممَّنْ هَدَيْنَا واجْتَبَيْنَا اذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا ﴾[١] .

ثالثاً :

ومن تلك الضوابط وجود حروف التهجى التى فى أوائل السور .

فكل سورة افتتحت بأحرف التهجى فهى مكية سوى الزهراوين (البقرة وآل عمران)[٢] .

ولقد وردت فى تسع وعشرين سورة فبإخراج البقرة وآل عمران يكون عدد السور المكية التى ورد فيها حرف التهجى سبعا وعشرين سورة .

رابعاً :

وأخيراً كل سورة وردت فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية باستثناء سورة البقرة . ولقد وردت قصة آدم وإبليس فى خمس آيات من كتاب الله العزيز اختصت سورة الأعراف بأربعة منها والخامسة فى سورة (يس) فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين ﴾ .[٣]

وخلاصة البحث أن هذه الضوابط لم يرد فيها بتاتا ذكر للأحكام الشرعية أو الحدود أو أحكام القتال ومجادلة أهل الكتاب فان ذلك قد عنيت به السور والآيات المدنية .

خصائص السور والآيات المدنية :

لقد اختصت السور والآيات المدنية والمكية بخصائص بعضها يرجع إلى الأسلوب والأخرى ترجع إلى الموضوع .

---

(١) مريم : ٥٨ .

(٢) أنظر الاتقان (٢ : ١٨) .

(٣) سورة يس : ٦٠ .

أولا : خصائص السور والآيات المدنية من ناحية الأسلوب والفرق بينها وبين المكى:

(أ) طول أكثر سوره وآياته :

والحكمة فى ذلك أنه « لما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات . لأنه وجدت دولة إسلامية فاضلة تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها والقضاء بها . وبدأت الآيات الكريمة تتوالى وابتدأت بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الاخاء الذي آخى فيه النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار وشرعت النظم الاجتماعية والمعاملات الانسانية من أحكام البيوع والمزارعات وتحريم للربويات وغيرها وفريضة الصدقات وتنظيمها وإعطاء الفقير حقه والتنظيم الاجتماعي الكامل . وشرعت الزواجر الاجتماعية من حدود وقصاص وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق وفتح باب الجهاد ووضعت نظم الحرب وقامت العلاقات الدولية على أسس متينة محكمة يراعى فيها حق العدو كما يلاحظ حق الولى على سواء لأن المبادىء المدنية في الإسلام قامت على إعطاء كل ذى حق حقه من غير بخس ولا شطط ولا مجازرة للحد ولا اعتداء[1] أ. هـ .

وهذه التشريعات السابقة بحاجة إلى البسط والإطالة . مثال ذلك : (آية الدين) .. ومن قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى** ﴾ إلى قوله ﴿ **والله بكل شيء عليم** ﴾[2] .

على حين نجد الآيات والسور التى نزلت فى مكة قبل الهجرة اتسمت بالإيجاز وبالقصر ــ فى الجملة عن الآيات المدنية . فمثلا : (جزء عم) وهو الجزء الثلاثون من القرآن الكريم أغلبه مكي ونلاحظ قصر آياته وتعدد فواصله بل إن مقدار النصف الأخير من القرآن الكريم معظمه مكى ويتسم بقصر آياته وسوره . والحكمة فى ذلك « أن القوم فى مكة أهل عناد وشراسة وطغيان واعتداد بقوتهم والرسول ﷺ والمؤمنون لا يستطيعون رد هذا الطغيان وايقافهم عند حدهم .. فكان الله هو الذى يتولى الدفاع عنهم بالكلمة الحاسمة ينزل بها القرآن

---

(١) عن (القرآن المعجزة الكبرى) للشيخ محمد أبو زهرة (ص ٢٤ ــ ٢٦) ط/ دار الفكر العربي .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

يهز نفوس هؤلاء ويزجرهم ويتوعدهم بالأسلوب القوى الذى يناسب حالهم وبآيات كثيراً ماتكون قصيرة موجزة لكنها قارعة قاصمة شديدة فى كلماتها ووقعها .

وهكذا كان القرآن وهو الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة ومراعاة مقتضى الحال فإذا وجدت آياتاً أو سوراً قصيرة وأسلوباً يزجر ويقسو ويشتد يرد هجوماً عن رسول الله ﷺ ويهدد المعاندين فاعلم أن هذه الآيات مكية)[1] .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ** ... ﴾ الى آخر السورة[2] .

﴿ **كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ لَتَرُونَّ الجَحِيمَ** ﴾ السورة[3] .

(ب) قلة الألفاظ التى يحتاج فهمها إلى المعاجم .

وذلك لأن الآيات المدنية عنيت بتفصيل وبيان الأحكام الشرعية وحدودها ودعت الى الجهاد لاعلاء لواء الاسلام . وحضت على الاستشهاد فى سبيل الله وجادلت أهل الكتاب ونددت بالمنافقين وكشفت مايضمرونه فى نفوسهم للاسلام والمسلمين وشأن ذلك أن تكون الآيات واضحة فى أسلوبها يفهمها كل من يقرأها فلا تكون هناك له حجة عند عدم تطبيقها والعمل بمقتضاها . والأمثلة على ذلك الآيات الواردة فى المحرمات من النساء قال تعالى : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِى أَرْضَعْنَكُمْ وأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاتى فى حُجُورِكُمْ من نِسَائِكُمْ اللاتى دَخَلْتُم بِهِنَّ فإن لَّم تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيمًا والمحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ**

(١) باختصار من كتاب علوم القرآن د. عبد المنعم النمر ، ط/ الأولى (ص ٦١) ، ط/ دار الكتاب المصرى ـــ دار الكتاب اللبنانى .

(٢) القيامة : ٢٠ ـــ ٤٠ .

(٣) التكاثر : ٣ ـــ ٨ .

الله عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وراء ذلكم ﴾[1] . . . الآية .

على حين نجد الآيات المكيـة نزلت حيث كان القـوم فى جاهليـة عميـاء يتخـذون الاصنـام والأوثـان آلهة يعبـدونها من دون الله وينكـرون الرسالـة المحمديـة ويكذبـون بيـوم الديـن ويقولـون (إن هى إلا حياتنـا الدنيـا نموت ونحيـا ومايهلكنـا إلا الدهر)[2]. وهـم أهـل لسن وفصاحـة وبيـان وقد برزوا فى جميـع فنـون اللغـة شعرهـا ونثرها ، وحكمهـا وأمثـالها وطاوعهـم البيـان فى أساليـب ساحـرة حقيقـة ومجازا ، ايجازا وإطنابـا ، حديثـا ومقـالا فنجـد فى مكـى القـرآن ألفاظـا شديـدة اللهجـة دعتهم إلى توحيـد الله سبحانـه وألـزمتهم بالبراهين القطعيـة كما ورد فى قولـه تعـالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[3] .

قال الامـام فخـر الديـن الـرازى فى تفسيره « القـول بوجـود إلاهين يفضى إلى المحال . لأنا لو فرضنـا وجـود إلاهين فلابـد وأن يكـون كل واحـد منهمـا قادراً على كل المقدورات ولـو كان كذلك لكـان كل واحـد منهمـا قادرا على تحريك زيـد وتسكينـه . فلـو فرضنـا أن أحـدهما أراد تحريكـه والآخر تسكينـه فامـا أن يقـع المراد وهـو محال لاستحالـة الجمـع بين الضديـن . أو لا يقـع واحـد منهمـا وهـو محال لأن المانـع من وجـود مراد كل واحـد منهمـا مراد الآخر فلا يمتنـع مراد هذا إلا عنـد وجـود مراد ذلك وبالعكس . فلو امتنعا معا لوجـدا معـا وذلك محال أو يقـع مراد أحـدهما دون الثانى[4] وذلك محال أيضا إذاً لابد لهذا الكون من إلـه واحـد يدبـر أمـوره وشئونـه كيـف شاء إذ أن تعدد الآلهة مدعاة لتضارب الكون ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا .

وقد برهن سبحانه على وجوده بمخلوقاته وآياته العظيمة باسلوب بليـغ أعجـز به فصحاء العرب وبلغاءهم وجعلهـم على مر العصور والدهـور يقفـون على اعتـاب لغـة القرآن مكتوفى الأيدى ، منحنين أمام أسلوبه إجلالا وخشيـة اعترافـا بسمـوه وإدراكـاً لبعض أسراره .

---

(1) النساء : ٢٣ ــ ٢٤ .
(2) الجاثية : ٢٤ .
(3) الأنبياء : ٢٢ .
(4) تفسير الرازى (٢٢ : ١٥٠ ــ ١٥١) ، ط/دار الكتب العلمية طهران .

ويحتاج القارىء للآيات الرجوع إلى التفاسير وأهل العلم لبيان المراد من الألفاظ الواردة فيها . قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾[1] . والمراد بالمزن السحاب قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد[2] .

والمزن : السحاب عامة . وقيل السحاب ذو الماء واحده مزنة .

وقيل المزنة السحابة البيضاء . والجمع مزن[3] . ا.هـ .

وقوله تعالى ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾[4] . قال العوفى عن ابن عباس أى مكذبون غير مصدقين[5] .

المداهنة والادهان : المصانعة واللين . وقيل المداهنة إظهار خلاف ما يضمر . والادهان الغش . ودهن الرجل إذا نافق ودهن غلامه إذا ضربه وقال في قوله ﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مدهِنُون ﴾ أى مكذبون[6] ا.هـ .

وقوله تعالى ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ قال ابن كثير أما العتل فهو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع . وقال الامام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن عن سفيان عن سعيد بن خالد عن حارثة بن وهب قال قال رسول الله ﷺ « **ألا أنبئكم بأهل الجنة . كل ضعيف لو أقسم على الله لأبره . ألا أنبئكم بأهل النار كل عتل جواظ[7] مستكبر** »[8] . وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد الحميد عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم قال سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم .

---

(١) الواقعة : ٦٩ .

(٢) ابن كثير (٤ : ٢٦٩) ط / عيسى البابى الحلبى .

(٣) لسان العرب (١٣ : ٤٠٦) ط/دار صادر . بتصرف .

(٤) الواقعة : ٨١ .

(٥) ابن كثير (٤ : ٢٨٩) .

(٦) لسان العرب (١٣ : ١٦٢) بتصرف .

(٧) الجواظ : الكثير اللحم الجافى الغليظ الضخم المختال في مشيته . لسان العرب (٧ : ٤٣٩) .

(٨) مسند الامام أحمد (٤ : ٣٦) .

فقال : (هو الشديد الخلق المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام والشراب الظلوم للناس رحيب الجوف)[1] .

وبهذا الاسناد قال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة الجواظ الجعظرى[2] العتل الزنيم** .. » .

وقال إبن أبي حاتم حدثنا عمار بن خالد الواسطى حدثنا أسباط عن هشام عن عكرمة عن ابن عباس فى قول (الزنيم) قال الدعى الفاحش اللئيم[3] .

والعتل : هو الشديد من الرجال والدواب .. وفى التنزيل (عتل بعد ذلك زنيم) قيل الشديد فى الخصومة وقيل هو ما تقدم[4] .

والزنيم : وفى التنزيل العزيز (عتل بعد ذلك زنيم) وقال الفراء :

الزنيم الدعى الملصق بالقوم وليس منهم ، وقيل الذى يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزنمتها[5] .

وقوله تعالى في سورة الغاشية يصف ما أعده من النعيم لعباده المؤمنين . إلى أن قال : ﴿ **وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ** ﴾[6] .

قال ابن عباس (النمارق) الوسائد وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدى والثورى وغيرهم .

وقال ابن عباس (الزرابى) البسط وكذا قال الضحاك وغير واحد .
ومعنى مبثوثة أى هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها[7] .

والنمارق : جمع نمرقة . قال الفراء في قوله ونمارق مصفوفة هى الوسائد

---

(١) مسند الامام أحمد (٤ : ٢٧) .

(٢) الجعظرى : القصير الرجلين العظيم الجسم مع قوة وشدة الأكل . وقال ثعلب : الجعظرى : المتكبر الجافى عن الموعظة . لسان العرب (٤ :١٤٢) .

(٣) باختصار من تفسير ابن كثير (٤:٤٠٤) .

(٤) لسان العرب (١١ : ٤٢٣) بتصرف .

(٥) لسان العرب (١٣ : ١٦٢) بتصرف .

(٦) الغاشية : ١٥ — ١٦ .

(٧) باختصار من تفسير ابن كثير (٤ : ٥٠٣) .

واحدتها نمرقة . وجمعها نمارق[1] .

وزرابى : الزرابى البسط . وقيل كل ما بسط واتكىء عليه ..

وعن الأعرابى الزجاج فى قوله تعالى : ﴿ **وزرابى مبثوثة** ﴾ الزرابى البسط[2] . (مبثوثة) قال الله عز وجل : وزرابى مبثوثة قال الفراء : مبثوثة كثيرة[3] .

وقد يرد هنا سؤال هو أنه لماذا كان القرآن فى مكة يغلب عليه الألفاظ الجزلة والأسلوب القوى المتين بخلافه فى المدنى حيث يغلب عليه الأسلوب السهل ؟ .

والجواب عليه : أن القرآن راعى البلاغة فى كلا العهدين حيث إن حال المخاطبين يقتضى ما جاء عليه القرآن الكريم . فإن البلاغة كما يقولون هى مراعاة المتكلم لحال المخاطبين . وأيضاً فإن الموضوعات التى تكلم عليها القرآن المدنى تقتضى هذا الأسلوب وتلك الألفاظ ، وكذلك الأمر فى المكى .

وقد يتساءل البعض ويقول : إننا إذا رجعنا إلى الآيات المدنية نجد أيضا فيها ألفاظاً يحتاج القارىء الرجوع فيها إلى التفاسير والمعاجم ..

فالجواب عليه أن ذلك من جانب الكم . فالآيات المكية التى بها ألفاظ يحتاج لها الباحث الرجوع إلى التفاسير والمعاجم أكثر من الآيات المدنية وذلك للحكمة التى سبق أن بينتها فى أول الموضوع .

(جـ) إن كل آية يبدأ الخطاب فيها بقوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ فهى مدنية .

فقد أصبح المؤمنون ــ فى مجتمعهم الجديد ــ جماعة لها من القوة والمكانة ما يدعو إلى تشريفهم بنداء الله لهم بصفة الايمان[4] . وليس كل آية بدأ الخطاب

---

(١) لسان العرب (١٠ : ٣٦١) .

(٢) لسان العرب (١ : ٤٤٧) بتصرف .

(٣) لسان العرب (٢ : ١١٤) بتصرف .

(٤) المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الانسانية . د. شعبان محمد اسماعيل (٢٧٩) .

فيها بقوله : ﴿ **يأيها الناس** ﴾ مكية . إلا أن نقول ذلك فى الغالب . وهناك أمثلة لسور وآيات مدنية جاء فيها الخطاب (يأيّها الناس) .

مثل سورة النساء مدنية وفاتحتها قوله تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذِى خَلَقَكُم مِن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كثيرا وَنِساءً واتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبا** ﴾[(١)] . وكذلك سورة الحج على مذهب من يرى أنها مدنية افتتحت بقوله تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ اتقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيم** ﴾[(٢)] . فهذه خصائص السور والآيات المدنية مع الفرق بينها وبين المكية وهى ترجع إلى الأسلوب .

ثانيا : الخصائص الموضوعية للسور والآيات المدنية :

سبق أن تحدثنا عن خصائص السور والآيات المدنية من ناحية الأسلوب مع الفرق بينها وبين خصائص السور والآيات المكية .

ونتعرف الآن على النوع الثانى وهو : خصائص السور والآيات المدنية من الناحية الموضوعية والفرق بينها وبين الخصائص المكية الموضوعية .

ولكل فقرة أو خاصية من هذه الخصائص أفردت لها بابا مستقلا فى هذا البحث كما هو واضح فى الخطة . لذلك سوف أذكر هذه الخصائص إجمالاً دون توسع وتفصيل ، تحاشيا للتكرار الذى لا فائدة منه . وإليك هذه الخصائص الموضوعية للسور والآيات المدنية .

(١) التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات كأحكام بعض أنواع الصلوات التى لم تشرع فى مكة والصيام والزكاة والقصاص والنكاح والطلاق والبيوع والمداينات والربا والحدود كحد القتل والزنى والسرقة والكفارات ككفارة القتل الخطأ والظهار وتنظيم الأسرة وهو ما يعرف حديثا (بالأحوال الشخصية) وما يتصل بالمواريث والوصايا .

---

(١) سورة النساء : ١

(٢) سورة الحج : ١

يقول الشيخ محمد أبو زهرة«لما انتقل النبى ﷺ إلى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات لأنه وجدت دولة إسلامية فاضلة تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها والقضاء بها . فنظم التعامل وابتدأ بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الأخاء الذى آخى فيه النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار . وشرعت النظم الاجتماعية والمعاملات الانسانية من أحكام البيوع والمزارعات وتحريم للربويات وغيرها وفريضة الصدقات وتنظيمها . والتنظيم الاجتماعى الكامل وشرعت الزواجر الاجتماعية من حدود وقصاص»(١) .

وذلك كما ترى فى سورة البقرة والنساء والمائدة والنور .

(٢) محاجة أهل الكتاب وبيان ضلالهم فى عقائدهم كقولهم بالتثليث أو الحلول أو الإبنية أو الصلب ودعوتهم إلى الايمان بالدين الاسلامى الذى بشرت به رسلهم . وبيان جناياتهم فى قتل أنبيائهم وتحريفهم لكتبهم ولاسيما البشارة بالنبى صلوات الله وسلامه عليه وتغيير بعض الأحكام التى لا تتفق مع أهوائهم مثل إبدالهم حد الرجم للزانى بالجلد أو تسخيم الوجه طمعا فى المال أو لتقربهم إلى الأشراف .

وذلك كما تشاهد فى آيات سورة المائدة وآل عمران والبقرة والنساء والتوبة(٢) .

(٣) بيان ضلال المنافقين وإظهار ما تكنه نفوسهم من الحقد والعداوة وإظهار ما بهم من سوء الطباع والجبن والهلع وأنهم لا يبتغون إلا عرض الدنيا ولا يهمهم أمر الاسلام وإعلاء كلمته .

ولقد اختصت الآيات المدنية بهذا الجانب فى حين لا نجده فى الآيات المكية لأن أهلها كانوا أعداء ظاهرين ولم يظهر إلا فى المدينة من قوم مذبذبين مرضى القلوب وهؤلاء أشد خطراً من الأعداء السافرين ومواقفهم البغيضة أفصح عنها القرآن فى سورة البقرة والتوبة والمنافقون وقامر

(١) باختصار من كتاب (القرآن المعجزة الكبرى) للشيخ محمد أبو زهرة (٢٤ — ٢٥) .
(٢) باختصار وتصرف من (المدخل لدراسة القرآن الكريم) د. أبو شهبة (٢٣١ — ٢٣٢) .

بمحاولات كثيرة لإثارة الفتن وتفريق كلمة المسلمين ، يتظاهرون بزى الإسلام مظهرين الحب له والوقوف صفا إلى جانبه وهم فى ظاهرهم ليسوا مجالا للشك والريب . فكان الوحى ينزل على رسول الله ﷺ مظهراً لحقيقة نفوسهم وما تخبئه قلوبهم فكان صلوات الله وسلامه عليه على معرفة كاملة بهم .

(٤) بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمة تشريعه وذكر الأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والمعاهدات وما أعد الله من الثواب العميم للمجاهدين فى سبيله . وكذلك الغنائم والفىء وتقسيمه وقد وضحت ذلك سورة البقرة والأنفال وبراءة والقتال والفتح والحشر ففصلت الآيات نظم الحرب وأقامت العلاقات الدولية على أسس متينة وأصبح لدولة الاسلام قوة حربية يهابها أعداؤها وتوسعت الفتوحات الاسلامية ودخل الناس فى دين الله أفواجا[1] .

وإكمالا للفائدة لابد أن نشير باختصار إلى الخصائص الموضوعية للسور والآيات المكية .

(١) الدعوة إلى الأصول الأساسية لهذا الدين الحنيف ووضع الحجر الأساسى له وهو تثبيت العقيدة وما يتصل بها من الايمان بالله واليوم الآخر ومافيه من البعث والحشر والجزاء والايمان بالرسل والكتب والملائكة وذلك لأن العالم أجمع وبالأخص حيث انبثق هذا النور كانوا فى ظلمات الشرك والوثنية وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء ﴿ **يَقُولُونَ أئنَّا لَمَرْدُودُون فى الحَافِرة أئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إذاً كَرَّة خَاسِرة** ﴾[2] .

فمجتمع هذا شأنه من اللائق بحاله دعوته أولا إلى الايمان بالأصول الأساسية الموضحة، فاذا ماآمنوا بها خوطبوا بالفروع والتشريعات التفصيلية .

(٢) مجادلة المشركين باقامة الحجة عليهم فى شأن ما يعتقدونه فى آلهتهم التي صنعتها أيديهم وبيان أنها لا تستحق العبادة وأنها لا تقربهم إلى الله زلفى فهى

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ، د. أبوشبهة (٢٣٢) .

(٢) النازعات : ٩ ، ١٠ ، ١١ .

لا تضر ولا تنفع ولا تعي ولا تحس وتذكيرهم بأن الله هو الخالق الواحد المستحق وحده العبادة ودعوتهم إلى استعمال عقولهم وترك ما ورثوه عن ابائهم من الضلال والجهل كما قال الله تعالى فى سورة الزخرف ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهتَدُون . وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُون** ﴾[١] . وكذلك إقامة الأدلة الواضحة على أن القرآن حق لا شك فيه وأنه من عند الله وقد وقع التحدى بالقرآن فى ثلاث سور مكية ولم يقع التحدي به فى القسم المدنى الا فى سورة البقرة[٢] .

(٣) التحدث عن أصول التشريعات العامة والآداب والفضائل والدعوة إلى التمسك بها متمثلة فى الكليات الخمس : (حفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب) التى نادت بها جميع الشرائع السماوية . والحث والثبات على العقيدة والأمر بالصلاة والصدقة والصدق والعفاف وبر الوالدين وصلة الرحم والعفو والعدل والإحسان والتواصي بالحق والخير والصبر والنهى عن القتل ووأد البنات والظلم والزنا وأكل أموال الناس بالباطل . قال تعالى : ﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم من إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَابَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التى حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بالتى هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون** ﴾[٣] . وقوله تعالى ﴿ **خُذ العَفْوَ وأْمُرْ بالعرف وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلين**[٤] ﴾)[٥] .

---

(١) الزخرف : ٢٢ — ٢٣ .

(٢) أنظر المدخل لدراسة القرآن ، د. أبو شهبة (ص ٢٢٩) .

(٣) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤) الأعراف : ١٩٩ .

(٥) الموافقات فى أصول الشريعة لأبي اسحاق الشاطبى (٢ : ٥) .

(٤) ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ليكون فى قصصهم عبرة وموعظة لأولى الألباب . ولبيان أن دعوة الرسل جميعا واحدة وأنهم جاءوا بالتوحيد الخالص والايمان بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وقد تكرر كثير من القصص القرآنى لهذه الأغراض وغيرها .

<u>ولقد كان لها دورها الهام فى حياة الدعوة :</u>

(١) فهى تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين من شدة مايلاقونه من العذاب والاهانة فتزودهم بالصبر والثبات والتوكل على الله اقتداء بالرسل واتباعهم المؤمنين بهم . قال تعالى ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُل** ﴾[1] .. ﴿ **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَانُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فى هَذِهِ الحقّ وَمَوْعِظَة وذكرى للمؤمنين** ﴾[2] .

(٢) وفى نفس الوقت تحمل التهديد والوعيد بالهلاك والخزى للمشركين قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ فى الفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وأغْرَقْنَا الذِينَ كَذّبُوا بآيَاتِنَا فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنْذَرِين** ﴾[3] .

ولقد كان القصص فى القسم المكى من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله إذ لو تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا : تعلمه من أهل الكتاب . قال تعالى : ﴿ **تِلْكَ من أنباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ لِلمتَّقِين**[4] ﴾ .

وبهذه الخاصية تنتهى خصائص السور والآيات المدنية والفرق بينها وبين خصائص السور والآيات المكية[5] .. وبالله التوفيق .

---

(١) الاحقاف : ٣٥ .

(٢) هود : ١٢٠ .

(٣) يونس : ٧٣ .

(٤) هود : ٤٩ .

(٥) باختصار وتصرف من (المدخل لدراسة القرآن الكريم) للدكتور أبو **شهبة** (ص ٢٢٨ ـــ ٢٣٣) .

الفصل الثاني

بيان السور المتفق على مدنيتها والمختلف فيها

الفصل الثانى
فى بيان السور المتفق على مدنيتها والمختلف فيها

لابد لنا قبل الخوض فى بيان السور المتفق على مدنيتها أن نوضح المعنى المراد من كلمة (سورة) فى اللغة والاصطلاح .

السورة فى اللغة تطلق على ماذكره صاحب (لسان العرب) بقوله : السورة : المنزلة ... قال الجوهري : والسور جمع سورة ... وهى كل منزلة من البناء ، ومنه سورة القرآن لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى . والجمع سور بفتح الواو . قال ابن سيده : سميت السورة من القرآن سورة لأنها درجة إلى غيرها . ومن همزها جعلها بمعنى بقية من القرآن وقطعة .

وقيل : السورة من القرآن يجوز أن تكون من سؤرة المال ، وترك همزه لما كثر فى الكلام . وأما أبوعبيدة فانه زعم أنه مشتق من سورة البناء وأن السورة عرق من أعراق الحائط . والسور عند العرب حائط المدينة وهو أشرف الحيطان وكل منزلة رفيعة فهى سورة مأخوذة من سورة البناء وأنشد النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب ؟

معناه أعطاك رفعة وشرفا ومنزلة .

قال أبو الهيثم : وأما سورة القرآن فان الله جل ثناؤه جعلها سورا مثل غرفة وغرف . ورتبة ورتب ، فدل على أنه لم يجعلها من سور البناء لأنها لو كانت من سور البناء لقال : فأتوا بعشر سُورٍ والقراء مجتمعون على سور ، وكذلك اجتمعوا على قراءة سور فى قوله ﴿ **فضرب بينهم بسور** ﴾ ولم يقل أحد بسور فدل ذلك على تميز سورة من القرآن عن سورة من سور البناء . والسورة من سور القرآن عندنا قطعة من القرآن سبق واحدها جمعها كما أن الغرفة سابقة للغرف .

وأنزل الله عز وجل القرآن على نبيه شيئاً بعد شيء وجعله مفصلا وبين كل سورة بخاتمتها وبادئتها وميزها من التى تليها .

قال الأزهري : وكأن أبا الهيثم جعل السورة من سور القرآن من أسأرت سؤرا أى أفضلت فضلا إلا أنها لما كثرت فى الكلام وفى القرآن نزل فيها الهمز[1] أ.هـ .

وباختصار : (السورة فى اللغة مختلف فى أصلها (تهمز أو لا تهمز) فمن همزها جعلها من (أسأرت) أى أفضلت من السؤر وهو مابقى من المال كأنها قطعة من القرآن وحذفت الهمزة تخفيفا . ومن لم يهمزها قال إن السورة هى المنزلة والرتبة أو مأخوذة من سور المدينة لاحاطتها بآياتها إحاطة السور بالمدينة) .

وفى الاصطلاح قال الزركشى نقلا عن الجعبرى :

(حد السورة قرآن يشتمل على أى ذوات فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات)[2] .

ويمكن تعريفها أيضاً : بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع[3] .

وبعد أن اتضح لنا المراد بالسورة لغة واصطلاحا نشرع فى بيان مانحن بصدده وهو بيان السورة المدنية المتفق على مدنيتها والمختلف فيها . وكما هو معلوم أن النبي ﷺ لم يكن له فى ذلك قول ومرجعنا فى ذلك لحفظ الصحابة والتابعين . ولقد اختلف العلماء فى تعيين السور المدنية والمكية وذلك لاختلاف الروايات الواردة عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين . وسوف أسرد هذه الروايات وأناقشها ثم أبين المعتمد منها فيما يلي :

الرواية الأولى :

أخرج ابن سعد فى الطبقات قال : (أخبرنا محمد بن عمر ، حدثني

---

(١) لسان العرب (٤ : ٣٨٦) . للامام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصرى ، ط/ دار صادر بيروت .

(٢) البرهان للزركشى (١ : ٢٦٤) .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى (١ : ٣٤٣) .

قدامة بن موسى عن أبى سلمة الحضرمى قال : سمعت ابن عباس يقول كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، من المهاجرين والأنصار فاسألهم عن مغازى رسول الله ﷺ ، ومانزل من القرآن فى ذلك وكنت لا آتى أحدا منهم إلا سر باتيانى لقربى من رسول الله ﷺ فجعلت أسأل أبى بن كعب يوما ، وكان من الراسخين فى العلم عما نزل من القرآن بالمدينة فقال : نزل بها سبع وعشرون سورة . وسائرها بمكة)[١] .

الراوية الثانية :

(رواية قتادة)

ذكر القرطبى نقلا عن أبى بكر بن الأنبارى قال : حدثنا إسماعيل بن اسحاق القاضى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن (البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، ويأيها النبي لم تحرم إلى رأس العشر[٢] ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة ، وسائر القرآن نزل بمكة)[٣] .

قلت : وهذه سبع وعشرون سورة مدنية وردت فى هذه الرواية .

الرواية الثالثة :

رواية عكرمة والحسين بن أبى الحسن :

وقال البيهقى فى دلائل النبوة أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو محمد ابن زياد العدل حدثنا محمد بن إسحق حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقى حدثنا أحمد بن نصر بن مالك الخزاعى حدثنا على بن الحسين بن واقد عن أبيه

(١) الطبقات لابن سعد (٢ : ٣٧١) . أبى عبد الله محمد بن سعد البصرى الزهرى ، ط/ دار صادر بيروت .

(٢) يعنى العشر آيات الأولى من السورة .

(٣) القرطبي (١ : ٦١) .

حدثني يزيد النحوي عن عكرمة[1] والحسين بن أبي الحسن قالا أنزل الله من القرآن بمكة « اقرأ باسم ربك ، ونَ ، والمزمل ، والمدثر ، وتبت يدا أبي لهب ، وإذا الشمس كورت ، وسبح اسم ربك الأعلى ، والليل إذا يغشى ، والفجر والضحى ، وألم نشرح ، والعصر ، والعاديات ، والكوثر ، وألهاكم التكاثر ، وأرأيت ، وقل يا أيها الكافرون ، وأصحاب الفيل ، والفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، وقل هو الله أحد ، والنجم ، وعبس ، وإنا أنزلناه ، والشمس وضحاها ، والسماء ذات البروج ، والتين والزيتون ، ولايلاف قريش ، والقارعة ، ولا أقسم بيوم القيامة ، والهمزة ، والمرسلات وقٓ ، ولا أقسم بهذا البلد ، والسماء والطارق ، واقتربت الساعة ، وصٓ ، والجن ، ويسٓ ، والفرقان ، والملائكة ، وطه ، والواقعة ، وطسم ، وطس وطسم ، وبني إسرائيل والتاسعة (سورة يونس) وهود ، ويوسف ، وأصحاب الحجر ، والأنعام ، والصافات ، ولقمان ، وسبأ ، والزمر ، وحم المؤمن ، وحم الدخان ، وحم السجدة ، وحم عسق وحم الزخرف ، والجاثية والأحقاف ، والذاريات ، والغاشية ، وأصحاب الكهف ، والنحل ، ونوح وإبراهيم ، والأنبياء ، والمؤمنون ، والمٓ السجدة ، والطور ، وتبارك ، والحاقة ، وسأل ، وعم يتساءلون ، والنازعات ، وإذا السماء انشقت ، وإذا السماء انفطرت ، والروم ، والعنكبوت ».

وما نزل بالمدينة : « ويل للمطففين ، والبقرة ، وآل عمران ، والأنفال والأحزاب ، والمائدة ، والممتحنة ، والنساء ، وإذا زلزلت ، والحديد ، ومحمد ، والرعد ، والرحمن ، وهل أتى على الانسان ، والطلاق ، ولم يكن ، والحشر ، وإذا جاء نصر الله ، والنور ، والحج ، والمنافقون ، والمجادلة ، والحجرات ، ويا أيها النبي لم تحرم ، والصف ، والجمعة ، والتغابن والفتح وبراءة » .

قال السيوطي : وقد سقط من هذه الرواية الفاتحة والأعراف وكٓهيعٓصٓ فيما نزل بمكة[2].

---

(١) عكرمة البربري أبو عبد الله مولى ابن عباس . قال البخاري ليس من اصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة . قال يزيد النحوي عن عكرمة قال لي ابن عباس انطلق فأفت بالناس وأنا لك عون . تهذيب التهذيب (٧ : ٢٦٥) ط/دار صادر .

(٢) الاتقان (١ : ١٠) .

الرواية الرابعة :

وقال ابن الضريس[1] فى فضائل القرآن حدثنا محمد بن عبد الله بن أبى جعفر الرازى أنبأنا عمرو بن هارون حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن ابن عباس قال كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ويزيد الله فيها ما شاء وكان أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ، ثم نٓ ، ثم يأيها المزمل ، وساق السور المكية كما ذكرنا من قبل مع اختلاف فى بعض السور .

ثم قال : فهذا ما أنزل الله بمكة ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم القتال ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم الانسان ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله ، ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم التحريم ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الصف ، ثم الفتح ، ثم المائدة ، ثم براءة[2].

الرواية الخامسة :

وقال أبو عبيد فى فضائل القرآن حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية ابن صالح عن على بن أبى طلحة[3] . قال نزلت بالمدينة سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والحج والنور والأحزاب والذين كفروا والفتح والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والحواريين يزيد الصف والتغابن ويأيها النبى إذا طلقتم النساء ، يأيها النبى لم تحرم ، والفجر والليل ، وإنا أنزلناه فى ليلة القدر ، ولم يكن ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . وسائر ذلك بمكة[4] .

وبالاضافة إلى الروايات السابقة نجد أقوالا أخرى لكبار علماء علوم القرآن إليك بيانها.

سادساً :

ما قاله أبو الحسن بن الحصار فى كتابه (الناسخ والمنسوخ) المدنى باتفاق

---

(١) هو محمد بن أيوب بن يحيى الضريسى ، تذكرة الحفاظ للإمام أبى عبد الله شمس الدين الذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (٢ : ٥٩٢) ط/دار احياء التراث العربى .

(٢) الاتقان (ص ١١) جـ ١ .

(٣) على بن أبى طلحة واسمه سالم بن المخارق الهاشمى يكنى أبا الحسن قال النسائى ليس به بأس ، مات سنة ١٤٣ هـ . باختصار من تهذيب التهذيب (٧ : ٣٣٩) .

(٤) الاتقان (١ : ١١) .

عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكى باتفاق ثم نظم في ذلك ابياتا فقال في مطلعها :

يا سائلى عن كتـــاب الله مجتهدا وعـــن ترتب ما يتلى من الســـــور

وذكر القصيدة بطولها وتحتوى على اثنين وعشرين بيتا .

والعشرون سورة المتفق على مدنيتها التى ذكرها فى منظومته هي :

(١) البقرة	(٢) آل عمران	(٣) النساء
(٤) المائدة	(٥) الأنفال	(٦) التوبة
(٧) النور	(٨) الأحزاب	(٩) محمد ﷺ
(١٠) الفتح	(١١) الحجرات	(١٢) الحديد
(١٣) المجادلة	(١٤) الحشر	(١٥) الممتحنة
(١٦) المنافقون	(١٧) الجمعة	(١٨) الطلاق
(١٩) التحريم	(٢٠) النصر	

والسور المختلف فيها اثنتا عشرة سورة :

(١) الفاتحة	(٢) الرعد	(٣) الرحمن
(٤) الصف	(٥) التغابن	(٦) التطفيف
(٧) القدر	(٨) لم يكن	(٩) الزلزلة
(١٠) قل هو الله احد	(١١) الفلق	(١٢) الناس

وما عدا ذلك فهو مكى[١] .

سابعا :

ما ذكره أبو القاسم هبة الله بن سلامه[٢] (٤١٠ هـ) فى كتابه (الناسخ

---

(١) الاتقان (١ : ١١) .

(٢) هبة الله بن سلامة بن نصر بن على أبو القاسم ، مفسر ، ضرير من أهل بغداد من كتبه الناسخ والمنسوخ في القرآن ، والناسخ والمنسوخ فى الحديث . باختصار من الأعلام للزركلى (٨ : ٧٢) .

والمنسوخ فى مقدمة حديثه عن كل سورة وما فيها من النسخ . الحكم على السورة هل هى مدنية أو مكية وما فيها من الخلاف . وقد احصيت السور المدنية المتفق عليها وهى كما يلى :

(١) البقرة	(٢) آل عمران	(٣) النساء
(٤) المائدة	(٥) الأنفال	(٦) التوبة
(٧) النور	(٨) الأحزاب	(٩) الفتح
(١٠) الحجرات	(١١) المجادلة	(١٢) الحشر
(١٣) الممتحنة	(١٤) الصف	(١٥) الجمعة
(١٦) المنافقون	(١٧) التغابن	(١٨) الطلاق
(١٩) التحريم	(٢٠) القدر	(٢١) الانفكاك[١] .

أما السور المختلف فيها فهى سبعة عشرة سورة :

(١) الفاتحة	(٢) الرعد	(٣) النحل
(٤) الحج	(٥) العنكبوت	(٦) محمد ﷺ
(٧) الرحمن	(٨) الحديد	(٩) الانسان
(١٠) عبس	(١١) المطففين	(١٢) الليل
(١٣) الزلزلة	(١٤) النصر	(١٥) الاخلاص
(١٦) الفلق	(١٧) الناس	

وما عدا ذلك من السور نزل بمكة[٢] .

ثامنا :

ما ذكره الزركشى فى البرهان من أن السور المدنية حسب النزول هى على الترتيب التالى :

---

(١) الانفكاك : البينة .

(٢) الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ، ط/الثانية البابى الحلبي ١٣٨٧ هـ .

فأول ما نزل فيها (سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم محمد ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم هل أتى ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله ، ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم يأيها النبى لم تحرم ، ثم الصف ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الفتح ، ثم التوبة ، ثم المائدة[٢] أ.هـ .

ومن خلال دراستى لهذه الروايات والأقوال استنتج ما يلى :

(١) ان الرواية الأولى ذكر ابن عباس أنه سأل أبى بن كعب عن عدد السور المدنية فأجابه بأنها سبع وعشرون سورة فهى مجملة ذكرت العدد فقط ولم توضح السور المدنية بالتفصيل .

(٢) الرواية الثانية ذكر قتادة السور المدنية فأحصيتها فوجدتها سبعا وعشرين سورة . وقد ذكرت الرواية بعض السور المختلف فيها وهى الرعد والنحل والحج والرحمن . وسوف أوضح الخلاف وأنتهى إلى بيان ما بدا لى فيه فى نهاية هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

(٣) الرواية الثالثة (رواية عكرمة والحسين بن أبى الحسن) . وقد ذكرت هذه الرواية السور المكية أولا وعددها ثنتان وثمانون سورة . وقد أشار السيوطى الى أنه سقطت من هذه الرواية ثلاث سور مكية وهى الفاتحة والأعراف وكهيعص (مريم) فيكون تعداد المكى خمسا وثمانين سورة . وقد أشارت أيضا إلى السور المدنية وأحصيتها فوجدتها تسعا وعشرين سورة فيكون مجموع السور مائة وأربع عشرة سورة وهى مجموع سور القرآن .

ويلاحظ فى هذه الرواية ورود بعض السور المختلف فيها وهى المطففين ، والرعد ، والرحمن ، والانسان ، والبينة ، والحج .

---

(١) البرهان للزركشى (١ : ١٩٤) .

ملاحظة : وقد ذكر أنها تسع وعشرون سورة والصواب أنها ثمان وعشرون سورة .

(٤) الرواية الرابعة (عن ابن عباس) .

ذكرت أولا السور المكية وتحاشيا للتطويل اختصرت الرواية واقتصرت على ما نحن بصدد دراسته وهو السور المدنية وقد ذكرت الرواية ثمان وعشرين سورة . ويلاحظ ورود بعض السور المختلف فيها وهى الرعد والرحمن والانسان والبينة والحج .

(٥) الرواية الخامسة (رواية على بن أبى طلحة) .

ذكرت أولا السور المدنية وعددها خمس وعشرون سورة وجاء فيها بعض السور المختلف فيها وهى الفجر ، والليل ، والقدر ، ولم يكن (البينة) .

(٦) القول السادس (قول أبى الحسن الحصار) .

وقد قسم المدنى إلى قسمين قسم مدنى باتفاق وهو كما ورد فى قوله عشرون سورة وقسم مختلف فيه وهو اثنتا عشرة سورة . وهذا القول يعتبر فى مقدمة الأقوال السابقة لشموله ودقته .

قال الشيخ الزرقانى (نقل السيوطى فى الاتقان أقوالا كثيرة فى تعيين السور المكية والمدنية ، ومن أوفقها ما ذكره أبو الحسن الحصار فى كتابه الناسخ والمنسوخ)[١] .

(٧) القول السابع (قول أبى القاسم هبة الله بن سلامة) .

وهذا القول جمعته من كتابه(الناسخ والمنسوخ) ففي مقدمة حديثه عن كل سورة يذكر أن السورة مدنية أو مكية وهو أيضا يمتاز بشموله ودقته وقد ذكر إحدى وعشرين سورة متفقا على مدنيتها . وذكر سبع عشرة سورة مختلفا فيها وسوف أوضح الخلاف الوارد فيها إن شاء الله .

(٨) القول الثامن : وقد ذكر الزركشى السور المدنية حسب النزول وعددها ثمان وعشرون سورة وورد فى قوله بعض السور المختلف فيها وهى الرعد والرحمن والإنسان والبينة والحج .

---

(١) مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (١ : ١٩١) .

ومن خلال النظر فى الروايات السابقة والأقوال الـواردة تبين لى أن هنـاك سوراً مختلف فيها وهى كالتالى :

(١) الفاتحة	(٢) الرعد	(٣) النحل
(٤) الحج	(٥) العنكبوت	(٦) محمد ﷺ
(٧) الرحمن	(٨) الصف	(٩) التغابن
(١٠) الإنسان	(١١) عبس	(١٢) المطففين
(١٣) الفجر	(١٤) الليل	(١٥) القدر
(١٦) البينة	(١٧) الزلزلة	(١٨) النصر
(١٩) الاخلاص	(٢٠) الفلق	(٢١) الناس

والسورة المتفق على مدنيتها هى :

(١) البقرة	(٢) آل عمران	(٣) النساء
(٤) المائدة	(٥) الأنفال	(٦) التوبة
(٧) النور	(٨) الأحزاب	(٩) الفتح
(١٠) الحجرات	(١١) الحديد	(١٢) المجادلة
(١٣) الحشر	(١٤) الممتحنة	(١٥) الصف
(١٦) الجمعة	(١٧) المنافقون	(١٨) الطلاق
(١٩) التحريم .		

وما عدا ذلك مكى ..

* * *

(١) سورة الفاتحة

اختلف العلماء فى سورة الفاتحة أهى مكية أم مدنية ؟ .

فقال ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحى ـــ واسمه رفيع وغيرهم : هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار الزهرى وغيرهم : هى مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة . ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى فى تفسيره .

والأول أصح لقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ** ﴾[١] .

والحجر مكية بأجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ أنه كان فى الاسلام قط صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » . يدل على هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « **لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب** »[٢] . وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء ، والله أعلم[٣] ا.هـ .

والذى يؤيد تفسير قوله تعالى : ﴿ **سبعاً من المثانى** ﴾ أنها الفاتحة الحديث الصحيح الذى رواه الترمذى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى** »[٤] .

(حكم الترمذى) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

قال السيوطى : « سورة الفاتحة الأكثرون على أنها مكية بل ورد أنها

---

(١) سورة الحجر : ٨٧

(٢) أخرجه البخارى وهذا الحديث يدل على حكم الصلاة بدون الفاتحة ولم يتعرض للكلام على زمان نزولها ، ويبقى الدليل الأول بدون اعتراض عليه .

(٣) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى (١ : ١١٥) .

(٤) الجامع الصحيح (سنن الترمذى) لابى عيسى محمد بن عيسى بن سورة .(٥ : ٢٩٧) .

أول مانزل[1] واستدل لذلك بقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً من المَثَانِى ﴾ وقد فسرها ﷺ بالفاتحة كما فى الصحيح . وسورة الحجر مكية باتفاق ولقد امتن الله على رسوله فيها فدل على تقدم نزول الفاتحة عليها اذ يبعد أن يمنن عليه بما لم ينزل بعد ، وبأنه لا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة ولم يحفظ أنه كان فى الاسلام صلاة بغير الفاتحة .. ا.هـ[2] .

قال ابن حجر : (يستنبط من تفسير السبع المثانى بالفاتحة أن الفاتحة مكية وهو قول الجمهور خلافا لمجاهد . ووجه الدلالة أنه سبحانه امتن على رسوله بها . وسورة الحجر مكية إتفاقا فيدل على تقديم نزول الفاتحة عليها) .

قال الحسين بن الفضل : (هذه هفوة من مجاهد لأن العلماء على خلاف قوله وأغرب بعض المتأخرين فنسب القول بذلك لأبى هريرة ، والزهرى،وعطاء بن يسار)[3] .

وقد سردت الروايات والأقوال السابقة والتى تشير إلى السور المدنية ولم يرد لها ذكر بينها ولم يقل أحد من الرواة بأنها مدنية فإننى أرجح أن هذه السورة الكريمة مكية .

قال ابن الحصار فى كتابه الناسخ والمنسوخ[4] :

تَعارضَ النقلُ فى أم الكتا ... بِ وقد تؤول فى الحجر تنبيهاً لمعتبر
أم القرآن فى أمِ القرَى نزلتْ ... ماكَانَ للخمسِ قبلَ الحمدِ من أثر

---

(١) الصحيح ان اول مانزل عليه ﷺ من القرآن هو صدر سورة اقرأ كما رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . أنظر صحيح البخارى بهامشه فتح البارى (١ : ٢٥) ط/ البابى وحلبى . ويذكر السيوطى فى النوع الثانى (١ : ٢٥) مستدلا بحديث خديجة « إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء » وفيه (فلما خلا ناداه يا محمد قل : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ...** ﴾ السورة ، ويقول السيوطى فى التعليق عليه : « قال البيهقى هذا إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد مانزلت عليه اقرأ والمدثر » .

(٢) الاتقان للسيوطى (١ : ١٢) .

(٣) فتح البارى (٩ : ٢٢٥) .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١١) .

والخلاصة : أن سورة الفاتحة مكية نظراً لأن الصلاة فرضت حينما عرج بالنبي ﷺ ليلة الاسراء وحيث أن الصلاة لا تصح إلا بفاتحة الكتاب اذن فالسورة مكية .

* * *

(٢) سـورة الرعـد

اختلف العلماء فى سورة الرعد فاذا ما استعرضنا الروايات السابقة نجد أن الرواية الثانية عن قتادة ، والرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن ، والرابعة عن ابن عباس ، والقول الثامن عن الزركشى اتفاق على أنها مدنية ، والرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة لم يذكرها ضمن المدنى .

والقول السادس لأبى الحسن الحصار ، والسابع لأبى القاسم هبة الله بن سلامة اعتبراها من المختلف فيه .

وإذا دققنا النظر فى آيات هذه السورة الكريمة نستخلص ما يلى :

(١) افتتاح السورة بحروف المعجم (المر) وهذه سمة من سمات السور المكية .

(٢) موضوعها الأساسى هو العقيدة الحقة مع تفصيل دلائل الوحدانية وضرب الأمثال للناس تثبيتاً لهذه العقيدة . انظر الآيات ، ٢ ،٣ ، ٤ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٥ .

(٣) الوحى والرسالة كقوله تعالى ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ انظر الآيات ١ ، ٧ ، ٣٠ ، ٤٣ .

(٤) البعث وصفة النعيم والعذاب. انظر الآيات ٥، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥ فهذه هى (المواضيع) التى تعالجها السورة وهى (مواضيع) السور المكية نضيف إلى ذلك كله خلوها من التشريعات والأحكام التى تميزت بها السور المدنية.

قال ابن الحصار :

فالرعد مختلف فيها متى نزلت.. وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر[1]. أى مكية.

---

(١) الاتقان للسيوطى (١ : ١٢) .

وقال قتادة وجماعة: إنها نزلت بالمدينة وهى والله أعلم إلى تنزيل المدينة أشبه لأن فيها قصة أربد بن ربيعة ، وعامر بن الطفيل . وكان شأنهما بالمدينة وقدومهما على النبي ﷺ وما لحق أربد من الصاعقة وكيف ابتلى الله عامر بن الطفيل بعده فى علة فمات وهو يقول : غدة كغدة البعيرة[1] . أ.هـ .

قال القرطبى : « سورة الرعد مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومدنية فى قول الكلبى ومقاتل » .

وقال ابن عباس وقتادة : « مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة وهما قوله عز وجل ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾[2] .. الآية . إلى قوله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب ﴾[3] .

قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير « ومن عنده علم الكتاب » قال هو عبد الله بن سلام .

قال القرطبى : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السور مكية وابن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ .

وقال القشيرى : وقال ابن جبير السورة مكية وابن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ، فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام ، فمن عنده علم الكتاب جبريل . وهو قول ابن عباس ، وقال الحسن ومجاهد والضحاك هو الله تعالى وكانوا يقرأون « ومن عنده علم الكتاب » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسلمان ، لأنهم يرون أن السورة مكية وهؤلاء أسلموا بالمدينة[4].

---

(١) الناسخ والمنسوخ لأبى القاسم هبة الله بن سلامة (ص ٥٥) .

(٢) تفسير القرطبى (٥ : ٢٧٨) .

(٣) الرعد آية (٣١ — ٣٢) .

(٤) تفسير القرطبى (٥ : ٣٣٦) .

قلت : ومن (عنده علم الكتاب) يصح أن يفسر على أهل الكتاب الذين يعرفون الحق وهم يكتمونه وقد كان ذلك من قبل إسلام عبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتاب .

وللجمع بين الرأيين : أرجح أن السورة مكية المطلع والموضوع والسياق وبها آيات مدنية قال تعالى : ﴿ **الله يَعْلَمُ مَاتَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَاتَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار . عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَال** ﴾[1] إلى قوله تعالى : ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَال** ﴾[2] .

قال ابن كثير : « وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا فقال له رسول الله ﷺ « يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيله » يعنى الأنصار ثم أنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه . فخرجا من عنده فانطلقا فى أحياء العرب يجمعان الناس لحربه ﷺ فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته . وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول يا آل عامر غدة كغدة البكر[3] . وموت فى بيت سلولية . حتى ماتا لعنهما الله وأنزل الله فى مثل ذلك ﴿ **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ** ﴾ أى يشكون فى عظمته وأنه لا إله إلا هو (وهو شديد المحال) قال ابن جرير : شديد مما حلته فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره[4] .

---

(١) الرعد : ٨ .

(٢) الرعد : ١٣ .

(٣) الفتى من الابل . أ.هـ لسان العرب (٤ : ٧٩) .

(٤) تفسير ابن كثير باختصار (٢ : ٥٠٦) ط/دار الفكر .

(٣) ســورة النحــل

أمـا سورة النحـل . فاختلـف فيها أيضاً . فالروايـة الثانيـة عن قتـــادة هى الوحيدة التى نصت على أنها مدنية .

وقال القرطبى : هى مكية كلها فى قول الحسن وعكرمـة وجابـر . وتسمـى سورة النِّعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده .

وقيل هى مكية غير قوله تعـالى ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُـمْ فَعَاقِبُـوا بِمِثْـلِ مَا عُوقِبْتُـمْ بِهِ** ﴾[١] الآية .

نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بحمزة وقـتلى أحـد . وغير قولـه ﴿ وَاصْبِـرْ وَمَـا صَبْـرُكَ إِلَّا بِاللهِ[٢]﴾ . وغير قولـه : ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيـــنَ هَاجَــرُوا**[٣]﴾ الآية .

وأما قولـه ﴿ **وَالَّذِيـنَ هَاجَـرُوا فِى اللهِ مِن بَعْـدِ مَاظُلِمُـوا**[٤] ﴾ فمكـى فى شأن هجرة الحبشة .

وقال ابن عباس : هى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينـة بعـد قتـل حمزة وهى قولـه ﴿ **وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْـدِ اللهِ ثَمَنـاً قَلِيـلًا** .. ﴾ إلى قولـه ﴿ **بِأَحْسَنِ مَاكَانُوا يَعْمَلُون**﴾ أ.هـ[٦] .

وقـال السيـد قطب : (هى كسائـر السور المكيـة تعـالج موضوعـــات العقيدة الكبرى : الألوهية والوحى ، والبعث)[٧] .

---

(١) النحل : ١٢٦ .

(٢) النحل : ١٢٧ .

(٣) النحل : ١١٠ .

(٤) النحل : ٤١ .

(٥) النحل : ٩٤ ـــ ٩٦ .

(٦) تفسير القرطبى (١٠ ـــ ٦٥) .

(٧) فى ظلال القرآن (٥ : ٢٢٤) .

وقال العلامة بدر الدين الحلبي المعروف بالتادفى فى أرجوزته المتضمنة معرفة المكى والمدنى :

والخلـــف فى الرعـــد ياموافـــق   والحجـــر والنحـــل مع الاسراء

الكـــل بمكـة بـلا مـراء[1]

فنص على أنها مكية بلا نزاع .

(واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنيـة يكـون تبعـا لما يغـلب فيها أو تبعا لفاتحتها)[2] .

فالموضوعـات التـى تعالجهـا السورة موضوعـات مكيـة ثم إن فاتحتها مكيـة أيضاً لأنها تعـالج موضوع البعـث ثم خلـق السمـوات والأرض ومـــا فيها من عوالم أرضية وسماوية .

* * *

(١) مخطوطة من مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي فى كليـة الشريعـة بجامعـة أم القـرى مصورة من المكتبة الظاهرية رقم المخطوطة ٧٦٥٩ (ص) .

(٢) مناهل العرفان للزرقاني (١ : ١٩٢) .

(٤) سورة الحج

فهي أيضاً من السور المختلف فيها . فالرواية الثانية (عن قتادة) والثالثة (عن عكرمة والحسين بن الحسن) ، والرابعة (عن ابن عباس) والخامسة عن (على بن أبي طلحة) والقول الثامن للزركشي جميعهم ذكروا أنها مدينة . أما أبو القاسم هبة الله بن سلامة فذكر أن هذه السورة تشتمل على المكي والمدني معاً . فقال (أما المكى فمن رأس خمس وعشرين آية إلى آخرها . وأما المدنى فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين) .. الخ[١] ما قال .

قال القرطبي : هي مكية سوى ثلاث آيات قوله تعالى : ﴿ **هذان خصمان** ﴾ إلى تمام ثلاث آيات . قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضاً أنهن أربع آيات إلى قوله « عذاب الحريق » وقال الضحاك وابن عباس ايضاً : هي مدنية. وقال قتادة : إلا أربع آيات ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ - إلى - عذاب يوم عقيم** ﴾ فهن مكيات . وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات وقال الجمهور : السورة مختلطة . منها مكى ومنها مدنى . وهذا هو الأصح[٢] .

وقال السيد قطب : (هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها وعلى الأخص آيات الاذن بالقتال . قال تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ** ﴾[٣] .

(١) الناسخ والمنسوخ (ص ٦٥) . لأبى القاسم هبة الله بن سلامة .

(٢) تفسير القرطبى (١ : ١٢) .

(٣) الحج : ٣٩ — ٤١ .

وآيات العقاب بالمثل قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَاعُوقِبَ بِهِ[1] ﴾ الآية . فالمسلمون لم يؤذن لهم فى القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعد قيام الدولة الاسلامية .

والذى يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية . وجو السور المكية فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث وإنكار الشرك ومشاهد القيامة[2]..

وأضيف إلى هذا أن هذه السورة الكريمة عنيت بأمور العقيدة الثلاثة وهى الوحدانية والبعث والرسالة . وعلى ذلك فهى مكية إلا الآيات الثلاث .

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِم ﴾ .. الآية نقول:اخرج البخارى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا فى يوم بدر[3] .

ومعلوم أن غزوة بدر كانت بعد الهجرة فهى إذن آية مدنية .

وقوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ ﴾ الآية ٣٩ .

أخرج أحمد والترمذى وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عباس قال خرج النبي ﷺ من مكة فقال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فأنزل الله ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير[4] ﴾ .

فالآية نزلت بعد خروجه من مكة فهى مدنية .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَاعُوقِبَ بِهِ ﴾ الآية .

---

(١) الحج : ٦٠ .

(٢) فى ظلال القرآن (٥ : ٥٧٥) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٩) ط/البابى وحلبى .

(٤) لباب النقول فى اسباب النزول للعلامة الامام جلال الدين السيوطى رحمه الله (ص ١٥٠) .

أخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل أنها نزلت فى سرية بعثها النبى ﷺ فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال فى الشهر الحرام . فناشدهم الصحابة وذكروهم بالله أن لا يتعرضوا لقتالهم فانهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام فأبى المشركون ذلك وقاتلوهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ونُصِروا عليهم . فنزلت هذه الآية(١) .

فالسورة مكية بها آيات مدنية ونحن نحكم على الغالب والمعظم وافتتحت بقوله تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيم**(٢) ﴾ . والخطاب بيأيها الناس من سمات السور المكية غالبا ، والحكم على السورة يكون تبعاً لما يغلب فيها أو تبعا لفاتحتها ، والله أعلم .. .

* * *

---

(١) المرجع السابق (ص ١٥١) ، وانظر تفسير ابن كثير (٣ : ٢٣٢) .

(٢) الحج : ١ .

(٥) سورة العنكبوت

من خلال دراستي للأقوال الثمانية استنتج أن جميعها لم تورد سورة العنكبوت ضمن السور المدنية باستثناء القول السابع لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ذكر أن هذه السورة من المختلف فيها .

فقال : (نزلت من أولها إلى رأس العشر بمكة ومن رأس العشر إلى آخرها بالمدينة)[*] .

وقد أورد القرطبى الخلاف بالتفصيل .

قال القرطبى : مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

ومدنية كلها فى أحد قولى ابن عباس وقتادة .

وفى القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها فإنها نزلت بالمدينة فى شأن من كان من المسلمين بمكة .

وقال على بن أبى طالب : نزلت بين مكة والمدينة[١] .أ.هـ .

واحتج من قال إنها مكية إلا عشر آيات من أولها بما ورد فى سبب النزول من قوله تعالى فى أول السورة ﴿ **الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون** ﴾ الآيات . أخرج ابن أبى حاتم عن الشعبى فى قوله ﴿ **الٓمٓ.أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا** ﴾الآية .

قال : أنزلت فى أناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى (١٣ : ٣٢٣) .

(٢) النحل : ١١٠ .

(*) ابن سلامة خالف بقوله الجمهور .

كذا وكذا فقالوا : نخرج فان أتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَافُتِنُوا﴾[1] الآية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[2] . أ.هـ[3] .

قال القرطبى : « قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال فهى باقية فى أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية فى ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التى تشبه نازلة المسلمين مع قريش هى ما ذكرناه من أمر العدو فى كل ثغر .

قال القرطبى بعد أن أورد رأى ابن عطية السابق : ما أحسن ما قاله ولقد صدق فيما قال رضى الله عنه[4] .

ويرد على من قال إن العشر الآيات الأولى مدنية ما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الانْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[5] .

أخرج مسلم بسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك وأناآمرك بهذا فقال مكثت ثلاثا حتى غشى عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت

---

(١) النحل : ١١٠ .

(٢) العنكبوت : ٦ .

(٣) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطى (ص ١٦٦) ، ط/دار احياء العلوم لبنان ط/٣ ، ١٤٠٠ هـ .

(٤) تفسير القرطبى (ص ٣٢٤) ، تفسير الطبرى (٢٠ : ١٢٩) .

(٥) العنكبوت : ٨ .

تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل فى القرآن هذه الآية ﴿ **ووصينا الانسان بوالديه حسنا** ﴾[1] .

وأخرجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : فسياق القصة يدل على أنها وقعت بمكة قبل الهجرة فالآية مكية بلا نزاع .

قال السيد قطب : سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية وذلك لذكر (الجهاد) فيها وذكر المنافقين .

ولكنا نقول ان السورة كلها مكية . وقد ورد فى سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت فى إسلام سعد بن أبى وقاص كما سيجىء . وإسلام سعد كان فى مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التى قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة أى جهاد النفس لتصبر ولا تفتن وهذا واضح فى السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس[2] .

قلت يعنى بذلك قوله تعالى ﴿ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾ قال قتادة : نزلت فى القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة[3] .

وخلاصة ماسبق أن من قال ان السورة مكية باستثناء الآيات الاحدى عشرة الأولى فجوابه مايلى :

١ ــ افتتاح السورة الكريمة بحروف المعجم وهذه سمة من سمات السور المكية .

٢ ــ قوله تعالى ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا** ﴾ فى شأن من كان من المسلمين بمكة .

٣ ــ قوله ﴿ **وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ** ﴾ هذا جهاد عام فى دين الله

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (١٥ : ١٨٥) ط/دار الفكر .

(٢) تفسير (فى ظلال القرآن) للسيد قطب (٦ : ٣٨٤) ط/السابعة ١٣٩١ هـ .

(٣) تفسير القرطبى (١٣ : ٢٣٠) .

وطلب مرضاته . وليس الجهاد المقصود هو مقاتلة أعداء الدين .

٤ ـــ قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَــا الانْسَانَ بِوَالِدَيْــهِ حُسْنَــا ﴾ نزلت فى شأن الصحابى الجليل سعد بن أبى وقاص . وكان إسلامه فى مكة .

٥ ـــ قوله تعالى ﴿ وَلَيَعْلَمَـنَّ اللَّـهُ الذِيـنَ آمَنُـوا وَلَيَعْلَمَـنَّ المُنَافِـقِين ﴾ فهـي أيضاً فى شأن من أسلـم من أهـل مكـة . فكـأن الله امتـحنهم بفتنـــة العذاب والنكال الذى لا قوه من المشركين فمن كان إيمانه قويا وعـن يقين فاز برضى ربه ومن كان اسلامه ريـاء وزيفـا لم يصبر على العـذاب والفتنـة فسرعان ماعاد الى الشرك والكفر بالله .

وبهذه الأدلة السابقة فاننى أرجح أن تكون العشرة الآيات الأولى مكية .

وقد ذكرت فى مطلع الحديث عن هذه السورة قول أبى القاسم هبـة الله بن سـلامة (نزلت من أولها الى رأس العشر بمكـة ، ومـن رأس الـعشر إلى آخرها بالمدينة) .

فهذا القول:الشطـر الأول منـه يؤيـد مارجحتـه من أن الـعشر الآيات الأولى مكية . أما الشطر الثانى منه فلا أوافقه عليه . وذلك أننا إذا تتبعنا الآيات نجد أنها تحدثت عن عدد من الأنبياء وذكـر قصصهـم مع أقوامهـم فذكـر سبحانـه وتعـالى قصة نوح عليه السلام .

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِـمْ أَلْـفَ سَنَـةٍ إِلاّ خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَـانُ وَهُـمْ ظَالِمُـونَ . فَأَنْجَيْنَـاهُ وَأَصْحَـابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[١] .

ثم يذكر الله لنا قصة نبيه ابراهيم عليه السلام.

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُـمْ خَيْـرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾[٢] الآيات .

وكذلك قصة لوط مع قومه .

---

(١) العنكبوت : ١٤ ـــ ١٥ .

(٢) العنكبوت : ١٦ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[١] .

(٤) وقال تعالى ﴿ وإلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا اليومَ الآخِرَ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٢] .

ثم قص الله علينا قصة عادٍ وثمود .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَا وَقَدْ تَبَيّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهم وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِين ﴾[٣] .

وأخيراً قصة موسى مع قارون وفرعون وهامان واستكبارهم فى الأرض .

(٦) قال تعالى : ﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَونَ وَهَامَانَ وَلَقْد جَاءَهُم مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاستَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَاكَانُوا سَابِقِين ﴾[٤] .

وقد سبق أن أشرت فى الخصائص الموضوعية للسور المكية أن من تلك الخصائص ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ولقد كان لهذه القصص دورها الهام فى حياة الدعوة (العهد المكى)[٥] .

وأشرت إلى أن وجود القصص فى القسم المكى من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله إذ لو تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا : تعلمه من أهل الكتاب .. أى الموجودين فى المدينة .

ثم أعقب القصص بالأمثال وضرب المثل للذين يتخذون من دون الله أولياء . والأمثال كثيرا ماتكون فى العهد المكى ، والدعوة إلى توحيد الله الخالص .

قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتّخذُوا مِن دُون اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنْكَبُوتِ اتَّخذَتْ بَيْتاً وإنّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون ﴾ الى قوله

---

(١) العنكبوت : ٢٨.
(٢) العنكبوت : ٣٦ .
(٣) العنكبون : ٣٨ .
(٤) العنكبوت : ٣٩ .
(٥) ارجع الى البحث (ص ٩ ٤) .

تعالى ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العَالِمُون ﴾[1] .

ومن الدلائل الموجودة فى السورة والتى ترجح مكية السورة قوله تعالى ﴿ اتْلُ مَاأُوحِيَ إِلَيْكَ مِن الكِتَابِ وأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مائصْنَعُون ﴾[2] .

وتتوالى الآيات فى هذه السورة الكريمة باستعجال المشركين (أهل مكة) للعذاب قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَيَشْعُرُون ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فإيَّاىَ فاعْبُدُون ﴾ . هذه الآية نزلت فى تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة — فى قول مقاتل والكلبى — فأخبرهم الله بسعة أرضه .. فان كنتم فى ضيق من إظهار الايمان بها (أى بمكة) فهاجروا الى المدينة فإنها واسعة . لاظهار التوحيد بها[4] .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِن دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ قال السيوطى فى الاتقان : (سورة العنكبوت استثنى من أولها إلى ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ لما أخرجه ابن جرير فى سبب نزولها قلت:ويضم اليها ﴿ وكأين من دابة ﴾ الآية لما أخرجه ابن أبى حاتم فى سبب نزولها[5]). اهـ .

وقد سبق أن بينت بالتفصيل مارجحته من أن الآيات العشرة التى قيل إنها مدنية بأن الأرجح أنها مكية . والتى تنتهى بقوله تعالى ﴿ وليعلمن المنافقين ﴾ أما

---

(١) العنكبوت : ٤٠ — ٤٣

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) العنكبوت : ٥٣ .

(٤) تفسير الرازى (١٣ : ٣٥٧) م ٧ .

(٥) الاتقان (١ : ١٦) .

قول السيوطى ويضم إليها قوله تعالى ﴿ **وكأين من دابة** ﴾ لما أخرجه ابن أبى حاتم واستشهد بحديث ابن عمر فهذا الحديث سنده ضعيف . قال السيوطى فى كتابه (لباب النقول) عند قوله تعالى ﴿ **وكأين من دابة** ﴾ أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم البيهقى وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال:خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة[1] . فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لى : يا ابن عمر ما لك لا تأكل ؟ قلت : لا أشتهيه قال : لكنى أشتهيه ، وهذا صبح ليلة رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك ياابن عمر إذا لقيت قوما يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين قال فوالله مابرحنا ولا برمنا حتى نزلت﴿ **وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ولا باتباعَ الشهوات ، الا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما ولا أخبىء رزقا للغد »[2] .

قال الرازى بعد أن سرد الحديث : (وهذا ضعيف يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم اتفق البخارى عليه ومسلم . وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين . وقد روى ابن عباس أن النبى ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون « اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة » قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم** ﴾ أى ليس معها رزقها مدخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم الله فى دار الهجرة . وهذا أشبه من القول الأول)[3] .

فالآية أرجح أنها مكية وكذلك يفهم من سياق رواية ابن عباس .

---

(١) أى أحد بساتينها .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١٦٧) ط/ ذار احياء العلوم بيروت .

(٣) تفسير القرطبى (١٣ : ٣٦٠) .

واختتمت السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِين** ﴾[1]

فالآية نصت على الجهاد وحثت عليه فالذى يتبادر إلى الذهن أن الآية مدنية لأن الجهاد فرض فى المدينة .

والصواب ماأشار إليه الرازى فقال:(**والذين جاهدوا فينا**) أى فى طلب مرضاتنا وقال السدى وغيره : ان هذه الآية نزلت قبل فرض القتال . قال ابن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى . وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته .

وبهذا نأتى إلى ختام حديثنا عن هذه السورة التى اتضح لى من خلال دراستى لها أنها مكية ، والله أعلم .

* * *

العنكبوت آية (٦٩) .

(٦) سورة محمد ﷺ

هذه السورة الكريمة تسمى أيضا سورة القتال وبعضهم يسميها بما فتحت به أى سورة (الذين كفروا) كما ورد ذلك فى الرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة وهى من السور المختلف فيها فجميع الروايات التى وردت فى بيان السور المدنية أشارت الى أن هذه السورة مدنية بل ذكر ابن الحصار فى الرواية السادسة أنها من المتفق على مدنيتها . غير أن أبا القاسم هبة الله بن سلامة ذكرها من السور المختلف فيها وشبهها بالسور المدنية . فقال فى كتابه الناسخ والمنسوخ :

(وهى من السور المختلف فى تنزيلها ، فقالت طائفة نزلت بمكة وقال آخرون نزلت بالمدينة ، وهى إلى تنزيل المدينة أشبه ، والله أعلم)[١] ا هـ .

وقد فصل الخلاف فى ذلك القرطبى فقال :

(مدنية فى قول ابن عباس ، ذكره النحاس) .

وقال الماوردي : فى قول الجميع[٢] الا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر الى البيت وهو يبكى حزنا عليه فنزل ﴿ وَكَأَيِّنْ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾.

وقال الثعلبى : إنها مكية ، وحكاه ابن هبة[٣] الله عن الضحاك وسعيد بن جبير[٤] . ا هـ .

فقوله : (إلا آية نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه فنزل ﴿ وَكَأَيِّنْ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ الآية . يشير إلى أن السورة مدنية إلا الآية السابقة فانها نزلت بمكة

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ص ٨٥

(٢) أى مدنية .

(٣) نلاحظ أن نقل الثعلبى عن ابن هبة الله مخالف لما ذكرته قبل من كتابه الناسخ والمنسوخ . انظر ص ٥٨ : ٥٩ .

(٤) تفسير القرطبى (١٦ : ٢٢٣) م ٨ .

وذكر سبب النزول . وهو على قوله هذا مبنى على أن المكى مانزل بمكة ولو بعد الهجرة) .

والمشهور : هو أن المكى مانزل قبل الهجرة والمدنى مانزل بعدها ولو فى مكة فعليه تكون الآية مدنية .

والذى ذكره القرطبى أن الآية نزلت عليه بعد حجة الوداع ليس بصواب ، والصواب هو مانقله الخازن والخطيب بل والقرطبى نفسه عند تفسير هذه الآية أنها نزلت لما خرج من مكة إلى الغار مهاجرا لأنه هو الذى يناسبه التوعد بقوله ﴿ وكأين من قرية ﴾ الآية . أما على أنها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة فلا يظهر هذا الوعيد لأنه فى حجة الوداع فارقها مختارا بعد ماصارت دار إسلام وأسلم جميع أهلها[1] فالآية مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة .

فالسورة مدنية وموضوعها القتال . فالقتال لم يشرع إلا بها .

وكذلك تحدثت عن المنافقين ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾[2] . وهذه أيضاً سمة من سمات السور المدنية كما هو معلوم .

وبهذا يتبين لنا أن السورة مدنية .

---

(١) انظر الفتوحات الالهية للشيخ سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ (٤ : ١٤٠) ط/ عيسى البابى الحلبى بمصر .

(٢) سورة محمد : ٢١ .

(٧) سورة الرحمن

هذه السورة الكريمة سورة الرحمن من المختلف فيها أهى مكية أم مدنية ؟ .

فإذا تتبعنا الروايات نجد أن الرواية الثانية عن قتادة والرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبى الحسن ، والرواية الرابعة عن ابن عباس ، والقول الثامن عن الزركشى ذكروا أنها مدنية .

والقول السادس عن ابن الحسن بن الحصار والقول السابع عن أبى القاسم هبة الله بن سلامة ذكر أنها من المختلف فيه .

والرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة لم يذكرها ضمن المدنى وقال ماعدا ذلك فهو مكى .

قال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس:الا آية منها هى قوله تعالى : ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾[1] .

وقال ابن مسعود ومقاتل : هى مدنية كلها . والقول الأول أصح لما روى عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبى ﷺ ابن مسعود ، وذلك أن الصحابة قالوا ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط . فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال ابن مسعود : أنا فقالوا : إنا نخشى عليك وانما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ — الرَّحْمَنُ.عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴾ ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش فى أنديتها . فتأملوا وقالوا : مايقول ابن أم عبد ؟ قالوا : هو يقول الذى يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه .

وصح أن النبى ﷺ قام يصلى الصبح بنخلة فقرأ سورة (الرحمن) ومر النفر من الجن فآمنوا به .

---

(١) الآية ٢٩ .

وفى الترمذى عن جابر قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال : « **لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان ﴾** قالوا ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد . قال : هذا حديث غريب[1] .

وفى هذا دليل على أنها مكية والله أعلم[2] .

قال السيوطى : الجمهور على انها مكية وهو الصواب .

ويدل له مارواه الترمذى والحاكم عن جابر قال لما قرأ رسول الله ﷺ على أصحابه سورة (الرحمن) .. وذكر الحديث السابق .

وقال رحمه الله : وأصرح منه فى الدلالة ماأخرجه أحمد فى مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبى بكر قالت سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون **﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾**[3] وفى هذا دليل على تقدم نزولها على سورة الحجر[4] . ا.هـ .

ومن القرائن التى ترجح مكية السورة نجد أنها تميزت بما تميزت به السور المكية أسلوبا وموضوعا . فمن حيث الأسلوب نلاحظ تميزها بفواصلها القصيرة ووجازة العبارة كما هو الحال فى السور المكية . قال تعالى : **﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ القُرْآنَ . خَلَقَ الانسَانَ . عَلَّمَهُ البَيَانَ .. ﴾** الآية .

---

(١) رواه الترمذى (٥ : ٣٩٩) ط/ المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه الا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . قال ابن حنبل كأن زهير بن محمد الذى وقع بالشام ليس هو الذى يروى عنه بالعراق كأنه رجل آخر قلبوا اسمه ، يعنى لما يروون عنه من المناكير .

وأخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولما يخرجاه (٢ : ٤٧٣) .

(٢) تفسير القرطبى (١٧ : ١٥١) م ٩ .

(٣) مسند الامام أحمد (٣ : ٣٤٩) .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١٣) .

أما موضوعها هو الاعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة بالبراهين القطعية فهو خالق الكون بما فيه من الآيات الكونية المشاهدة كالشمس والقمر والنجم والشجر .. الخ وبينت حال الجاحدين لألوهية الخالق والمؤمنين به وما أعده لكل منهم .

وبهذا يتبين لنا أن سورة الرحمن مكية ، والله أعلم .

(٨) سورة الصف

من خلال تتبعى للروايات الواردة عن المدنى نجد أن جميع الروايات ذكرت أن سورة الصف مدنية باستثناء الرواية السادسة لابن الحصار فقد ذكر هذه السورة من المختلف فيها .

فقيل إنها مكية وهو قول عكرمة والحسن وقتادة وجزم به الزمخشرى والمختار أنها مدنية وهو قول الجمهور[١] .

وقال القرطبى : مدنية فى قول الجميع . فيما ذكر الماوردى .

وقيل : إنها مكية ، ذكره النحاس عن ابن عباس[٢] .

قال السيوطى : المختار أنها مدنية . ونسبه ابن الغرس إلى الجمهور ورجحه ويدل له ماأخرجه الحاكم[٣] عن عبد الله بن سلام قال قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله سبحانه ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَافِي السَّمٰوٰتِ ومَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ يأَيُّها الذين آمنُوا لِمَ تَقولُونَ مَالَا تَفْعَلُون** ﴾ حتى ختمها قال عبد الله فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها[٤] .

فهذه الرواية عن عبد الله بن سلام وهو من الصحابة الذين كان إسلامهم فى المدينة بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة .

---

(١) انظر الفتوحات الالهية (٤ : ٣٣٥) ط/ البابى الحلبى بمصر .

(٢) تفسير القرطبى (١٨ : ٧٧) م ٩ .

(٣) اخرجه الحاكم (٢ : ٤٨٧) واللفظ للترمذى (٥ : ٤١٢) .

(٤) الاتقان للسيوطى .

أضف إلى ذلك أن موضوع هذه السورة هو الحث على الجهـــــــاد فى سبيل الله والثبات عليه والجهاد فرض على الأمة فى المدينة .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ** ﴾[1] .

وقد تضمنت السورة الحديث عن أهل الكتاب وبيان سلوكهم مع أنبيائهم وما لاقوه من الايذاء وكشف نواياهم وما تكنه نفوسهم من العداء والمقت لدين الله ، قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾[2] .

وأخيراً نلاحظ تعدد الخطاب بقوله تعالى ﴿**يأيها الذين آمنوا**﴾ ثلاث مرات وهو احدى خصائص السور المدنية[3] .

قال تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[5] .

وقوله تعالى : ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ**﴾[6] الآية .

فجميع تلك القرائن التى تقدمت بالاضافة إلى حديث عبد الله بن سلام تدفعنى إلى أن أرجح أن سورة الصف مدنية .

---

(١) آية (٤) .
(٢) آية (٨) .
(٣) انظر إلى موضوع خصائص السور والآيات المدنية من ناحية الأسلوب (ص ٤٤ ــ ٤٥) من بحثنا هذا
(٤) اية (٢) .
(٥) آية (١٠) .
(٦) آية (١٤) .

(٩) سورة التغابن

سورة التغابن من السور المختلف فى نزولها هل هى مكية أو مدنية ؟ .

فمن خلال النظر فى الروايات الثمانية أجد أن جميعها اتفقت على أنها مدنية باستثناء القول السادس لابن الحصار فقد ذكرها من السور المختلف فيها.. ولم تشر أية رواية من تلك الروايات بأن السورة مكية .

قال القرطبى : مدنية فى قول الأكثرين . وقال الضحاك : مكية وقال الكلبى : هى مكية ومدنية وهى ثمانى عشرة آية . وعن ابن عباس أن (سورة التغابن) نزلت بمكة ، إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك الأشجعى ، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ إلى آخر السورة[١] . أ.هـ .

وقال السيوطى : (سورة التغابن) قيل مدنية وقيل مكية إلا آخرها[٢] .

قال السيد قطب (هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية فى موضوعها وفى سياقها وفى ظلالها وإيحاءاتها وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدنى يتبين إلا فى فقراتها الأخيرة . فالفقرات الأولى إلى ابتداء النداء « يأيها الذين آمنوا » .. تستهدف بناء أسس العقيدة .. وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث وتوكيده توكيداً شديداً يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

قال تعالى : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أن لَّن يُبْعَثُوا . قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِير ﴾[٣] .

---

(١) تفسير القرطبى (١٨ : ١٣١) م٩ .

(٢) الاتقان للسيوطى (١ : ١٤) .

(٣) آية (٧) .

فأما الفقرات الأخيرة فهى تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم فى السور المدنية ، تحثهم على الانفاق وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد وهى الدعوة التى تكررت نظائرها فى العهد المدنى بسبب مقتضيات الحياة الاسلامية الناشئة فيها .. الخ .

ولقد وردت روايات تفيد أن السورة مكية . ووردت روايات أخرى تفيد أنها مدنية مع ترجيحها وكدت أميل[1] إلى اعتبارها مكية تأثراً بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها ولكنى أبقيت اعتبارها مدنية ـــ مع الرأى الراجح فيها ـــ لأنه ليس مايمنع أن تكون الفقرات الأولى خطابا للكفار بعد الهجرة سواء أكانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة. كما أنه ليس مايمنع أن يستهدف القرآن المدنى فى بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة وإيضاح التصور الاسلامى ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكى)[2] .

قلت : وهذا الذى أشار إليه السيد قطب رحمه الله عين الصواب . فالسورة مدنية لأن معظم الروايات أشارت إلى أنها مدنية وليس هناك رواية جزمت بمكية السورة ثم إن ما ورد فيها من الآيات الشبيهة بنزول الآيات المكية لا يعنى هذا أن السورة مكية ، إذ لا يمنع أن تعالج السور المدنية الواقع الأليم الذى يعيشه المجتمع المكى . فالقرآن كتاب هداية نزل به جبريل على قلب نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه لاصلاح الأمة وهدايتها لا يختص بمكان ولا بزمان . فإذا ما نزل بمكة أو بالمدينة فهو يخاطب الناس جميعاً . وإذا كان نزوله قبل الهجرة أو بعدها فهو أيضاً يخاطب الأمة جميعها . فإذا ما نزل بالمدينة آيات تدعو إلى تثبيت العقيدة الصحيحة الخالية من الشوائب وإلى الايمان باليوم الآخر وإلى تقرير حقيقة البعث وأن المؤمنين مردهم إلى النعيم والجاحدين مآلهم إلى الجحيم والعياذ بالله فليس معنى هذا أن نحكم على أن الآيات مكية .

ومن المعلوم أن الآيات والسور المدنية اهتمت بالتشريع والجهاد والرد على أهل الكتاب إلى غير ذلك مما عنى به القسم المدنى ، ومع ذلك لم تغفل

---

(١) هكذا قال .

(٢) انظر تفسير ظلال القرآن (٨ : ١١٩) .

التوجيه والارشاد للكفار جميعا وغيرهم وكما سبق أن بينت فالقرآن لم يخاطب أهل مكة بشخصهم وإنما يخاطب الأمة بأكملها ولم يخاطب أهل المدينة بشخصهم وإنما يخاطب العالم أجمع . وعلى ذلك فالآيات التى تكلمت عن البعث فى أثناء هذه السورة هى كذلك مدنية لأنه لم يقم دليل صحيح على مكيتها . ثم إن البعث كما يذكر فى السور المكية يذكر كذلك فى السور المدنية .

أما الجزء الأخير من هذه السورة وهو قوله تعالى : ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم** ﴾ الآيات .

فلا خلاف فى أن نزوله كان فى المدينة .

اخرج الترمذى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس سأله رجل عن هذه الآية ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم** ﴾ قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ فأبى ازواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين وهموا أن يعاقبوهم[1] فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُم** ﴾ الآية . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح[2] .

وأخرجه الحاكم أيضا وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه[3] .

وبهذا يتبين لنا أن سورة التغابن من السور المدنية ، والله أعلم ..

* * *

---

(١) أى يعذبوا ازواجهم وأولادهم الذين منعوهم من اتيان الرسول ﷺ . أ.هـ سنن الترمذى .

(٢) سنن الترمذى (٥ : ٤١٩) .

(٣) المستدرك للحاكم (٢ : ٤٩٠) .

(١٠) سورة الانسان

سورة الإنسان من السور المختلف فى نزولها لاختلاف الروايات الواردة فيها . فالرواية الثانية عن قتادة والخامسة عن على بن أبى طلحة والسادسة عن ابن الحصار لم يذكروها ضمن السور المدنية .

والقول السابع لابن سلامة ذكرها من السور المختلف فيها وقال : نزلت بالمدينة ، وقيل بمكة ، وهى إلى نزول المدينة أشبه[١] .

والراوية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبى الحسن والرابعة عن ابن عباس والقول الثامن للزركشى ذكروا أنها مدنية .

قال القرطبى : مكية فى قول ابن عباس ومقاتل والكلبى . وقال الجمهور : مدنية وقيل : فيها مكى ، من قوله :﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا** ﴾[٢] إلى آخر السورة . وما تقدمه مدنى[٣] .أ.هـ .

وقال السيد قطب : فى بعض الروايات إن هذه السورة مدنية ولكنها مكية ، ومكيتها ظاهرة جداً فى موضوعها وفى سياقها ، وفى سماتها كلها ، لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيتها ، بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكى ..

فصور النعيم الحسية المفصلة الطويلة متمثلة فى قوله : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ..الآيات** ﴾[٤] إلى قوله : ﴿ **إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾ .

---

(١) الناسخ والمنسوخ لأبى القاسم هبة الله بن سلامة (ص ٩٧) .

(٢) آية ٢٣ .

(٣) تفسير القرطبى (١٩ : ١١٨) م ١٠ .

(٤) من آية ٥ إلى آية ٢٢ .

وصور العذاب الغليظ متمثلة فى قولـه : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وسَعِيرًا﴾[1] .

وتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر لحكـم ربـه وعـدم طاعتـه آثماً أو كفـورا مع إهمال المشركين وتثبيت الـرسول ﷺ على الحق .. واحتمال أن هذه السورة مدنيـة ــ في نظرنا ــ هو احتمال ضعيف جداً يمكن عدم اعتباره[2] .

قال السيوطى[3] : سورة الانسان قيل مدنية وقيـل مكيـة إلا آيـة واحـدة : ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[4] .

وأقول أيضا ان هذه الآية مكية ، فقد أخرج عبد الرزاق وابـن جرير وابـن المنذر عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا يصلى لأطأن عنقـه ، فأنزل الله ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[5] . فالأثـر السابـق يدل على أن الآية مكية .

وعلى ذلك فإننى أرجح أن السورة كلها مكية ، والله أعلم ..

* * *

---

(١) آية ٤ .

(٢) باختصار وتصرف من ظلال القرآن للسيد قطب (٨ : ٣٩١) .

(٣) الاتقان للسيوطى (١ : ١٤) .

(٤) آية ٢٤ .

(٥) لباب النقول فى اسباب النزول لجلال الدين السيوطى (ص ٢٢٦) .

(١١) سورة عبس

وهى من السور المختلف فى نزولها فقيل مكية وقيل مدنية .

أما الروايات السابقة فليس هناك أية رواية ذكرت أنها مدنية فالرواية الثانية عن قتادة والخامسة عن على بن أبى طلحة والقول السادس لابن الحصار والقول الثامن للزركشى لم يذكروها ضمن المدنى بل إن الرواية الثالثة عن عكرمة والحسين ابن أبي الحسن ، والرابعة عن ابن عباس ذكروها ضمن السور المكية .

أما القول السابع للقاسم هبة الله بن سلامة فقال : وهى إحدى السور السبعة عشر المختلف فى تنزيلها[١] .

قال القرطبى : مكية فى قول الجميع وهى احدى وأربعون آية[٢] .

ويؤيد مكية السورة ما ورد فى سبب نزولها ، اخرج الترمذى والحاكم بسندهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : أنزل (عبس وتولى) فى ابن أم مكتوم الأعمى . أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول يا رسول الله أرشدنى وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما نقول بأسا؟ فيقال لا ، ففى هذا أنزل .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب[٣] .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه فقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة[٤] .

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابى القاسم هبة الله (ص ٩٨) .

(٢) تفسير القرطبى (١٩ : ٢١١) م ١٠ .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ٤٣٢) .

(٤) المستدرك للحاكم (٢ : ٥١٤) .

فالحديث يفهم منه أن رسول الله ﷺ كان يعرض الإسلام على أحد صناديد قريش الذين يرجى فى إسلامهم دخول كثير من أتباعهم إلى الإسلام . فالقصة لا خلاف أنها كانت بمكة قبل الهجرة .

فالروايات كلها مجمعة على أنها بمكة ولم تذكر أية رواية أنها نزلت بالمدينة . وكذلك الحديث الوارد فى سبب نزولها كل هذا يؤكد أن السورة مكية .

نضيف إلى ذلك أن موضوعات السورة هى من علامات المكى حيث ذكر فيها خلق الانسان وحياته ثم موته وذكر فيها النشور والجزاء الأخروى وأيضا ذكر فيها من نعم الله على الانسان نعمة الاطعام والتفكه وكذلك الأنعام إلى غير ذلك .

قال تعالى : ﴿ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ﴾ الآيات .

والله أعلم ..

* * *

(١٢) سورة المطففين

وهى من السور المختلف فى نزولها . فالرواية الثانية عن قتادة والرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة والقول الثامن للزركشى لم يذكروها ضمن السور المدنية . والرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبى الحسن ذكراها ضمن السور المكية . والقول السادس لابن الحصار والسابع لأبى القاسم هبة الله عداها من المختلف فيه .

قال القرطبى : مكية فى قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل ومدنية فى قول الحسن وعكرمة وهى ست وثلاثون آية .

قال مقاتل : وهى أول سورة نزلت بالمدينة[١] ، وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا ثمانى آيات من قوله ﴿ **إن الذين أجرموا** ﴾ إلى آخرها مكى .

وقال الكلبى وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة[٢] .

وقال السيوطى : قال ابن الغرس : قيل انها مكية لذكر الأساطير فيها وقيل مدنية لأن أهل المدينة كانوا أشد الناس فساداً فى الكيل وقيل نزلت بمكة إلا قصة التطفيف وقال قوم نزلت بين مكة والمدينة . انتهى .

قلت : أخرج النسائى[٣] وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا فأنزل الله (ويل للمطففين) فأحسنوا الكيل[٤] .

---

(١) هكذا ذكر القرطبى عن مقاتل .

(٢) تفسير القرطبى (١٩ : ٢٥٠) م ١٠ .

(٣) الحاكم فى المستدرك (٢ : ٣٣) وقال صحيح الاسناد وأقره الذهبى راجع الصحيح المسند من أسباب النزول بحث مقبل الوادعى (ص ١٧٢) ط/مكتبة السعادة . وأخرجه ابن ماجه (٢ : ٧٤٨) .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١٤) .

قال القرطبى : بعد أن أورد الحديث الذى رواه النسائى والذى ذكره السيوطى قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا وعن ابن عباس أيضا قال : أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل بالمدينة وكان هذا فيهم . كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح ، فاذا باعوا بخسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة انتهوا فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا .

وقال قوم : نزلت فى رجل يعرف بأبى جهينة واسمه عمرو ، كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطى بالآخر ، قاله أبو هريرة رضى الله عنه[1] .

فالسورة مطلعها مدنى إلى قوله ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ وما بعده هذه الآية مكى بدليل ذكر لفظ (كلا) .

وأيضا فإن استهزاء الكفرة بالمؤمنين وضحكهم منهم، هذا كان فى مكة وقد ذكر فى آخر السورة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ** ﴾ الآيات .. إلخ السورة .

* * *

---

(١) تفسير القرطبى (٢٠ : ٢٥٢) .

(١٣) سورة الفجر

جميع الروايات والأقوال أشارت إلى أن سورة الفجر مكية باستثناء الرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة ذكرها من السور المدنية[١] .

قال السيوطى : (فيها قولان حكاهما ابن الغرس ، قال ابن الغرس قال ابن حبان والجمهور انها مكية)[٢] .

قال الشوكانى : (وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال نزلت (والفجر) بمكة وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله)[٣] .

وإذا استعرضنا أسلوب السورة وجدنا الأسلوب المكى واضحاً جلياً فنلاحظ افتتاحها بالقسم ــ قال تعالى ﴿ وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إذَا يَسْر . هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْر ﴾ .

ثم ذكر تعالى أحوال الأمم السابقة وكيف كانت نهاية تكذيبهم لأنبيائهم ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ.إِرَمَ ذَاتِ العِمَاد . الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البِلَادِ.وثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ.فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ ثم تلاحظ تكرر أداة الردع والزجر (كلا) والتى لا ترد إلا فى السور المكية[٤] .

---

(١) انظر (ص ٥٧) من هذا البحث .

(٢) الاتقان (١ : ١٤) .

(٣) فتح القدير للشوكانى (٥ : ٤٣٢) .

(٤) أنظر ص ٣٧ من بحثنا هذا .

قال تعالى : ﴿ **كَلَّا ، بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** ﴾ الآيات (١٧ — ١٨) .

﴿ **كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا** ﴾ الآيات (٢١ — ٢٢) .

وفيها تهديد شديد بيوم الجزاء والحساب وذكر الجنة والنار ، كل هذا فيه دلالة على أن الآيات مكية . وأخيراً خلوها من التشريع الذى حفل به القرآن المدنى . كل هذه الاعتبارات جعلتنى أرجح مكية السورة . والله أعلم .

* * *

(١٤) ســورة الليل

من خلال النظر فى الروايات الواردة فى تحديد السور المدنية والمكية نلاحـظ أن جميع الروايات لم توردها ضمن السور المدنية ماعدا الرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة ذكر أنها مدنية ، والقول السابع لابن سلامة ذكرها من المختلف فيها .

ونلاحظ أن الرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبى الحسن والرواية الرابعـة عن ابن عباس ذكراها فى عداد السور المكية .

قال الشوكانى : (وهى مكية عند الجمهـور ، وقيـل مدنيـة . وأخـرج ابـن الضريس والنحاس والبيهقى عن ابـن عبـاس قال نزلت سورة (والليـل اذا يغشى) بمكة[١] .

قال الرازى : (قال القفال رحمه الله نزلت هذه السورة فى أبى بكـر وانفاقـه على المسلمين وفى أمية بن خلف وبخلـه وكفـره بالله ، ألا وإن كانت كذلك لكـن معانيها عامة للناس)[٢] .

قلت : وأميـة بن خلـف عاش فى مكـة قبـل الهجـرة فهـى مكيـة . وقـال السيوطـى : (الأشهـر أنها مكيـة وقيـــل مدنيـــة لما ورد فى سبب نزولها من قصة النخلة . كما أخرجناه فى أسباب النزول . وقيل فيها مكى ومدنى)[٣] .

أما قوله (وقيـل مدنيـة لما ورد فى سبب نزولها من قصة النخلـة ...) فقـد أخرج ابن أبى حاتم وغيره من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عبـاس أن رجلا كانت له نخلة فرعها فى دار رجل فقير ذى عيال فكان الرجل إذا جاء الدار صعد إلى النخلة ليأخذ منها الثمرة فربما تقع ثمرة فيأخذها صبيـان الفـقير . فينـزل من نخلته فيأخذ الثمرة من أيديهم وان وجدها فى فم أحدهم أدخـل أصبعـه حتـى

---

(١) فتح القدير (٥ : ٤٥١) .

(٢) تفسير الرازى (٣١ : ١٩٧) .

(٣) الاتقان للسيوطى (١ : ١٤) .

يخرج الثمرة من فيه . فشكا ذلك الرجل الى النبى ﷺ فقال : اذهب ، ولقى النبى ﷺ صاحب النخلة ، فقال له : اعطنى نخلتك التى فرعها فى دار فلان ولك بها نخلة فى الجنة ، فقال الرجل : لقد أعطيت وإن لى نخلا كثير ومافيه أعجب إلى ثمرة منها ، ثم ذهب الرجل ولقى رجلا كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة ، فأتى رسول الله ﷺ فقال اتعطينى يارسول الله ما أعطيت الرجل إن أنا أخذتها؟ فقال نعم. فذهب الرجل فلقى صاحب النخلة ولكليهما نخل ، فقال له صاحب النخلة أشعرت أن محمدا ﷺ أعطانى بنخلتى المائة فى دار فلان نخلة فى الجنة فقلت له : لقد أعطيت ولكن يعجبنى ثمرها . ولى نخل كثير ما فيه نخلة أعجب الى ثمرة منها ، فقال له الآخر : أتريد بيعها ، فقال لا الا أن أعطى بها ما أريد ولا أظن أن أعطى ، فقال فكم مناك منها ؟ فقال أربعون نخلة . فقال لقد جئت بأمر عظيم ، ثم سكت عنه فقال له : أنا اعطيك اربعين نخلة فاشهد لى ان كنت صادقا ، فدعا قومه فأشهد له ، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يارسول الله إن النخلة قد صارت لى وهى لك فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار فقال له النخلة لك ولعيالك فأنزل ﴿ **والليل إذا يغشى** ﴾ إلى آخر السورة[1] .

قال ابن كثير : حديث غريب جداً[2] .

وأخرج الواحدى بسنده عن ابن إسحاق ، عن عبد الله ، أن أبا بكر اشترى بلالا من أمية بن خلف ببرده وعشر أواق ، فأعتقه ، فأنزل الله تبارك وتعالى — والليل اذا يغشى — إلى قوله ﴿ **إن سعيكم لشتى** ﴾ سعى أبى بكر وأمية ابن خلف[3] .

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (٢٢٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ : ٥٢٠) .

(٣) أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص ٤٨٦) .

وأخرج الحاكم بسنده عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال أبو قحافة لأبي بكر أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك إذ فعلت مافعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك فقال : يا أبت إني إنما أريد ما أريد (لما نزلت هذه الآيات فيه) :

﴿ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى) إلى قوله ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى.إلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الاعْلَى.وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[1] .

ونضيف إلى ذلك أن السورة بدئت بالقسم مثل سابقتها ولاحقتها والكل مكى .

---

(١) المستدرك للحاكم (٢ : ٥٢٥) .

(١٥) ســورة القــدر

اختلفت الروايات والأقوال فى سورة القدر فالرواية الثالثة عن عكرمة والرابعة عن ابن عباس ذكراها ضمن السور المكيـة ، والروايـة الثانيـة عن قتـادة لم تذكرهـا ضمن السور المدنية فهى أيضا كأنها تشير إلى أنها مكية . وكـذلك القـول الثامـن للزركشى لم يوردها ضمن المدنى . أمـا الروايـة الخامسة لعلى بن أبى طلحـة والقـول السابع لابن سلامة فذكـرا أنها مدنيـة والقـول السادس لابـن الحصار ذكـر أنها من المختلف فيه .

قال السيوطـى : (فيها قولان والأكثر أنها مكيـة ويستـدل لكـونها مدنيـة بما أخرجه الترمذى والحاكم عن الحسن بن على أن النبى ﷺ أُرى بنـى أميـة على منبره فساءه ذلك فنـزلت ﴿ **إِنَّا أَعْـطَيْنَاكَ الْكَـوْثَر** ﴾ و ﴿ **إِنَّـا أَنْزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ الحديث قال المزى وهو حديث منكر)[١] .

والحديث رواه الترمـذى بسنـده عن يوسف بن سعـد قال : قام رجـل إلى الحسن بن على بعدما بايـع معاوية ، فقـال : سودت وجـوه المؤمـنين ، أو يامسود وجوه المؤمنين ، فقال : لا تؤنبنى رحمك الله ، فان النبى ﷺ أُرى بنـى أميـة على منبره فساءه ذلك فنـزلت (إنـا أعطينـاك الكوثـر) يامحمـد يعنـى نهرا فى الجنـة ، ونزلت ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَمَاأَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، لَيْلَـةُ الْقَـدْرِ خَيْـرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْر** ﴾ يملكها بنو أمية يامحمد . قال القاسم : فعددناها فاذا هى ألـف شهر لا يزيـد يوم ولا ينـقص . قال أبـو عيسى (هذا حديث غريب لا نعرفـه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل)[٢] .

قال ابن كثير : وقول القاسم بن الفضل الحدانى إنه حسب مدة بنـى أميـة

---

(١) الاتقان (١ : ١٤) .

(٢) سنن الترمذى (٥ : ٤٤٥) .

فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص ليس بصحيح فإن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن على الإمرة سنة أربعين . واجتمعت البيعة لمعاوية وسمى ذلك عام الجماعة ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير فى الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين لكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية بل عن بعض البلاد إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة وذلك أزيد من ألف شهر . فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير . وعلى هذا يقارب ما قاله الصحة فى الحساب والله أعلم .

ومما يدل على ضعف الحديث أنه سيق لذم دولة بنى أمية ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم فإن ليلة القدر شريفة جداً والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بنى أمية التى هى مذمومة بمقتضى هذا الحديث .

وهل هذا إلا كما قال القائل :

ألم تر أن السيف ينقص قدره　　　إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وقال آخر :

إذا أنت فضلت امرءاً ذا براعة　　　على ناقص كان المديح من النقص

ثم الذى يفهم من الحديث أن الألف شهر المذكورة فى الآية هى أيام بنى أمية والسورة مكية فكيف يحال على ألف شهر هى دولة بنى أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها . والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكارته والله أعلم[1] .أ.هـ .

أخرج ابن أبى حاتم والواحدى عن مجاهد أن رسول الله ﷺ ذكر رجلا من

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ٥٢٩) .

بنى اسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألـف شهـر فعـجب المسلمـون من ذلك ، فأنزل الله ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ** ﴾ وهى التى لبس ذلك الرجل السلاح فيها فى سبيل الله .

وأخرج ابن جرير عن مجاهـد قال كان فى بنـى إسرائيـل رجـل يقـوم الليـل حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسى . فعمل ذلك ألـف شهـر ، فأنـزل الله (ليلة القدر خير من ألف شهر) عملها ذلك الرجل[1] .

وقـال القرطبي (وهـى مدنيـة فى قول أكثر المفسريـن ، ذكـره الثعلبـى . وحكـى الماوردى مكيـة . قلت : وهـى مدنيـة في قول الضحـاك وأحـد قولى ابـن عباس)[2] .

وقال الجمل في الفتوحات الإلهية (والقول بالمدينة هو الأصح وقول الأكثريـن وقيل إنها أول ما نزل بالمدينة)[3] .

وقد يرد هنا سؤال وهو أن الصيام فرض فى المدينة فى السنة الثانيـة الهجريـة وسورة القدر تتحدث عن ليلة القدر ، وليلـة القـدر كما جاء فى الحديث الصحيـح في العشر الأواخر من رمضان (الحديث) فهل يعنى ذلك أن السورة مدنية ؟ .

والجواب أن ذلك لا يعطـى مدنـيتها إلا من دليـل خارجـى آخـر ذلك لأن شهـر رمضان كان يعـرف بهذه التسميـة قبـل نزول القـرآن على رسول الله ﷺ . وقـد أخـرج الإمـام أحمد والبيهقـى فى شعب الايمان بسنـد حسن عن واثلـة بن الاسقع أن رسول الله ﷺ قال : « أنزلت صحـف إبـراهيم عليـه السلام فى أول ليلـة خلت من رمضان والإنجيـل لثـلاث عشرة خلت من رمضان وأنـزل القـرآن لأربـع وعشرين خلت من رمضان »[4] .

والذى أرجحه أن السورة مكية .

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (ص ٢٣٣) .

(٢) تفسير القرطبى (٢٠ : ١٢٩) م ١٠ .

(٣) انظر الفتوحات الالهية (٤ : ٥٦٥) .

(٤) مسند الامام أحمد (٤ : ١٠٧) .

(١٦) سـورة البينـة

جميع الروايات ذكرت أنها مدنية ما عدا الرواية الثانيـة عن قتـادة لم يذكرهـا ضمن المدنى والقول السادس ذكرها من السور المختلـف فيها قال القرطبـى : وهـى مكية فى قول يحيى بن سلام . ومدنية فى قــول ابن عبــاس والجمهور[١] .

وقال السيد قطب (هذه السورة معـدودة في المصحـف وفى أكثر الروايـات أنها مدنية . وقد وردت بعض الروايات بمكيتها . ومـع رجحـان مدنـيتها من ناحيـة الرواية ومن ناحية أسلوب التعبير التقريـرى ، فإن كونها مكيـة لا يمكـن استبعـاده وذكر الزكاة فيها وذكر أهـل الكتـاب لا يعتبر قرينـة مانعـة . فقـد ورد ذكـر أهـل الكتـاب فى بعض السور المقطـوع بمكـيتها . وكان فى مكـة بعض أهـل الكتـاب آمنوا ، وبعضهم لم يؤمنوا . كما أن نصارى نجران وفـدوا على الـرسول ﷺ فى مكـة وآمنوا كما هو معروف .

وورد ذكر الزكاة كذلك فى سور مكية[٢] .

قلت : وفيما قاله السيد قطب نظر .

وقال السيوطى : « قال ابن الغرس الأشهر أنها مكية قلت ويـدل لمقابلـه ما أخرجـه أحمد عن أبى حبـة البـدوى قال لما نزلت لم يكـن الذيـن كفـروا من أهـل الكتاب إلى آخرها قال لى جبريـل يا رسول الله إن ربك يأمـرك أن تقرئهـا أبيـا ... الحديث . وقد جزم ابن كثير بأنها مدنية واستدل به[٣] .

---

(١) تفسير القرطبى (٢٠ : ١٣٨) .

(٢) فى ظلال القرآن (٨ : ٦٣٠) وقوله إن نصارى نجران وفدوا على الرسول ﷺ ... الخ) .
هذا مخالف لما فى الصحيحين لأنهم وفدوا عليه بالمدينة وصالحوه .

(٣) الاتقان (١ : ١٤) .

والذى يؤكد مدنية السورة ما أخرجه الامام أحمد بسنده عن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى قال لما نزلت (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) إلى آخرها قال جبريل : يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبَيا . فقال النبى ﷺ لأبى « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة فقال أُبَىّ وقد ذكرت ثم يارسول الله ؟ فقال (نعم) قال فبكى أبّى »[1] .

وقد أخرجه البخارى[2] ومسلم[3] فى كتاب المناقب .

وأخرجه الترمذى أيضا عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك (لم يكن الذين كفروا) قال : وسمانى ؟ قال : نعم ، فبكى . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح[4] .

* * *

---

(١) رواه البخارى فى فضائل أبى بن كعب (٨ : ١٢٧) .

(٢) رواه البخارى في فضائل ابى بن كعب (٨ : ١٢٧) .

(٣) رواه مسلم (١٦ : ٢٠) فى فضائل أبى بن كعب .

(٤) سنن الترمذى (٥ : ٦٦٥) .

(١٧) سورة الزلزلة

هذه السورة العظيمة من السور المختلف فى نزولها فجميع الروايات تشير إلى أنها مدنية ما عدا القول السادس والسابع ذكرا أنها من المختلف فيها . قال القرطبى : (مدنية فى قول ابن عباس وقتادة . ومكية فى قول ابن مسعود وعطاء وجابر) .

وقال السيوطى : فيها قولان ويستدل لكونها مدنية بما أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى قال : لما نزلت فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره .. الآية . قلت يا رسول الله إنى لراء عملى .. الحديث .. وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة ولم يبلغ إلا بعد أحد[١] .

والدارس لآيات هذه السورة الكريمة يجد أن موضوعها هو يوم الحساب وما يسبقه من أهوال وما يلاقيه الانسان من الجزاء الذى هو بحسب ما قدم من العمل ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ﴾[٢] فالموضوع والسياق شبيه بموضوع وسياق السور المكية .

قال السيد قطب : هذه السورة مدنية فى المصحف وفى بعض الروايات ، ومكية فى بعض الروايات الأخرى ونحن نرجح الروايات التى تقول بأنها مكية وأسلوبها التعبيرى وموضوعها يؤيدان هذا[٣] .

وأقول ما دام هناك حديث يرجح مدنيتها فهو المقدم على الرأى ثم إنه لا يمنع أن يذكر البعث والجزاء فى المدنى .

---

(١) الاتقان للسيوطى (١ : ١٤) .

(٢) الزلزلة (٧ — ٨) .

(٣) فى ظلال القرآن (٨ : ٦٣٩) .

(١٨) سورة النصر

جميع الروايات تشير إلى أن سورة النصر مدنية . ما عدا القول السابع لأبى القاسم هبة الله بن سلامة فإنه ذكر أنها نزلت بالمدينة وقيل بمكة وذكر القول بالمكى بأسلوب التضعيف فهو قول ضعيف .

قال القرطبى : وهى مدنية بإجماع . وتسمى سورة (التوديع)[١] .

قال الواحدى : نزلت فى منصرف النبى ﷺ من غزوة حنين وعاش سنتين بعد نزولها[٢] .

قلت : وغزوة حنين كانت بعد فتح مكة ، فهى مدنية بالإجماع .

* * *

(١) تفسير القرطبى (٢٠ : ٢٢٩) .

(٢) أسباب النزول للواحدى (٣٠٨) .

(١٩) سورة الصمد (الاخلاص)

هذه السورة الكريمة من السور المختلف فى نزولها ، فالرواية الثانية عن قتادة والخامسة عن على بن أبى طلحة والقول الثامن للزركشى لم يوردها ضمن السور المدنية .

والرواية الثالثة عن عكرمة والرابعة عن ابن عباس ذكراها ضمن السور المكية والقول السادس لابن الحصار والسابع لابن سلامة ذكرا أنها من المختلف فيه قال القرطبى : مكية فى قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر .

ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى .

والذى يرجح مكية السورة ما أخرجه الترمذى بسنده عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿ **قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمد** ﴾ فالصمد:الذى لم يلد ولم يولد،لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت ولا شىء يموت إلا سيورث . وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَد** ﴾ قال : لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شىء[1] .

قال السيوطى : الإخلاص فيها قولان لحديثين فى سبب نزولها متعارضين وجمع بعضهم بينهما بتكرر نزولها ثم ظهر لى أنها مدنية كما بينته فى أسباب النزول[2] .

قلت : والذى أشار إلى بيانه فى كتابه أسباب النزول هو أنه ذكر أولا حديث الترمذى عن أبى بن كعب السابق ذكره .

---

(١) سنن الترمذى (٥ : ٤٥١) وقد سكت عن الحديث .

(٢) الاتقان (١ : ١٥) .

ثم ذكر حديثا آخر أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبى ﷺ منهم كعب بن الأشرف وحيى بن أخطب فقالوا : يا محمد صف لنا ربك الذى بعثك ، فأنزل الله ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ .. الخ وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله فاستدل بهذا على أنها مدنية .

وأخرج ابن جرير عن أبى العالية قال: قال قتادة: قالت الأحزاب انسب لنا ربك ، فأتاه جبريل بهذه السورة . وهذا المراد بالمشركين فى حديث أبى فتكون السورة مدنية كما دل عليه حديث ابن عباس .

لكن أخرج أبو الشيخ فى كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال : أتت يهود خيبر إلى النبى ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون ، وإبليس من لهب النار ، والسماء من دخان ، والأرض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك ؟ فلم يجبهم ، فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾أ.هـ[1] .

قال الشهاب : (فيما نزل مرتين هل يكون مكيا ومدنيا أو يعتبر أول النزولين . مالم يكن فى الثانى زيادة أو نقص ؟)[2] .

قلت : وأنا ارجح أن السورة مكية ذلك لرواية الترمذى . أما من قال إنها نزلت مرتين فإن النزول الثانى يعتبر تأكيداً للنزول الأول ولا مانع أن ينزل بعض القرآن مرتين تأكيداً ولأهمية هذا المنزل .

* * *

---

(١) لباب النقول للسيوطي (٢٣٨) .

(٢) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى (٦ : ٣٥١) ط/المكتبة الإسلامية محمد أزمير ـــ تركيا .

(٢٠) سورتا المعوذتين

سورتا المعوذتين من السور المختلف فيها . وليس هناك رواية من الروايات السابقة تنص على مدنيتهما فهى مكية. بل إن الرواية الثالثة والرابعة ذكرتهما ضمن السور المكية . والقول السادس والسابع ذكرهما من السور المختلف فى نزولها .

قال القرطبى : وهى (أى الفلق) مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة)[١] . وقد ذكر نفس الحكم فى تفسير سورة الناس[٢] . قال السيوطى : (المختار أنهما مدنيتان لأنهما نزلتا فى قصة سحر لبيد بن الأعصم كما أخرجه البيهقى فى الدلائل)[٣] .

وقصة سحر (لبيد بن الأعصم) اليهودى أخرجها البخارى ومسلم وأحمد . أخرج البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : (سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق . يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشىء ومافعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندى لكنه دعا ودعا ثم قال: ياعائشة، أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه[٤] ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما فقال صاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب[٥] ، قال من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فى أى شىء ؟ قال

---

(١) تفسير القرطبى (٢٠ : ٢٥١) .

(٢) (٢٠ : ٢٦٠) . نفس المرجع السابق .

(٣) الاتقان (١ : ١٥) .

(٤) فى رواية الحميدى (افتانى فى أمر استفتيته فيه) أى اجابنى فيما دعوته ، فاطلق على الدعاء استفتاء لأن الداعى طالب والمجيب مستفتى أو المعنى اجابنى بما سألته عنه . فتح البارى (١٢ : ٣٣٩) .

(٥) أى مسحور ويسمونه بذلك تيامنا كما يسمون المريض بالصحيح .

فى مشط ومشاطة ، وجف[1] طلع نخلة ذكر ، قال : واين هو ؟ قال : فى بئر ذروان ، فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة ، كأن ماءها نقاعة الحناء . وكأن رءوس نخلها رءوس الشياطين قلت : يا رسول الله ، أفلا استخرجته[2] .

قال : قد عافانى الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا ، فأمر بها فدفنت[3] .

ويلاحظ فى هذه الرواية عدم التطرق لنزول المعوذتين وعدم تحديد المدة التى بقى رسول الله ﷺ مسحورا فيها . وقد حددت المدة رواية الأمام أحمد فى مسنده عن إبراهيم بن خالد عن معمر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لبث النبى ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتى ولا يأتى فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما للآخر ما باله ؟ قال مطبوب . قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم[4] .

قال الرازى : (ذكروا فى سبب نزول هذه السورة **وجوها**) :

(**أحدها**) : روى أن جبريل عليه السلام أتاه وقال إن عفريتا من الجن يكيدك . فقال إذا أويت إلى فراشك قل (أعوذ برب) ... السورتين .

(**ثانيها**) : إن الله تعالى أنزلهما عليه ليكونا رقية ، من العين . وعن سعيد ابن المسيب أن قريشا قالوا : تعالوا نتجوع فنعين محمدا ففعلوا ثم أتوه وقالوا ما أشد عضدك وأقوى ظهرك وأنضر وجهك ، فأنزل الله تعالى المعوذتين .

(**وثالثها**) : وهو قول جمهور المفسرين ، أن لبيد بن أعصم اليهودى سحر النبى ﷺ فى إحدى عشرة عقدة وفى وتر دسه فى بئر يقال لها ذروان

---

(١) وهو الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى فلهذا قيده بالذكر فى قوله طلعه ذكر .

(٢) المراد بالمخرج ما حواه الجف لا الجف نفسه . انظر فتح البارى (١٢ : ٣٤٧) .

(٣) أى البئر ـــ فتح البارى (١٢ : ٣٤٣) ، ورواه ايضا مسلم (٤ : ١٧١٩) بتحقيق وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى .

(٤) مسند الامام أحمد (٦ : ١٣٤ ـــ ١٣٥) .

فمرض رسول الله ﷺ ، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان لذلك وأخبره جبريل بموضع السحر فأرسل عليا عليه السلام وطلحة وجاءا به . وقال جبريل للنبى ﷺ حل عقده ، وأقرأ آية ففعل وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة فكان يجد بعض الخفة والراحة [1] .)

والذى يرجح أنهما مدنيتان بجانب الرواية التى ذكرها البخارى وغيره ما أخرجه النسائى وغيره عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ آيات أنزلت علىّ الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس[2] .

فالحديث الذى يرويه عقبة بن عامر[3] رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ بأنه صلوات الله وسلامه عليه قال (آيات أنزلت علىّ الليلة لم ير مثلهن قط) .. الحديث فحدد نزولها بقوله (الليلة) وعقبة بن عامر لم يكن بمكة — فالآيات على هذا مدنية .

* * *

---

(١) تفسير الرازى (٣٢ : ١٨٧) .

(٢) رواه مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباق (١ : ٥٥٨) سنن النسائى بشرح الحافظ السيوطى وحاشية الامام السندى (٢ : ١٥٨) ط/دار احياء التراث العربى — لبنان .

(٣) عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو الجهنى الصحابى المشهور .. روى عن النبى ﷺ كثيراً روى عنه جماعة من الصحابة كان قارئا عالما بالفرائض والفقه فصيح اللسان شاعرا كاتبا وهو أحد من جمع القرآن ، وفى صحيح مسلم من طريق قيس بن أبى حازم عن عقبة بن عامر قال : قدم رسول الله ﷺ وأنا فى غنم لى أرعاها فتركتها ثم ذهبت إليه فقلت بايعنى فبايعنى على الهجرة. الحديث .. مات فى خلافة معاوية على الصحيح .
أنظر الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٢ : ٤٨٩) .

الفصل الثالث

بيان الآيات المدنية في السور المكية

تمهيـــد

ترتيب سور القرآن وآياته :

قبـل الخوض فى بيـان الآيـات المدنيـة فى السور المكيـة والآيات المكيـة فى السور **المدنية لا بد** من الإشارة باختصار إلى أن ترتيب القـرآن الكـريم توقيفـى سواء فى ذلك ترتيب الآيات فى داخل سورها وترتيب السور ذاتها .

(١) أما عن ترتيب الآيات :

فالاجماع قائم على أنها بتوقيف عن النبى ﷺ وأنه لا مجال للـرأى والاجتهاد فيـه . فإذا ما نزلت الآيات بوساطـة أمين الوحـى جبريـل عليـــه السلام على قلب رسول الله ﷺ أرشده إلى موضع كل آيـة من سورتها . ثم يقرؤهـا النبـى ويبلغهـا صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه .

قال القاضى أبو بكـر فى الانـتصار : (ترتـيب الآيات أمـر واجب وحكـم لازم فقد كان جبريل يقـول ضعـوا آيـة كذا فى موضع كذا (وقـال) أيضا الـذى نذهب إليه أن جميع القرآن الذى أنزلـه الله وأمـر بإثبـات رسمه ولم ينسخـه ولا رفـع تلاوته بعد نزوله هو الذى بين الدفتين الذى حواه مصحـف عثمان وأنه لم ينـقص منه شيء ولا زيد فيه وأن ترتيبـه ونظمـه ثابت على ما نظمـه الله تعـالى ورتبـه عليـه رسولـه من آى السور لم يقـدم من ذلك مؤخـر ولا أخـر منـه مقـــدم وأن الأمـــة ضبطت عن النبى ﷺ ترتيب آى كل سورة ومواضعها وعرفت مواقعها ..[1] .

وقال مكى بن أبى طالب وغيره (ترتـيب الآيات فى السور بأمـر من النبـى ﷺ ولما لم يأمر بذلك تركت بلا بسملة[2] أى سورة براءة (التوبة) .

---

١) الاتقان (١ : ٦٣) . للحافظ جلال الدين السيوطى ط. دار الفكر . بيروت .

٢) الاتقان (١ : ٦٣) .

وقال ابن الحصار : ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحى فكان رسول الله ﷺ يقول ضعوا آية كذا فى موضع كذا وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من رسول الله ﷺ ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا فى المصحف[1] .

وقد أخرج البيهقى والامام أحمد والترمذى (عن زيد بن ثابت قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال : طوبى للشام ، قيل ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : إن ملائكة الرحمة باسطة أجنحتها عليه[2] .

وأسنده البيهقى فى الدلائل وقال : (وهذا يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة فى سورها وجمعها فيها بإشارة النبى ﷺ)[3] .

وأخرجه الحاكم فى المستدرك ولفظه (عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال رسول الله ﷺ طوبى للشام فقلنا : لأى شى ذاك ؟ فقال : لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم ـــ قال (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) وفيه البيان الواضح أن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة[4] . وأقره الذهبى وحسنه الترمذى .

وروى الترمذى والحاكم وغيرهما من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال (كان رسول الله ﷺ يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا) قال الترمذى : هذا حديث حسن وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين[5] .

---

(١) الاتقان (١ : ٦٣) .

(٢) الفتح الربانى للساعاتى (١٨ ـــ ٣٠) .

(٣) البرهان للزركشى (١ : ٢٥٦) .

(٤) المستدرك للحاكم (٢ : ٢٢٩) .

(٥) البرهان للزركشى (١ : ٢٤١) . أخرجه الترمذى فى تفسير القرآن من سورة التوبة (٥ : ٢٧٢) والحاكم فى المستدرك فى تفسير القرآن من سورة التوبة (٢ : ٣٣٠) .

وهـــذا الحديث صريح فى الدلالــة على أن ترتـــيب الآيات فى السور كان توقيفيا .

(٢) وأما عن ترتيب السور :

ففيها خلاف بين العلماء . (والـذى يؤيـد أنها بتوقيف عن النبى ﷺ ما أخرجـه الامـام أحمد وأبـو داود(١) وغيرهما ، عن أوس بن أوس بن حذيفـــة قال : كنت فى الوفد الذيـن أسلمـوا من ثقيـف ـــ فذكـر الحديث ـــ وفيـه : فقـال لنـا رسول الله ﷺ طرأ على حزبى من القـرآن فأردت ألا أخـرج حتـى أقضيـه قال : فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيـف تحزبـون القـرآن ؟ قالـوا نحزبـه ثلاث سور وخمس سور وسبـع سور وتسع سور واحـدى عشرة وثـلاث عشرة وحـــزب المفصل من (قٓ) حتـى نختم . قلت : فهـذا يدل على أن ترتـيب السور على ما هو فى المصحف الآن ، كان فى عهد النبى ﷺ)(٢) .

وأوس بن أوس الثقفـى له صحبـة . قال الحافـظ المنـذرى (قال ابـن معين إسنـاد هذا الحديث صالح)(٣) . وحسن إسنـاده الحافـظ ابـن كثير فى فضائـــل القرآن(٤) . ولو أننا عددنا ثمان وأربعين سورة بعـد سورة الفـاتحة كانت التـى تليهن (قٓ) وحزب المفصل من (قٓ) إلى نهاية القرآن الكريم وهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصاحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ(٥) .

وقال أبو بكر الأنبارى : أنزل الله القرآن كلـه إلى سماء الدنيـا ، ثم فرق فى بضع وعشريـن سنـــة ، فكـــانت السورة تنـــزل لأمـــر يحدث ، والآية جوابـــا

---

(١) سنن أبو داود (١ : ٣٢٢) .
(٢) انظر فتح البارى (١٠ : ٤١٨) .
(٣) مختصر المنذرى على سنن أبى داود (٢ : ١١٣ ـــ ١١٤) .
(٤) فضائل القرآن (ص ٢٦) نهاية جـ ٤ تفسير ابن كثير .
(٥) الاعجـاز البيـانى فى ترتيب آيـات القـرآن الكـريم وسوره ، د. محمـد أحمد يوسف القـاسم ط/ الأولى ١٣٩٩ هـ . (ص . ٢٧٨) .

لمستخبر ، ويقف[1] جبريل النبى ﷺ على موضع السورة والآية فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، كله عن النبى ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات .

وقال القاضى أبو بكر : ومن نظم السور على المكى والمدنى لم يدر اين يضع الفاتحة لاختلافهم فى موضع نزولها . ويضطر إلى تأخير الآية فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به[2] .

ومما يؤيد أن ترتيب سور القرآن توقيفى حديث معارضة جبريل بالقرآن كل سنة . أخرج البخارى بسنده عن فاطمة عليها السلام : أسر إلىّ النبى ﷺ أن جبريل يعارضنى بالقرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى[3] .

والمراد بقوله (أن جبريل يعارضنى) من العرض بفتح العين وسكون الراء أى يقرأ جبريل ويستعرضه ما أقرأه . وهذه المعارضة تكون القراءة الأخيرة المعتمدة بعد النسخ والأبقى للحفظ .

٣ ــ اختلاف مصاحف الصحابة ليس دليلاً على أن ترتيب القرآن ليس توقيفيا :

إن الصحابة رضى الله عنهم الذين نقل أنهم خالفوا مصحف سيدنا عثمان رضى الله عنه ثبت أنهم رجعوا إلى المصحف العثمانى وأن قراءتهم توافق ما جاء فى القراءات المتواترة وفى سندها عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعلى بن أبى طالب وأبى بن كعب وغيرهم ممن يقال عنهم إن مصاحفهم كانت تخالف المصحف العثمانى فى كميته وترتيبه .

---

(١) هكذا وردت فى البرهان . والصواب (ويوقف) .

(٢) البرهان للزركشى (١ :٢٦٠) .

(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٤١٨) .

(وإن اختلاف مصاحفهم ليس دليلاً على أن ترتيب القرآن ليس توقيفياً لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف تلاوة ، بل مصاحف علم وتأويل ، قصد بها ضبط وقائع معينة فقد كتب بها المنسوخ تلاوة وبعض الأدعية كالقنوت وتفسير بعض الآيات . ثم إن هذه المصاحف لو كانت بتوقيف تمسك أصحابها بها ولما دفعوها وعرضوها للتحريق فعدولهم عنها وعن ترتيبها دليل على أن الأمر ليس فيه مجال للاجتهاد لأنه لا اجتهاد مع النص . ومن جهة أخرى لو كان مصحف عثمان اجتهاديا لما وافقوه فى ذلك لأنه ليس للمجتهد أن يقلد مجتهداً آخر كما هو مقرر عند الأصوليين[١]).

٤ ـ إقتران سورة التوبة بالأنفال لا إشكال فيه :

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى حديث ابن عباس حول اقتران سورة التوبة بالانفال .

أخرج الامام أحمد والترمذى[٢] والنسائى وأبو داود[٣] وابن حبان والحاكم[٤] وابن ماجه وأبو يعلى والبزار والبيهقى وإسحاق بن راهويه واللفظ لأحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (قلت لعثمان بن عفان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى ، وإلى براءة وهى من المئين ، فقرنتم بينهما . ولم تكتبوا ـ قال ابن جعفر : بينهما سطراً (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله ﷺ كان مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده ، يقول ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن . فكانت

---

(١) باختصار من كتاب الاعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ، تأليف الدكتور محمد أحمد القاسم (ص : ٢٧) .

(١) سنن الترمذى (٥ : ٢٧٢) .

(٣) سنن أبى داود (١ : ١٨١) .

(٤) المستدرك للحاكم (٢ : ٢٢١) .

قصتها شبيهة بقصتها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنـا أنها منها وظننت أنها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطراً (بسم الله الرحمن الرحيم) قال ابن جعفر ووضعتها فى السبع الطوال[1] .

يقول ابن حجر ـــ بعد أن أورد طرفا من الحديث السابق ـــ (فهذا يدل على أن ترتيب الآيات فى كل سورة كان توقيفا . ولما لم يفصح النبى ﷺ بأمر براءة أضافها عثمان إلى الأنفال إجتهاداً منه رضى الله عنه[2] .

وهذا فيه نظر ـــ فإن قوله (فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما. .)هذا قائم على مجرد الظن ومن عثمان وحده فكيف نثبت فى القرآن أمراً ظنيا ؟ .

وكذلك قوله (إن رسول الله ﷺ كان مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده يقول ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا . فيه دلالة على أن الأمر توقيفى وليس لأحد اجتهاد فيه .

وقوله (فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها) بعيد .

إذ الأنفال نزلت فى السنة الثانية عقب غزوة بدر ، وسورة التوبة نزلت فى أواخر السنة التاسعة بعد غزوة تبوك وبعد خروج أبى بكر على رأس المسلمين إلى الحج . فكيف يعقل أن يظل رسول الله ﷺ زهاء خمسة عشر شهرا ولا يبين للناس أنها منها أو غيرها ؟ إنه بذلك يكون قد تأخر عن البيان فى وقت الحاجة إليه بل ومات قبل البيان وحاشاه ﷺ أن يفعل ذلك .

ثم إن إطلاق الاسم على كل منهما واختلافه فيهما مما يعين أن هذه غير

---

(١) الفتح الربانى (١٨ : ١٥٤ ، ١٥٥) .

(٢) فتح البارى (١٠ : ٤١٨) .

تلك فقد سمى النبى ﷺ كلا منهما[1] .

أما قوله (فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » يفهم من ذلك أن عدم ذكر البسملة فى أول براءة هو باجتهاد من عثمان رضى الله عنه مع أن المعلوم أن (بسم الله الرحمن الرحيم) كانت تنزل مع كل سورة حتى أن الصحابة كانوا لا يعرفون إنقضاء السورة إلا إذا نزلت (بسم الله الرحمن الرحيم) فيعرفون أن سورة أخرى قد نزلت .

أخرج أبو داود والحاكم وابن حبان وصححاه عن ابن عباس رضى الله عنه ــ واللفظ لأبى داود ــ (كان النبى ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم)[2] .

(وفى رواية عن ابن عباس قال كان النبى ﷺ لا يعلم ختم السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم).

وفى رواية (فإذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد انقضت[3]).

والعلة فِي عدم ذكرها فى أول براءة قيل لأنها جاءت بنقض العهود والبسملة أمان .

أخرج الحاكم عن على بن عبد الله بن عباس قال سمعت أبى يقول سألت على بن أبى طالب رضى الله عنه لِمَ لَمْ تكتب فى براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال : (لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان)[4] .

---

(١) الألوسى (١ : ٢٧) ، الاتقان (١ : ٦٥) .

(٢) سنن ابى داود (١ : ١٨٢) .

(٣) فتح البارى (١٠ : ٤١٨) .

(٤) المستدرك للحاكم (٢ : ٣٢٠) .

قال القرطبى نقلا عن الامام القشيرى : والصحيح أن البسملة لم تكتب لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها فى هذه السورة[1] .

فالخلاصة أن البسملة لم ينزل بها جبريل عليه السلام وما ورد ذكره من المفسرين فهو التماس للحكمة .

قال الفخر الرازى (قال القاضى : يبعد أن يقال انه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الأنفال . لأن القرآن مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله ﷺ على الوجه الذى نقل .

ولو جوزنا فى بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله على سبيل الوحى . لجوزنا مثله فى سائر السور وفى آيات السورة الواحدة . وتجويزه يطرق ما يقوله الامامية من تجويز الزيادة والنقصان فى القرآن . وذلك يخرجه من كونه حجة . بل الصحيح أنه عليه السلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الانفال وحيا وأنه عليه السلام حذف (بسم الله الرحمن الرحيم) من أول هذه السورة وحيا[2] .

ويبقى علينا الكلام عن سند الحديث .

* * *

---

(١) تفسير القرطبى (٨ : ٦٣) .

(٢) التفسير الكبير للامام الفخر الرازى (١٥ : ٢١٦) ط/دار الكتب العلمية ــ طهران .

البحث فى رجال الحديث

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسى عن ابن عباس . ويزيد الفارسى قد روى عن ابن عباس غير حديث ويقال هو يزيد بن هرمز ويزيد الرقاشي هو يزيد بن أبان الرقاشي ولم يدرك ابن عباس . إنما روى عن أنس بن مالك وكلاهما من أهل البصرة[1] .

قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب (عوف الأعرابى) : قال عبد الله بن أحمد عن أبيه ثقة صالح الحديث . وقال إسحق بن منصور عن ابن معين ثقة وقال أبو حاتم صدوق صالح . وقال ابن سعد كان ثقة كثير الحديث وكان يتشيع. وحكى العقيلي عن ابن المبارك قال كانت فيه بدعتان قدرى وشيعى وقال الانصارى : رأيت داود بن أبى هند يضرب عوفا ويقول ويلك ياقدرى . وقال فى الميزان قال بندار وهو يقرأ لهم حديث عوف لقد كان قدريا رافضيا شيطانا[2] .

وأما يزيد فقد اختلف فيه : هل هو ابن هرمز أو غيره ؟ وقد ذكره البخارى فى كتاب الضعفاء باسم يزيد الفارسى لاشتباهه فيه . وحيث أنه قد انفرد بهذا الحديث فلا يحتج به فى شأن القرآن الذى يطلب فيه التواتر[3] .

وقال فيه الذهبى[4] : قال فيه النسائى وغيره متروك . وقال الدارقطنى وغيره ضعيف . وقال ابن عدى : أرجو أنه لا بأس به . وقال أحمد منكر الحديث .

---

(١) سنن الترمذى (٥ : ٢٧٣) .

(٢) تهذيب التهذيب (٨ : ١٦٧) .

(٣) الفتح الربانى (١٨ : ١٥٤ ، ١٥٦) .

(٤) ميزان الاعتدال (٣ : ٣٠٨) .

والخلاصة : أن العلماء جرحوه ، فالحديث مردود من جهة إسناده . وفى متنه بعض الاشكالات والشكوك التى تطعن فى صحته أما القليل الذين قوموه فأنهم لم يخرجوه عن أقل درجات القبول وهذا لا يعتد به ، لأنه متعلق بأمر كتاب الله الذى هو فى أعلى درجات الصحة[1] .

وبذلك نصل إلى نتيجة نهائية وهى أن ترتيب القرآن الكريم توقيفى فى آياته وسوره . فإذا ما وجدت آيات مدنية فى سور مكية أو آيات مكية فى سور مدنية فهذا بأمر من الله تعالى وليس لنا فيه رأى . اللهم إلا العلم بأن هذه الآيات مكية أو مدنية .

* * *

(١) انظر الاعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ، د. محمد أحمد يوسف القاسم . (٢٨٠ ــ ٢٨٦) .

أولا : بيـــان الآيات المدنية فى السور المكية

فى هذا البحث سأشرع فى بيان جميع الآيات المدنيـــة فى السور المكيـــة أسال لى العون والتوفيق والسداد .

فبالنسبة لسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة فهن مدنيات وليس فيها مكى على التحقيق .

والسور التى بها آيات مدنية والتى نحن بصدد دراستها هى :

١ ـ الأنعـــام
٢ ـ الأعـــراف
٣ ـ يونس
٤ ـ هـــود
٥ ـ يوســـف
٦ ـ الرعـــد
٧ ـ ابراهيم عليه السلام
٨ ـ الحجـــر
٩ ـ النحـــل
١٠ ـ الاســـراء
١١ ـ الكهـــف
١٢ ـ مـــريـــم
١٣ ـ طـــه
١٤ ـ الأنبياء
١٥ ـ الحج
١٦ ـ المؤمنون
١٧ ـ الفرقان
١٨ ـ الشعراء
١٩ ـ القصص
٢٠ ـ لقمـــان
٢١ ـ السجدة
٢٢ ـ ســـبـــأ
٢٣ ـ يس
٢٤ ـ الزمـــر
٢٥ ـ غـــافر
٢٦ ـ الشـــورى
٢٧ ـ الزخرف
٢٨ ـ الجاثية
٢٩ ـ الاحقـــاف
٣٠ ـ ق
٣١ ـ النجم
٣٢ ـ القمر
٣٣ ـ الواقعة
٣٤ ـ الماعون
٣٥ ـ الكوثر

(١) سورة الأنعام

(١) نزلت سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك :

اخرج أبو عبيد وابن الضريس فى فضائلهما وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : (نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح)[١] .

(وقال سفيان الثورى عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبى ﷺ ــ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبى ﷺ ــ إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة)[٢] .

(٢) لكن هناك روايات مؤداها أن بعض الآيات من سورة الأنعام نزلت بالمدينة .

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾[٣] .

اختلف المفسرون فيمن عنى بهذه الآية ؟ فقال ابن عباس وغيره يعنى مشركو قريش وقال سعيد بن جبير : هو مالك بن الصيف .

أخرج الطبرى فى تفسيره بسنده عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ

---

(١) الدر المنثور للسيوطى (٣ : ٢) .

(٢) ظلال القرآن للسيد قطب (٧ : ١٦) ، تفسير ابن كثير (٢ : ١٢٢) .

(٣) سورة الأنعام : ٩١ .

« أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان حبراً سمينا فغضب . فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا موسى ؟ فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ . قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسى**[1] ﴾ .. الآية .

ومعلوم أن اليهود كانوا فى المدينة بعد الهجرة فالآية مدنية والسورة مكية .

الآية الثانية :

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ** ﴾ . الآية ٩٣ .

نزلت فى مسيلمة الكذاب الحنفى كان يسجع ويتكهن ويدعى النبوة ويزعم أن الله أوحى إليه[2] .

أما قوله تعالى : ﴿ **ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** ﴾ نزلت فى عبد الله ابن سعد بن أبى السرح كان قد تكلم بالإسلام فدعاه رسول الله ﷺ ذات يوم يكتب له شيئا فلما نزلت الآيات التى فى المؤمنين ـــ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ـــ أملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله ـــ ثم انشأناه خلقا آخر ـــ عجب عبد الله فى تفصيل خلق الانسان ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله ﷺ هكذا أنزلت على ، فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلىّ كما أوحى إليه . ولئن كان كاذبا لقد قلت كما قال ـــ وذلك قوله ـــ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ـــ وارتد عن الإسلام[3] .

---

(١) راجع تفسير الطبرى (٧ : ٢٦٧) ، تفسير القرطبى (٧ : ٣٧) ، أسباب النزول للواحدى بتحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢١٥) ، لباب النقول للسيوطى (ص ١٠٢) .

(٢) أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٨) .

(٣) أسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢١٦) ، تفسير القرطبى (٧ : ٤٠) .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا من ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِين** ﴾ .

ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية مدنية وذلك باعتبار قوله تعالى ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ أنه يعنى الزكاة . والزكاة لم تفرض إلا فى المدينة بأنصبتها المحددة فى الزروع والثمار . ولكن هذا المعنى ليس وارداً فى الآية إذ أن هناك أقوالا مأثورة فى تفسيرها بأنها تعنى الصدقات . أو بأنها تعنى الاطعام منها لمن يمر بهم يوم الحصاد أو جنى الثمار ، وبخاصة أن هذه الآية ليس فيها تحديد لمقدار الزكاة أو لقرابتهم وأن الزكاة فرضت فى المدينة فيما بعد بالعُشر ونصف العُشر ، وعلى هذا تكون الآية مكية[٢] .

الآية الرابعة :

﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبَالْوالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾[٣] .. الآيات .

أخرج أبو جعفر النحاس فى كتابه الناسخ والمنسوخ بسنده عن أبى عمرو ابن العلاء يقول سألت مجاهدا عن تلخيص آى القرآن المدنى من المكى فقال سألت ابن عباس عن ذلك فقال : سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهى مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة (قل تعالوا أتل) إلى تمام الآيات الثلاث . وما تقدم من السور مدنيات[٤] .

---

(١) الانعام : ١٤١ .

(٢) باختصار من ظلال القرآن (٧ : ١٦) .

(٣) الآيات من سورة الأنعام (١٥١ ـــ ١٥٢ ـــ ١٥٣) إلى قوله تعالى ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

(٤) الناسخ والمنسوخ لابى جعفر النحاس ت ٣٣٨ هـ (ص ١٣٨) ، ط/مطبعة السعادة الطبعة الأولى ١٣٢٣ هـ ، وراجع (ص ١٢٧) من بحثنا هذا .

وهذا الأثر السابق يجعلنى أحكم على هذه الآيات بأنها مدنية .

والنتيجة التى نصل إليها أن سورة الانعام مكية نزلت جملة واحدة ما عدا الآيات التى أشرنا إلى مدنيتها لما ورد فيها من الآثار التى تدل على ذلك .

ولا تعارض بين قولنا بمدنية الآيات ، وبين ما ثبت من نزول الأنعام جملة واحدة . لأنه قد يعبر عن غالب الشىء بكله .

وعلى الرأى الثانى بعدم مدنية هذه الآيات فلا إشكال . والله أعلم .

* * *

(٢) سورة الأعراف

سورة الأعراف مكية إلا تسع آيات من قوله تعالى ﴿ **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ [١] .

إلى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ واذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[٢] .

قال الزركشي : سورة الأعراف مكية إلا ثلاث آيات (واسألهم عن القرية التى كانت) إلى قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل** ﴾[٣] .

هكذا قال الزركشي : (ثلاث آيات) ولكن مع العد يظهر أنها تسع آيات وقال السيوطى : أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة قال : الأعراف مكية إلا آية (واسألهم عن القرية) وقال غيره من هنا إلى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) مدنى .

وسبب نزول تلك الآيات (أن اليهود ادعوا وقالوا لم يصدر من بنى إسرائيل كفر ولا مخالفة للرب وكانوا يعرفون ما وقع لأهل هذه القرية ويخفونه ويعتقدون أنه لا يعلمه أحد غيرهم فأمره الله أن يسألهم عن حال هذه القرية وماوقع لهم توبيخا وتقريعا وتقريرا لهم بما يعلمون من حال أهلها فذكر لهم قصة أهلها فبهتوا وظهر كذبهم فى دعواهم المذكورة وكانت واقعة أهل القرية المذكورة فى زمن داود عليه السلام)[٤] أ.هـ .

---

(١) الاعراف : ١٦٣ .

(٢) الأعراف : ١٧١ .

(٣) البرهان (١ : ٢٠٠) .

(٤) الفتوحات الالهية تأليف سليمان بن عمر العجلى الشافعى الشهير بالجمل (٢ : ٢٠٢) .

وقال السيد قطب والآيات من هنا أى من قوله (واسألهم عن القرية) إلى قوله (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) آيات مدنية . نزلت فى المدينة لمواجهة اليهود فيها وضمت إلى هذه السورة المكية فى هذا الموضع تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بنى إسرائيل مع نبيهم موسى[1] .

ومن خلال ما سبق بيانه أميل إلى أن تلك الآيات مدنية .

* * *

---

(١) فى ظلال القرآن للسيد قطب (٩ : ٦٥٥) .

(٣) سورة يونس (عليه السلام) .

سبق ان بينا الآيات المدنية فى سورة الأعـــراف المكية . وتليها سورة الأنفال والتوبة وهما مدنيتان .

أما سورة يونس فهى مكية وفيها آيات مدنية .

وهى قوله تعالى : ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِـنُ بِهِ ومنهم مَّن لَّا يُؤْمِـنُ بِهِ** ﴾[١] وكـذلك قوله تعالى ﴿ **فَإِنْ كُنْتَ فِى شَكٍّ** ﴾[٢] .

قال السيوطـى : سورة يونس مكيـة استثنـــى منها (فإن كنت فى شك) الآيتين . وقوله (ومنهم من يؤمن به) الآية قيل نزلت فى اليهود . وقيل من أولها إلى رأس الأربـعين مكـى والبـاقى مدنى حكاهـا ابـن الغـــرسى والسخـــاوى فى جمال القراء)[٣] .

أمـا قولـه (ومنهم من يؤمـن به) قيـل المراد أهـل مكـة . وقيـل المراد أهـل الكتاب.وقيل هو عام فى جميع الكفار. وهو الصحيح[٤] .

وقولـه تعـالى : ﴿ **فَإِن كُنْتَ فِى شَكٍّ مِّمَّـا أَنْزَلْنَـا إِلَـيْكَ فَاسْأَلِ الذيـن يَقْـرَأُونَ الكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ .

الخطـاب للنبـــى ﷺ والمراد غيره والمعنـــى (فإن كنت فى شك) أى قل يامحمـــد للكـــافر فـــإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك (فاسأل الذين يقرأون الكتـاب من قبلك) أى ياعابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود

---

(١) يونس : ٤٠ .

(٢) يونس : ٩٤ .

(٣) الاتقان للسيوطى (١ : ١٥) ، وانظر القرطبى فى تفسيره (٨ : ٣٠٤) .

(٤) تفسير القرطبى (٨ : ٣٤٥) .

يعنى عبد الله بن سلام وأمثاله لأن عبدة الأوثان كانوا يقرون لليهود بأنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ، فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا من يقرون بأنهم أعلم منهم هل يبعث الله برسول من بعد موسى[1]؟.

أخرج الطبرى بسنده عن يونس قال : أخبرنا ابن وهب . قال ابن زيد فى قوله تعالى : ﴿ **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك** ﴾ قال : هو عبد الله بن سلام كان من أهل الكتاب فآمن برسول الله ﷺ[2] .

وعلى هذا فيمكننا أن نقول إن السورة كلها مكية ما عدا قوله تعالى ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ حيث أنها نزلت فى عبد الله بن سلام وأمثاله من أهل الكتاب الذين آمنوا فى المدينة .

* * *

---

(١) باختصار من تفسير القرطبى (٨ : ٣٨٢) .

(٢) تفسير الطبرى (١١ : ١٦٨) .

(٤) سورة هود (عليه السلام)

وهى من السور المكية وفيها آية مدنية . وهى قوله تعالى : ﴿ **وأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين** ﴾[١] .

قال السيوطى : (« هود » استثنى منها ثلاث آيات « فلعلك تارك »[٢] «أفمن كان على بينة من ربه»[٣] « وأقم الصلاة طرف النهار » ثم قال ودليل الثالثة ما صح من عدة طرق أنها نزلت بالمدينة فى حق أبى اليسر)[٤] .

قلت : ولم أجد دليلا على مدنية الآيتين (فلعلك تارك) (أفمن كان على بينة من ربه) .

بل ذكرت بعض التفاسير ما يفيد أن قوله تعالى : ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَايُوحَى إلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إنَّمَا أنْتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل** ﴾ . إنها نزلت فى المشركين .

قال ابن كثير (ويقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم فى قوله : ﴿ **وَقَالُوا مَالِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا** ﴾ . الفرقان (٧ — ٨) .

---

(١) هود : ١١٤ .

(٢) هود : ١٢ .

(٣) هود : ١٧ .

(٤) الاتقان (١ : ١٥) .

فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنينه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَد نعلم أنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** ﴾ الآية . وقال ههنا : ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا** ﴾ أى لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل[1] .أ.هـ .

قال الرازى فى سبب نزول الآية (روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا : يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك،فنزلت هذه الآية[2] .

أما الآية الثانية ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ويتلوه شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[3] .

قلت : ولم أقف على شاهد يدل على مدنيتها . بل هى مكية نزلت فى اتباع النبى عليه الصلاة والسلام وهم من الفضل البين على غيرهم ممن أرادوا الحياة الدنيا وزينتها والشاهد من الله تعالى هو النبى عليه الصلاة والسلام ومعه جبريل عليه السلام (ومن قبله كتاب موسى) لأن النبى ﷺ موصوف فى كتاب موسى عليه السلام (يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) .

أما الآية الثالثة قوله تعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذاكِرِين** ﴾[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ : ٤٣٩) .

(٢) تفسير الرازى (١٧ : ١٩٣) .

(٣) هود : ١٧ .

(٤) هود : ١١٤ .

قال الواحدى : (أخبرنا الأستاذ منصور البغدادى قال : أخبرنا أبو عمر ابن مطر قال: حدثنا إبراهيم بن على : قال حدثنا يحيى بن يحيى : قال حدثنا أبو الأحوص عن سماك ، عن إبراهيم عن علقمة والأسود ، عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى عالجت[1] امرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها مادون ان آتيها . وأنا هذا فاقض فىَّ ماشئت ، قال : فقال عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك ، فلم يرد عليه النبى ﷺ فانطلق الرجل فاتبعه رجلا ودعاه فتلا عليه هذه الآية ، فقال رجل : يا رسول الله هذا له خاصة ؟ قال : لا بل للناس كافة . رواه مسلم عن يحيى ورواه البخارى عن طريق يزيد بن ذريع)[2] .

رواه البخارى فى تفسير سورة هود عليه السلام فى باب قوله تعالى ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾[3] .

ورواه مسلم فى كتاب التوبة فى باب قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات** ﴾[4] .

وأخرجه أيضا الترمذى[5] والنسائى من طريق موسى بن طلحة عن أبى اليسر بن عمرو أنه أتته امرأة وزوجها قد بعثه رسول الله ﷺ فى بعث فقالت له بعنى تمرا بدرهم قال : واعجبتنى فقلت لها : إن فى البيت تمرا أطيب من هذا ، فانطلق بها معه فغمزها وقبلها ثم فرغ . فخرج فلقى أبا بكر فأخبره فقال تب ولا تعد ، ثم أتى النبى ﷺ .. الحديث .

وفى روايته أنه صلى مع النبى ﷺ العصر فنزلت[6] .

وفيما سبق ذكره دليل واضح على أن الآية مدنية . والله أعلم .

---

(١) عالجت امرأة : اى داعبتها وتناولت منها مايكون بين الرجل والمرأة غير أنى ما جامعتها .

(٢) اسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢٦٩) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٢٥) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى مجلد ٩ (١٧ : ٧٩) .

(٥) سنن الترمذى (٥ : ٢٨٩) فى كتاب تفسير القرآن ــ تفسير سورة هود .

(٦) فتح البارى (٩ : ٤٥٦) .

(٥) سورة يوسف (عليه السلام)

سورة يوسف كلها مكية . قال القرطبى : قال ابن عباس وقتادة إلا أربع آيـات منها . وروى أن اليهود سألـوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنـزلت السورة[١] . هكـذا ذكـر القرطبى فى مقدمـة تفسيره للسورة ويفهـم منـه أن اليهود كانوا فى المدينة ، فالسورة مدنية .

وقال السيوطى : فى الفصل الذى ذكر فيـه السور المكيـة التـى فيها آيـات مدنية وعد منها سورة (يوسف) استثنـى منها ثلاث آيـات من أولها حكـاه أبـو حيان وهو واه جداً لا يلتفت إليه[٢].أ.هـ .

والـذى ذكـره القرطبـى عن سؤال اليهود عن قصة يوسف أوردهـا هو نفسه فى شرح قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

فقال : (وقيـل معنـى (أنزلنـاه) أى أنزلنـا خبر يوسف . قال النحـاس : وهذا اشبه بالمعنى لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقـوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكـة موافقـا لما فى التـوراة وفيه زيادة ليست عندهم[٣] .

وقد ورد في بعض المصاحـف أن الآيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٧) مدنيـة ومـا عداه مكي وهي قوله : ﴿ آلر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِيـنِ . إِنَّـا أَنزَلْنَـاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ[٤] ﴾ .

---

(١) تفسير القرطبى (٩ : ١١٨) .

(٢) الاتقان (١ : ١٥) .

(٣) القرطبى (٩ : ١١٨) .

(٤) يوسف : ١ : ٣ .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ[1] ﴾ .

وهذا لا أوافق عليه كما سبق أن بينت وليس فيه دليل صحيح ويخل بنظم السياق . والذى صح وثبت ما ذكره الواحدى وأخرجه الحاكم[2] وصححه الذهبى : عن سعد بن أبى وقاص فى قوله (نحن نقص عليك أحسن القصص) قال : أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو قصصت ، فأنزل الله تعالى — ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إلى قوله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ الآية . فتلاه عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ قال : كل ذلك ليؤمنوا بالقرآن[3] .

وليس فى الرواية الصحيحة السابقة (لسعد) ما يشير إلى مدنية الآيات وجاء فى القرطبى (أن اليهود سألوا النبى ﷺ فقالوا أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى ..

ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء وإنما وجه اليهود إليهم من المدينة يسألونه عن هذا . فأنزل الله تعالى سورة يوسف جملة واحدة فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة فكان ذلك آية للنبى ﷺ بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم (عليه السلام) الميت[4] .

أضف إلى ذلك أن السورة مفتتحة بالأحرف المقطعة (الر) ووجود الأحرف المقطعة فى أوائل السور دليل على مكيتها ماعدا الزهراوين .

---

(١) يوسف : ٧ .

(٢) قال الحاكم (هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه) وقال الذهبى صحيح (٢ : ٣٤٥) .

(٣) أسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ سيد صقر (ص : ٢٧٣) .

(٤) تفسير القرطبى (٩ : ١٣٠) .

(٦) سورة الرعد

وهى من السور المكية المختلف فيها . وقد سبق أن فصلت الخلاف الوارد فيها ورجحت ما أطمأنت إليه نفسى مستنداً بالأدلة الصحيحة[١] .

وخلاصته : أن السورة مكية المطلع والموضوع والسياق وبها آيات مدنية .

قال تعالى : ﴿ **اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**[٢] ﴾

إلى قوله تعالى : ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ** ﴾[٣]

فقد ذكر الواحدى عن ابن عباس : (أنها نزلت فى عامر بن الطفيل وأربد ابن ربيعة) وقد سبق ذكر القصة فلا حاجة للتكرار هنا[٤] .

قال السيوطى : وعلى القول بأنها مكية يستثنى قوله (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) إلى قوله (شديد المحال)[٥] .

* * *

---

(١) راجع (ص ٦٦) سورة الرعد — من بحثنا هذا .

(٢) ، (٣) سورة الرعد : ٨ — ١٣ .

(٤) راجع أسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ السيد صقر (ص ٢٧٦) . وقد أورده القرطبى (٩ : ٢٩٦) ، وابن كثير (٢ : ٥٠٦)، وتفسير الطبرى (٣ : ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦) والدر المنثور (٤ : ٥٢) والبحر المحيط (٥ : ٣٧٥) .

(٥) الاتقان (١ : ١٥) للسيوطى .

(٧) سورة إبراهيم (عليه السلام)

سورة إبراهيم من السور المكية وتضمنت ثلاث آيات مدنية وهى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ . وَجَعَلُوا للهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** ﴾(١) .

قال القرطبى فى تفسير الآية : أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا ﷺ ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم . عن ابن عباس وعلى وغيرهم وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبى ﷺ يوم بدر .

وقال السيوطى : أخرج أبو الشيخ عن قتادة : قال سورة ابراهيم مكية غير آيتين مدنيتين(٣) .

وقال الزركشى : سورة إبراهيم مكية غير آيتين . نزلتا فى قتلى بدر ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ...** ﴾ الآيتين(٤) .

وأخرج الطبرى بسنده عن قتادة فى قوله (وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم قادة المشركين يوم بدر أحلوا قومهم دار البوار (جهنم يصلونها)(٥) .

وبهذا أرجح أنها ثلاث آيات لأنها تتحدث عن موضوع واحد وهو مشركو قريش الذين قاتلوا النبى ﷺ يوم بدر .

ومعلوم أن غزوة بدر كانت فى السنة الثانية بعد الهجرة النبوية فهى إذن آيات مدنية ، والله أعلم .

---

(١) سورة ابراهيم : ٢٨ — ٢٩ — ٣٠ .

(٢) تفسير القرطبى (١٠ : ٣٦٤) .

(٣) الاتقان (١ : ١١٦) .

(٤) البرهان للزركشى (١ : ٢٠٠) .

(٥) تفسير الطبرى (١٣ : ٢٢٣) .

(٨) سورة الحجر

وهى من السور المكية . ولقد استثنى منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[١] فقيل إنها مدنية .

والذى أرجحه أن سورة الحجر مكية باتفاق[٢] . فقد أخرج النحاس فى ناسخه وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال (نزلت سورة الحجر بمكة)[٣] .

والذين قالوا بمدنية الآية المستثناة (ولقد آتيناك سبعا) الآية استدلوا بما قاله ابن الجوزى فى سبب نزول هذه الآية ، وذكره الواحدى عن الحسين بن الفضل[٤] : أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود بنى قريظة والنضير فى يوم واحد فيها أنواع من البز وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر . فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها فانفقناها فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال : لقد أعطيتكم سبع آيات هى خير لكم من هذه السبع القوافل .

ويدل على صحة هذا القول على أثرها : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾[٥] وذلك لأن يهود قريظة والنضير كانوا يسكنون المدينة .

أما الذى جعلنى أرجح مكية الآية بل السورة بأكملها فللحديث الصحيح الذى أخرجه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى) .

---

(١) الحجر : ٨٧ .

(٢) راجع الاتقان للسيوطى (١ : ١٢) ، والفتوحات للجمل (٢ : ٥٣٧) نص على الاجماع .

(٣) الدر المنثور للسيوطى (٤ : ٩٣) .

(٤) الحسين بن الفضل بن عمير البجلى (١٧٨ — ٢٨٢ هـ) مفسر معمر كان رأساً فى معانى القرآن أصله من الكوفة انتقل إلى نيسابور فأقام فيها يعلم الناس ٦٥ سنة وتوفى فيها . انظر الأعلام للزركلى (٢ : ٢٥١ — ٢٥٢) .

(٥) سورة الحجر : ٨٨ . انظر الفتوحات الالهية (٢ : ٥٥٣) ، أسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢٨٢) .

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح[١] .

وقد فسر النبى ﷺ (السبع المثانى) بأنها الفاتحة .

ومعلوم أن الفاتحة نزلت بمكة لأن الصلاة فرضت فى مكة ولم يحفظ أنه كان فى الاسلام صلاة بغير الفاتحة[٢] .

ويضم إلى هذا ما حكاه السيوطى والجمل وغيرهما أن السورة مكية بالاجماع واتفاق العلماء على هذا .

وقال السيوطي في الاتقان وينبغي أن يستثنى قوله ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِين ﴾[٣] .

لما أخرجه الترمذى وغيره فى سبب نزولها وأنها فى صفوف الصلاة .

فقد أخرج الترمذى بسنده عن ابن عباس قال (كانت امرأة تصلى خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون فى الصف الأول لئلا يراها . ويستأخر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر ، فإذا ركع نظر من تحت ابطيه فأنزل الله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين)[٤] .

وقد أخرجه الحاكم عن ابن عباس وقال (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) .

وقال الذهبى : صحيح[٥] .

وقد ذكر القرطبى ثمانية أقوال فى تفسير الآية .

فقال الثامن : (المستقدمين) فى صفوف الرجال (والمستأخرين) فيها بسبب النساء .. ثم قال : إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية لما رواه النسائى والترمذى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس .. وذكر الحديث[٦] .

---

(١) سنن الترمذى (٥ : ٢٩٧) .

(٢) الاتقان (١ : ١٢) .

(٣) الحجر : ٢٤ .

(٤) سنن الترمذى (٥ : ٣٠٤) فى باب تفسير سورة الحجر .

(٥) المستدرك للحاكم (٢ : ٣٥٣) فى باب تفسير سورة الحجر .

(٦) تفسير القرطبى (١٠ : ١٩) .

(٩) سورة النحـل

هذه السورة الكريمة من السور المكية وقد تضمنت في آخرها ثلاث آيات مدنية وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِين . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُون . إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون﴾(١) . صدق الله العظيم .

وقد ورد فى سبب نزولها أنها نزلت بشأن سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

قال القرطبى : (أطبق جمهور أهل التفسير أن الآية مدنية نزلت فى شأن التمثيل بحمزة فى يوم أحد . ووقع ذلك فى صحيح البخارى(٢) وفى كتاب السير(٣) . وذهب النحاس إلى أنها مكية . والمعنى متصل بما قبلها من المكى إتصالا حسنا لأنها تتدرج فى الرتب: من الذى يدعى ويوعظ إلى الذى يجادل إلى الذى يجازى على فعله(٤) ولكن ما روى الجمهور أثبت)(٥) .

روى الدارقطنى(٦) عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون من قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شق بطنه ،

---

(١) النحل : ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) ذكر البخارى قصة قتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه كما قصها وحشى . فتح البارى (٨ : ٣٧١) فى كتاب المغازى .

(٣) سيرة ابن هشام (٣ : ١٠٢) .

(٤) وذهب إلى ذلك الرازى وانتصر له (٢٠ : ١٤١) .

(٥) تفسير القرطبى (١٠ : ٢٠١) .

(٦) سنن الدارقطنى (٤ : ١١٨) تحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى المدنى ، ط/دار المحاسن للطباعة بالقاهرة .

واصطلم[1] انفه ، وجدعت[2] اذناه ، فقال : (لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلا) ثم دعا ببرده وغطى بها وجهه فخرجت رجلاه فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجليه الاذخر . ثم قدمه فكبر عليه عشرًا ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ إلى قوله .. ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله**﴾ فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد)[3] .

وأخرج الطبرى بسنده عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة ، وهى مكية إلا ثلاث آيات فى آخرها نزلت فى المدينة بعد أحد ، حيث قتل حمزة ومثل به فقال رسول الله ﷺ لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بثلاثين رجلا منهم .. فلما سمع المسلمون بذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ** ..﴾[4] إلى آخر السورة .

* * *

---

(١) اصطلم : الاصطلام هو الاستئصال . انظر لسان العرب (١٢ : ٣٤) .

(٢) جدعت اذناه : الجدع : القطع وقيل هو القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة . انظر لسان العرب (٨ : ٤١) .

(٣) تفسير القرطبي (١٠ :٢٠١) . راجع أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص ٢٨٩) .

(٤) تفسير الطبرى (١٤ : ١٩٥) .

(١٠) سورة الاسـراء

سورة الإسراء من السور المكية وقد وردت فيها آية مدنية (آية الروح) وهناك آيات مختلف فيها . والأصح أنها مكية .

قال السيوطى فى الاتقان (الاسراء) استثنى منها (ويسألونك عن الروح)[١] الآية .. لما أخرجه البخارى عن ابن مسعود أنها نزلت بالمدينة فى جواب سؤال اليهود عن الروح واستثنى منها أيضا (وإن كادوا ليفتنونك) إلى قوله (إن الباطل كان زهوقا)[٢] . وقوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن)[٣] الآية ، وقوله (وما جعلنا الرؤيا)[٤] الآية . وقوله (إن الذين أوتوا العلم من قبله)[٥] الآية لما أخرجناه فى أسباب النزول[٦] .

وقال الزركشى : (سورة بنى اسرائيل مكية غير قوله (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك) يعنى ثقيفا وله قصة)[٧] أ.هـ .

ويلاحظ فى القولين السابقين إقتصار الزركشى على قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنونك) وإتفاقه مع السيوطى على الآية ذاتها بأنها مدنية .

ولقد اختلفت الروايات الواردة فى سبب نزول الآية .

---

(١) الاسراء : ٨٥ .

(٢) الاسراء : ٧٣ — ٨١ .

(٣) الاسراء : ٨٨ .

(٤) الاسراء : ٦٠ .

(٥) الاسراء : ١٠٧ .

(٦) الاتقان للسيوطى (١ : ١٦) .

(٧) البرهان للزركشى (١ : ٢٠١) .

قال سعيد بن جبير : كان النبى ﷺ يستلم الحجر الأسود فى طوافه ، فمنعته قريش وقالوا لا ندعك تستلم حتى تلم[1] بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : « ما على أن ألم بها بعد أن تدعونى أستلم الحجر والله يعلم أنى لها كاره فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية قاله مجاهد وقتاده[2] . وعلى هذه الرواية تكون الآية مكية .

وقال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى وفد ثقيف ، أتوا النبى ﷺ فسألوه شططا . وقالوا متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها ، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا . وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم فَهَمّ النبى ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية .

وعلى هذه الرواية تكون الآية مدنية .

وقيل هو قول أكابر قريش للنبى ﷺ : اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالى حتى نجلس معك ونسمع منك . فَهَمّ بذلك حتى نهى عنه[3] .

قال الطبرى بعد أن ذكر تلك الروايات (والصواب من القول فى ذلك أن يقال إن الله تعالى أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره وذلك هو الافتراء على الله ، وجائز أن يكون ذلك كان عنهم من ذكر أنهم دعوه ان يمس آلهتهم ويلم بها . وجائز أن يكون ذلك كان مما ذكر عن ابن عباس من أمر ثقيف ومسألتهم إياه ماسألوه مما ذكرنا ، وجائز أن يكون غير ذلك، ولا بيان فى الكتاب ولا فى الخبر يقطع العذر أى ذلك كان . والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا ، فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره حتى يأتى خبر يجب التسليم له ببيان ما عنى بذلك منه)[4] .

---

(١) حتى تلم : الالمام : النزول . وقد ألم به أى نزل به — وألم به زاره غيبا يزورنا لماما أى فى الاحايين . وقال ابن برى : اللمام اللقاء اليسير واحدتها لمة . لسان العرب (١٢ : ٥٥٠) .

(٢) تفسير القرطبى (١٠ : ٢٩٩) ، أسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢٩٧) ، تفسير الطبرى (١٥ : ١٣٠) .

(٣) تفسير القرطبى (١٠ : ٢٩٩) ، أسباب النزول للواحدى (ص ٢٩٧) .

(٤) تفسير الطبرى (١٥ : ١٣٠) .

أما قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾[1] .

اختلف أيضاً فى هذه الآية هل هى مكية أم مدنية وذلك يرجع إلى المراد من الآية فإذا كان المراد منهم اليهود كانت الآية مدنية وإذا كان المراد منهم المشركين كانت الآية مكية .

ولقد تعددت الروايات والرواية التى وردت فى شأن اليهود ضعيفة . قال الحافظ ابن كثير : (قيل نزلت فى اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكن الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة ، وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك . وقيل إنها نزلت بتبوك وفى صحته نظر . روى البيهقى عن الحاكم بسنده إلى عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوما فقالوا يا أبا القاسم إن كنت صادقا أنك نبى فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة . (وإن كادوا ليستفزوك) ، فأمره الله بالرجوع إلى المدينة ، وقال فيها محياك ومماتك ومنها تبعث .

وفى هذا الإسناد نظر والأظهر أن هذا ليس بصحيح فإن النبى ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها إمتثالا لقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾[2] ولقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُون ﴾[3] .

---

(١) الاسراء : ٧٦ ــ ٧٧ .

(٢) التوبة : ١٢٣ .

(٣) التوبة : ٢٩ .

وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من الصحابة ، والله أعلم .

وقيل نزلت فى كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا[١] .

قال القرطبى : قيل إنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت فى همّ أهل مكة بإخراجه ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج . وهذه أصح لأن السورة مكية ولأن قبلها خبراً عن أهل مكة . ولم يجر لليهود ذكر[٢] .

أما قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾[٣] .

أخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم سلوه عن الروح . وقال بعضهم لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون . فقاموا إليه فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت عنه حتى صعد الوحى ، ثم قال ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾[٤] الآية .

وأخرج الترمذى عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود علمونا شيئا نسأل هذا الرجل . فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فأنزل الله ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾ .

قال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[٥] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٥٢) .

(٢) تفسير القرطبى (١٠ : ٣٠١) .

(٣) الاسراء : ٨٥ .

(٤) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ١٩) .

(٥) سنن الترمذى (٥ : ٣٠٤) .

قال ابن كثير : يجمع بين الحديثين بتعدد النزول . وكذا قال الحافظ ابن حجر[1] .

قال السيوطى : (وقد رجح بأن ما رواه البخارى أصح من غيره وبأن ابن مسعود كان حاضرا القصة)[2] .

قلت : رواية الترمذى الراوى فيها ابن عباس ليس حاضرا فى القصة أما رواية البخارى كان ابن مسعود حاضراً أو مشاهدا لوقائع القصة ولا شك أن للمشاهدة قوة فى التحمل وعليه فالآية مدنية .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٦٠) .

(٢) انظر الاتقان (١ : ٣٣ ــ ٣٤) ، وانظر البارى (١٠ : ١٩) .

(١١) سورة الكهف

سورة الكهف من السور المكية . ولقد اختلف العلماء فى الآيات من أول السورة إلى قوله : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا[١] ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾[٢] . وكذلك من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾[٣] إلى آخر السورة .

قال السيوطى فى بيان الآيات المدنية فى السور المكية (الكهف استثنى من أولها إلى « جرزا » وقوله « واصبر نفسك » الآية و« إن الذين آمنوا » إلى آخر السورة)[٤] .

أما قوله (استثنى من أولها إلى « جرزا ») أى إنها آيات مدنية وفيه نظر .

قال القرطبى : وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة إن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله (جرزا) والأول أصح[٥] .

ثم قال فى قوله تعالى : ﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ﴾ ذكر ابن إسحاق (أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث

---

(١) آية : ٨ .
(٢) آية : ٢٨ .
(٣) آية : ١٠٧ .
(٤) الاتقان (١ : ١٦) .
(٥) تفسير القرطبى (١٠ : ٣٤٦) .

وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما : سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته واخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره . وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح . ما هى ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فاصنعوا فى أمره مابدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش .. قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها فإن أخبركم عنها فهو نبى وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم . فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب وعن رجل طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هى ؟ قال فقال رسول الله ﷺ (أخبركم بما سألتم عنه غداً) ولم يستثن . فانصرفوا عنه . فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف[1] أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا . واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاء جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم . وخبر ماسألوه عن أمر الفتية والرجل الطواف والروح .

---

(١) أرجف القوم : خاضوا فى الأخبار السيئة وذكر الفتن . راجع اللسان (٩ : ١١٣) .

ففتتح السورة تبارك وتعالى بحمده وذكر نبوة رسوله ﷺ لما أنكروا عليه ذلك فقال : « الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ » يعنى محمدا[1] .

قلت : فسبب النزول الذى أورده القرطبى نقلا عن ابن إسحاق دليل واضح على أن مقدمة السورة نزلت بمكة . ويلاحظ أيضا أن القرطبى ذكر أمر الروح بجانب الرجل الطواف وأمر الفتية لأن الجميع فى معرض السؤال ، وهذا لا يعنى أن الثلاثة ذكرن فى سورة واحدة ، وإلا فإن الروح جاء ذكرها فى سورة الإسراء .

وأما قوله : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ** ﴾[2] قال الواحدى : قوله تعالى : ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ الآية . حدثنا القاضى أبوبكر أحمد بن الحسين الحيرى إملاء فى دار السنة يوم الجمعة بعد الصلاة فى (شهور) سنة عشر وأربعمائة قال أخبرنا أبو الحسن بن عيسى بن عبد ربه الحيرى قال : حدثنا محمد بن إبراهيم اليوشنجى قال : حدثنا الوليد بن عبد الملك بن مسرح الحرانى قال : حدثنا سليمان بن عطاء الحرانى عن مسلمة بن عبد الله الجهنى عن عمه ابن مشجعه بن ربعى الجهنى ، عن سلمان الفارسى قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا : يارسول الله إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم ــ يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها-جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ــ حتى بلغ ــ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا** ــ يتهددهم بالنار فقام النبى ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر

---

(١) تفسير القرطبى (١٠ : ٣٤٧) .

(٢) الكهف : ٢٨ .

المسجد يذكرون الله تعالى ــ قال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى . معكم المحيا ومعكم الممات)[١] .

فهذا الأثر يدل على أن الآية مدنية لأن سلمان وأبا ذر كانا فى المدينة وهو ضعيف لأن فى سنده سليمان بن عطاء الحرانى[٢] .

والذى أرجحه أن الآية مكية وهى شبيهة بقوله تعالى فى سورة الأنعام المكية ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾[٣] الآية .

والآية التى بين أيدينا ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾ فقد ورد فى سبب نزول آية الأنعام الحديث الصحيح الذى رواه مسلم بسنده عن سعد قال كنا مع النبى ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى ﷺ اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا وقال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ماشاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ﴿ **وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾[٤] . ا.هـ .

وأيضاً أخرج الواحد فى قوله تعالى ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا** ﴾ الآية . نزلت فى أمية بن خلف .

---

(١) أسباب النزول للواحدى (ص ٣٠٦) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٢) سليمان بن عطاء الحرانى .. قال البخارى فى حديثه مناكير ، وقال أبو زرعة منكر الحديث .. وقد ذكره ابن حبان فى الضعفاء . وقال أبو حاتم منكر الحديث يكتب حديثه ا . هـ .
باختصار من تهذيب التهذيب (٤ : ٢١١) .

(٣) الأنعام : ٥٢ .

(٤) صحيح مسلم (باب مناقب سيدنا سعد بن أبى وقاص) بشرح النووى ط/ دار الفكر (١٥ : ١٨٨) . وراجع أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص : ٢١٢) .

أخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس فى قوله ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾[1] قال : نزلت فى أمية بن خلف الجمحى وذلك أنه دعا النبى ﷺ إلى أمر كرهه من تحرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فأنزل الله . ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾ ـــ يعنى من ختمنا على قلبه عن التوحيد واتبع هواه ـــ يعنى الشرك[2] .

وأخيرا قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** ﴾ إلى آخر السورة . أشار السيوطى إلى أنها مدنية وذلك لأن قوله تعالى ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** ﴾ فقد ورد فى سبب نزولها أنها نزلت فى اليهود .

قال الواحدى : قال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبى ﷺ « **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** » كيف وقد أوتينا التوراة . ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا فنزلت ـــ ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى** ﴾ الآية[3] .

فدل سبب النزول على أنها مدنية .

وكذلك قوله تعالى ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه** ﴾ الآية .

وأخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس : نزلت فى جندب بن زهير الغامدى[4] وذلك أنه قال : إنى أعمل العمل لله ، فإذا اطلع عليه سرنى . فقال رسول الله ﷺ : « **إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ولا يقبل ما روئي فيه** » فأنزل

---

(١) الكهف : ٢٨ .

(٢) أسباب النزول للواحدى (ص ٣٠٧) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٣) أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص ٣٠٨) وراجع تفسير القرطبى (١١ : ٦٨) .

(٤) هو جندب الخير الأزدى العامرى قاتل الساحر يكنى أبا عبد الله له صحبة روى عن النبى ﷺ (حد الساحر ضربه بالسيف) ذكر العسكرى أنه مات فى خلافة معاوية . تهذيب التهذيب (٢ : ١١٨) .

الله تعالى هذه الآية[١] .

والــذى أرجحــه أن الآيات مكيـــة لما فيها من الحض على الإيمان بالله والنهى عن الشرك بالله . وهى من أهم خصائص الآيات المكية .

قال ابن كثير : (قال ابـن جريـر : حدثنـا أبـو عامـر اسماعيـل بن عمـرو السكـونى . حدثنـا هشام بن عمـار حدثنـا ابـن عيـاش حدثنـا عمــرو بن قيس الكندى أنـه سمع معاويـة بن أبى سفيـان تلا هذه الآية ﴿ **فمـن كان يرجـوا لقـاء ربه** ﴾ الآية وقال إنها آخر آية نزلت من القرآن . وهذا أثر مشكل فإن هذه الآية آخر سورة الكهف . والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدهـا آيـة تنسخها ولا تغير حكمها بل هى مثبتـة محكمـة فاشتبـه ذلك على بعض الـرواة فروى بالمعنى على **ما فهمه والله أعلم**)[٢] .

فهـذا فيـه تأكيـد من ابـن كثير رحمه الله على مكيـة السورة عنــد قولــه (والكهف كلها مكية) .. والله أعلم .

---

(١) أسباب النزول للواحدى (ص ٣٠٨) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ : ١١٠) .

(١٢) سورة مريم

وهى من السور المكية . وقال السيوطى : استثنى منها آية السجدة[١] . وقوله ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**[٢] ﴾[٣] أى أنهما آيتان مدنيتان .

ولم أجد ما يعضد ذلك .. وقد نقل القرطبى الإجماع على مكيتها قال القرطبى فى تفسيره : (سورة مريم عليها السلام وهى مكية بإجماع)[٤] .

---

(١) آية السجدة (أولئك الذين أنعم الله عليهم) الى قوله (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) آية : ٥٨ .

(٢) آية ٧١ .

(٣) الاتقان : (١ : ١٦) .

(٤) القرطبى (١١ : ٧٢) .

(١٣) سورة طه

سورة طه من السور المكية ..

قال السيوطى فى الإتقان : « طـه » استثنى منها « فاصبر على ما يقولون »[١] الآية .

قلت : وينبغى أن يستثنى آية أخرى فقد أخرج البزار وأبو يعلى عن أبى رافع قال : أضاف النبى ﷺ ضيفا فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب فقال : لا . إلا برهن فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال أما والله أنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض . فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿ **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ**[١] ﴾[٣] .

قال القرطبى : قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية (ولا تمدن عينيك) ما رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، قال : نزل ضيف برسول الله ﷺ ، فأرسلنى عليه السلام إلى رجل يهودى وقال قل له يقول لك محمد : نزل بنا ضيف ولم يلق عندنا بعض الذى يصلحه فبعنى كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفنى إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن .

قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال والله أنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولو أسلفنى أو باعنى لأديت إليه اذهب بدرعى إليه .. ونزلت الآية تعزية له عن الدنيا .

قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سببا ، لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبى ﷺ ، لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى

---

(١) طه : ١٣٠ .

(٢) طه : ١٣١ .

(٣) الاتقان (١ : ١٦) .

بهذه القصة التى ذكرت .

وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها وذلك أن الله تعالى وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم والصبر على أقوالهم والاعراض عن أموالهم وما فى أيديهم من الدنيا ، إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزى[1] .

قلت : قال القرطبى : سورة طه عليه السلام مكية فى قول الجميع[2] .

أضيف إلى قوله هذا الحديث الصحيح الذى رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (بنى اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق[3] الأول وهن من تلادى)[4] .

قال ابن حجر : (وزاد فى هذه الرواية ما لم يذكره فى تلك وحاصله : أنه ذكر خمس سور متوالية ومقتضى ذلك أنهن نزلن بمكة لكن اختلف فى بعض آيات منهن .. قيل فى جميع ذلك إنه مدنى ولا يثبت شىء من ذلك والجمهور على أن الجميع مكيات وشذ من قال خلاف ذلك)[5] .

والخمس سور التى يشير إليها ابن حجر هى (الاسراء) ، (الكهف) ، (مريم) ، (طه) ، (الأنبياء) .

وعليه فسورة طه مكية كلها والله أعلم .

---

(١) تفسير القرطبى (١١ : ٢٦٢ — ٢٦٣) .

(٢) تفسير القرطبى (١١ : ١٦٣) .

(٣) قوله هن من العتاق الأول وهن من تلادى : يعنى أن تلك السور من قديم ما أخذت من القرآن شبههن بتلاد المال . والتالد هو المال القديم . انظر لسان العرب (٣ : ١٠٠) .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٠) .

(٥) فتح البارى (١٠ : ٥٠) .

(١٤) سورة الأنبيـاء

وهى من السور المكية . وقد أخرج البخارى فى صحيحه فى باب تفسير سورة الأنبياء بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (بنى اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى)[١] .

وقوله فى الحديث (من العتاق) بكسر العين المهملة جمع عتيق والعرب تجعل كل شىء بلغ الغاية فى الجودة عتيقا يريد تفضيل هذه السور لما يتضمن مفتتح كل منها بأمر غريب وقع فى العالم وهو الاسراء وقصة أصحاب الكهف وقصة مريم ونحوها .

وقوله (الأول) بضم الهمزة وفتح الواو المخففة والأولية إما باعتبار حفظها أو باعتبار نزولها لأنها مكيات .

وقوله (من تلادى) بكسر التاء المثناة من فوق وتخفيف اللام وهو ما كان قديما وأراد بقوله من تلادى أى من محفوظاتى القديمة[٢] .

قال السيوطى : الأنبياء (استثنى منها ﴿ **أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾[٣] .

قلت : لم أجد ما يعضد ذلك . وقال القرطبى (سورة الأنبياء مكية فى قول الجميع)[٤] .

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٠) .

(٢) باختصار من عمدة القارى شرح صحيح البخارى لبدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى الحنفى ـــ دار الطباعة العامرة ـــ الشركة الصحافية العثمانية فى دار السلطنة السنية سنة ١٣٠٨ هـ (٩ : ٢) .

(٣) الاتقان (١ : ١٦) . الأنبياء : ٤٤ .

(٤) القرطبى (١١ : ٢٦٦) .

(١٥) سورة الحج

سورة الحج من السور المكية وفيها آيات مدنية . وهى قوله تعالى ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ** ﴾[١] الآية . وقوله تعالى ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ** ﴾[٢] إلى نهاية الآيات الثلاث . وقوله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير** ﴾[٣] .

قال القرطبى : « سورة الحج » وهى مكية ، سوى ثلاث آيات . قوله تعالى « هذان خصمان » إلى تمام ثلاث آيات قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضاً أنهن أربع آيات إلى قوله (عذاب الحريق) .

وقال الضحاك وابن عباس أيضاً : هى مدنية ، وقاله قتادة .. إلا أربع آيات (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى)[٤] إلى (عذاب يوم عقيم) فهن مكيات وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات .

وقال الجمهور : السورة مختلطة منها مكى ومنها مدنى . وهذا هو الأصح . لأن الآيات تقتضى ذلك . لأن (يأيها الناس) مكى و (يأيها الذين آمنوا) مدنى[٥] .

قلت : أما قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف** ﴾ الآية مدنية فقد أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

---

(١) الحج : ١١ .

(٢) الحج : ١٩ — ٢٠ — ٢١ .

(٣) الحج : ٣٩ .

(٤) الحج : ٥٢ وما بعدها .

(٥) تفسير القرطبى (١ : ١٢) .

(**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ**) قال كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيله قال هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء)[١] .

فدل الحديث على أن مناسبة نزول الآية كان فى المدينة بعد الهجرة .

وأما قوله تعالى : ﴿ **هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ** ﴾ الآية .

فقد أخرج البخارى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه أنه كان يقسم فيها أن هذه الآية «هذان خصمان اختصموا فى ربهم» نزلت فى حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا فى يوم بدر .

وفى رواية أيضاً للبخارى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال أنا أول من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة قال قيس وفيهم نزلت (هذان خصمان اختصموا فى ربهم) قال هم الذين بارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة [٢] .

فدل سبب النزول على نزول الآية بعد الهجرة فهى مدنية .

وأما الآية الأخيرة ، وهى قوله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾[٣] .

فقد أخرج الترمذى بسنده عن ابن عباس قال (لما أخرج النبى ﷺ من مكة . قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فأنزل الله تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾[٤] فقال أبو بكر لقد علمت أنه سيكون قتال ﴾[٥] .

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٩) .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٩) . راجع أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠٧) .

(٣) الحج : ٣٩ .

(٤) الحج : ٣٩ .

(٥) سنن الترمذى (٥ : ٣٢٥) .

فدل سبب النزول على أن الآية مدنية لأنها بعد خروجه من مكة .

هذا وهناك آية رابعة فى هذه السورة وهى مدنية . وهى قوله تعالى : ﴿ **ذَلِكَ وَمَن عَاقَبَ بِمِثْلِ مَاعُوقِبَ بِهِ** ﴾[1] .

* * *

(١) الآية ٦٠ راجع ص ٧١ من بحثنا هذا

(١٦) سورة المؤمنون

وهى من السور المكية . وقد نص القرطبى على مكيتها فى أول تفسيره للسورة فقال : (مكية كلها فى قول الجميع)[١] .

ولقد استثنى منها السيوطى فى الاتقان الآيات من قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُون** ﴾[٢] إلى قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُون** ﴾[٣] .

ولكن القرطبى نقض كلامه السابق والذى نص فيه على مكية السورة كلها بأن قال فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَاب** ﴾ (يعنى بالسيف يوم بدر قاله ابن عباس) . وبدر كانت بعد الهجرة فعليه فالآية مدنية . وقال فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ قال : نزلت فى قصة ثمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم . وخلى رسول الله ﷺ سبيله حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز . قيل وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان أنشدك الله والرحم . أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال بلى قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع فنزل قوله ﴿ **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون** ﴾[٥] .

---

(١) تفسير القرطبى (١٢ : ١٠٢)

(٢) المؤمنون : ٦٤ .

(٣) المؤمنون : ٧٧ ، الاتقان (١ : ١٦) .

(٤) راجع القرطبى (١٢ : ١٣٥) .

(٥) تفسير القرطبى (١٢ : ١٤٣) .

قلت : والسرية التى أسر فيها ثمامة بن أثال هى سرية (محمد بن مسلمة إلى القرطاء وهم بنو بكر بن كلاب)[1]. وكانت بعد الهجرة وعليه فتكون الآية مدنية ولكن ابن كثير ذكر فى تفسيره أنها مكية فقال (تفسير سورة المؤمنون مكية) ولم يستثن منها شيئا .

وقال عند تفسيره للآيات التى استثناها السيوطى وهى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُون . لَا تَجْأَرُوا اليَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُون قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُون مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُون ﴾[2] .

يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم (إذا هم يجأرون) أى يصرخون ويستغيثون .. وقوله (مستكبرين به سامرا تهجرون) فى تفسيره قولان (أحدهما) أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله فعلى هذا الضمير فى (به) فيه ثلاثة أقوال :

(أحدهما) أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام[3] .

(والثاني) أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: أنه سحر ، أنه شعر ، أنه كهانة .. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة .

(الثالث) أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون ..

وقيل المراد بقوله (مستكبرين به) أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم

---

(١) أنظر السيرة الحلبية للعلامة برهان الدين الحلبي (٣ : ٧٧١) .

(٢) المؤمنون : ٦٤ : ٦٧ .

(٣) الهجر من الكلام : القبيح وهو الاستهزاء والفحش من القول . أنظر لسان العرب (٥ : ٢٥٣) .

أولياؤه وليسوا به[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ.حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُون** ﴾[2] .

قال ابن كثير (ولقد أخذناهم بالعذاب) أى ابتليناهم بالمصائب والشدائد (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم (ما استكانوا) أى ما خشعوا)[3] .

ثم روى بسنده عن ابن أبى حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز — يعنى الوبر والدم — فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا) الآية .

وكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل عن على بن الحسين عن أبيه به وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) .

وقوله : ﴿ **حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُون** ﴾ أى حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم[4] . أ.هـ .

قلت : الحديث الذى أشار إليه ابن كثير أصله فى الصحيحين قوله ﷺ « اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف » أخرجه البخارى مطولا فى كتاب

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير (٣ : ٢٤٩) .

(٢) المؤمنون : ٧٦ — ٧٧ .

(٣) تفسير ابن كثير (٣ : ٢٥٢) .

(٤) فتح البارى (ص ٦٢٨ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، جـ ١٠) .

التفسير سورة الروم وسورة صّ، والدخان[1] . وأخرجه مسلم[2] فى كتاب (صفة القيامة والجنة والنار فى باب الدخان مطولا) . وأخرجه الترمذى فى (تفسير سورة الدخان)[3] .

وإليك الحديث كما أخرجه البخارى بسنده عن مسروق قال : قال عبد الله (يعنى ابن مسعود) : إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصوا على النبى ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام . فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . فأنزل الله تعالى : ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[4] .

قال : فأتى رسول الله ﷺ فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، قال : لمضر ؟ إنك لجرىء فاستسقى فسقوا . فنزلت إنكم عائدون ، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية فأنزل الله ﴿ **يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُون** ﴾ قال يعنى يوم بدر[5] .

وفى الرواية[6] الأخرى والتى للبخارى أيضا : (حول قوله « إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون[7] ـــ أفيكشف العذاب يوم القيامة ؟ قال فكشف ثم عادوا فى كفرهم فأخذهم الله يوم بدر ـــ قال الله تعالى ﴿ **يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُون** ﴾[8] .

---

(١) فتح البارى (ص ٦٢٨ ، ١٩٢ ، جـ ١٠) .
(٢) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووى (١٧ : ١٤٢) .
(٣) سنن الترمذى (٥ : ٣٧٩) .
(٤) الدخان : ١٠ ـــ ١١ .
(٥) صحيح البخارى شرح فتح البارى (١ : ١٩٢) .
(٦) صحيح البخارى شرح فتح البارى (١ : ١٦٧) .
(٧) الدخان : ١٥ .
(٨) الدخان : ١٦ .

فمن خلال دراستنا للرواية السابقة نستخلص ما يلى :

(١) أن رأى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى تفسير الدخان هو ما حدث لأهل مكة من جراء دعوة الرسول ﷺ على أهلها حين استعصت عليه فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف . وكان الرسول ﷺ آنذاك فى مكة ولم يهاجر إلى المدينة بعد .

(٢) الآتى المذكور هو أبو سفيان كما صرح به فى الرواية الأخيرة المذكورة فى الباب (فأتاه أبو سفيان فقال أى محمد ، إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم)[١] وأبو سفيان كان فى مكة .

(٣) وقوله (فقال رسول الله ﷺ لمضر؟ إنك لجرىء) .

(أى تأمرنى أن استسقى لمضر مع ما هم عليه من المعصية والاشراك به ؟ ووقع فى شرح الكرمانى قوله فقال رسول الله ﷺ لمضر؟ أى لأبى سفيان فإنه كان كبيرهم فى ذلك الوقت وهو كان الآتى إلى رسول الله ﷺ المستدعى منه الاستسقاء[٢] .

ولم تنص أية رواية أن أبا سفيان سافر إلى المدينة لطلب السقيا بل قال فأتاه أبو سفيان وهو لا يزال على الشرك فقال أى محمد ولم يقل يا نبى الله . كل هذه دلائل على أن هذه الدعوة من رسول الله ﷺ كانت قبل هجرته إلى المدينة .

فعليه فالآيات مكية والسورة فى أسلوبها ومعانيها وتعبيراتها تجعلنى أميل إلى أنها كلها مكية .

والذين قالوا بمدنية الآيات قالوا ذلك بناء على أن دعاء النبى ﷺ كان فى المدينة . نعم ثبت فى الصحيح أنه كان النبى ﷺ يدعو على قريش وقد مكث شهرا إذا رفع رأسه من الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ١٩٤) .

(٢) فتح البارى (١٠ : ١٩٢) .

يقول : « اللهم أنج الوليد بن الوليد ومسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم أشدد وطأتك على مضر .. اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » ثبت ذلك .

اخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم أنج عياش بن أبى ربيعة ، اللهم أنج مسلمة بن هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم أشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف[1] .

ويلاحظ أن الراوى هو أبو هريرة وكان إسلامه بعد الهجرة فى المدينة ولم يكن فى مكة قبل الهجرة . والرواية السابقة عن عبد الله بن مسعود وهو من أوائل الصحابة السابقين إلى الإسلام .

وللتوفيق بين الروايتين : أن الآيات التى نص السيوطى ومن اتبعه من المفسرين على مدنيتها هى آيات مكية نزلت بسبب دعاء المصطفى ﷺ على قريش حين استعصوا على النبى ﷺ فقال (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) فقد أخرج البخارى بسنده عن مسروق (وفيه) وإن قريشا ابطأوا عن الإسلام فدعا عليهم النبى ﷺ فقال : (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان فجاءه أبو سفيان فقال : يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقرأ « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » إلى قوله « عائدون » ـــ أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء ثم عادوا إلى كفرهم . فذلك قوله يوم نبطش البطشة الكبرى ـــ يوم بدر ..[2] .

على حين كان دعاؤه فى المدينة هو دعاء القنوت للمستضعفين من المؤمنين فى مكة أن ينجيهم الله من براثن القتل والفتك الذى وقع للمسلمين فى مكة

---

(١) فتح البارى (٣ : ١٤٦) أبواب الاستسقاء وكذلك (١٣ : ٤٥٠) فى كتاب الدعوات .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ١٢٩) .

وختم دعاءه ﷺ بقوله (اللهم أشدد وطأتك على مضر .. اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) . ويلاحظ الفرق بينها وبين دعوته السابقة فى مكة (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) فتلك كانت فى مكة والأخيرة كانت فى المدينة وكلتا الروايتين صحيحة .

فالمراد من الآيات ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِم وَمَا يَتَضَرَّعُون. حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُون** ﴾[1] .

هو ما أصابهم فى مكة من الجوع وأكلهم العلهز والميتة نتيجة لدعوته ﷺ عليهم فى مكة حين استعصوا ولم يدخلوا فى الإسلام أن يعينه الله عليهم بسنين كسنى يوسف عليه السلام واستجاب الله له فحدث ما حدث . والله أعلم ..

* * *

(١) المؤمنون : ٧٦ — ٧٧ .

(١٧) سورة الفرقــان

سورة الفرقان من السور المكية كما نص عليه قول الجمهور .

قال القرطبى : (مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتـادة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخـر** ﴾ الى قوله ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيما** ﴾[١] .

وبذلك قال السيوطى فى الاتقان (استثنى منها « **والذيـن لا يدعـون** » إلى « **رحيما** »)[٢] .

قلت : ورد فى صحيح مسلم مايشير إلى أن الآيات مكية .

أخرج البخارى فى صحيحه بسنـده عن ابـن عبـاس : أن ناسا من أهـل الشرك قتلوا فاكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا ﷺ فقالـوا : إن الـذى تقـول وتدعـو إليه لحسن لو تخبرنـا بأن لما عملنـا كفـارة فنـزلت ﴿ **وَالَّذِيـنَ لَا يَدْعُـونَ مَعَ اللَّـهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّـفْسَ الَّتِـى حَرَّمَ اللَّـهُ إلاّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُـونَ وَمـنْ يَفْعَـلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً** ﴾[٣] .

وأخرج مسلم أيضا فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود **قال رجل يا رسول** الله ، أى الـذنب أكبر عنـد الله ؟ قال أن تدعـو لله ندا وهـو خلــقك قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعـم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزنى فى حليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿ **وَالَّذِيـنَ لَا يَدْعُـونَ مَعَ اللَّـهِ إِلَٰـهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّـفْسَ الَّتِـى حَرَّمَ اللَّـهُ إلاّ باِلحَقِّ وَلاَ يَزْنُـونَ وَمَـنْ يَفْعَـلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً** ﴾[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى (١٣ : ١) والايات من سورة الفرقان آية : (٦٨ — ٧٠) .

(٢) الاتقان للسيوطى (١ : ١٦) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ١٧٠) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى (٢ : ٨٠) .

وأخرج البخارى بسنده قال :

(حدثنا ابراهيم بن موسى . أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرنى القاسم بن أبى بزه أنه سأل سعيد بن جبير : هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة ؟ فقرأت عليه ﴿ **ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾[1] فقال سعيد : قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علىَّ فقال (هذه مكية نسختها آية مدنية التى فى سورة النساء)[2] .

قلت : هذا نص من حبر الأمة رضى الله عنه على مكية الآية . ويعنى بالآية المدنية التى فى سورة النساء : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّم خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾[3] .

فمن تأمل الأحاديث السابقة وموضوع الآية وهو نبذ الشرك بالله وقتل النفس والزنا وهى تلك القبائح المتفشية فى المجتمع المكى وارتباط الآية بما قبلها من صفات عباد الرحمن كل ذلك مؤشرات تجعلنى أميل إلى أن الآية مكية فعليه فالسورة كلها كما نص الجمهور مكية وبدون استثناء . والله أعلم .

---

(١) الفرقان : ٦٨ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ١١٠) ، كتاب التفسير .

(٣) النساء : ٩٣ .

(١٨) سورة الشعراء

وهى من السور المكية . (قال القرطبى : وهى مكية فى قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنى ، الآية التى يذكر فيها الشعراء ـــ وقوله ﴿ **أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ** ﴾[(١)] . وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾[(٢)] إلى آخرها)[(٣)] .

وقال السيوطى : (الشعراء . استثنى ابن عباس منها والشعراء إلى آخرها .. وزاد غيره وقوله ﴿ **أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى اسْرَائِيلَ** ﴾ حكاه ابن الغرس)[(٤)] .

وقال القاسمى : (هى مكية إلا قوله ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون** ﴾ إلى آخرها وقوله ﴿ **أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل** ﴾ فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة وكان شعراؤه ﷺ بالمدينة حسان وكعب بن مالك وابن رواحةَ رضى الله عنهم .

وقال الدانى : روى بسند صحيح أنها نزلت فى شاعرين تهاجيا فى الجاهلية مع كل واحد منهم جماعة ، فالسورة على هذا كلها مكية)[(٥)] .

وقال ابن كثير : قال ابن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى الحسن سالم البراء عن عبد الله تميم الدارى : قال : لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا

---

(١) الشعراء : ١٩٧ .

(٢) الشعراء : ٢٢٤ ـــ ٢٢٧ .

(٣) تفسير القرطبى (١٣ : ٨٧) م ٧ ، أول تفسير السورة .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١٦) .

(٥) تفسير القاسمى (محاسن التأويل) محمد جمال الدين القاسمى (١٣ : ٤٦٠٤) ط/الأولى عيسى البابى وحلبى سنة ١٣٧٩ هـ . تعليق وتخريج محمد فؤاد عبد الباق .

النبى ﷺ (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال : أنتم (وذكروا الله كثيرا) قال أنتم (وانتصروا من بعد ما ظلموا) قال (أنتم) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير من رواية ابن اسحاق .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا عن أبى سعيد الأشج عن أبى أسامة عن الوليد بن أبى كثير عن زيد بن عبد الله عن أبى الحسن مولى بنى نوفل أن حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية (والشعراء يتبعهم الغاوون) يبكيان فقال رسول الله ﷺ وهو يقرأها عليهما (والشعراء يتبعهم الغاوون — حتى بلغ — إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال أنتم . وقال أيضاً : حدثنا أبى حدثنا أبو مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة قال : لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاوون) إلى قوله (**وأنهم يقولون ما لا يفعلون**) قال عبد الله بن رواحة يارسول الله قد علم الله أنى منهم فأنزل الله تعالى ﴿ **إلاَّ الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَات** ﴾ الآية .

وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولاشك أنه استثناء . ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار ؟ وفى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها والله أعلم . ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم وحتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا فى مقابلة ما تقدم من الكلام السيء . فإن الحسنات يذهبن السيئات وامتدح الإسلام وأهله فى مقابلة ما كان يذمه[1] .

وعلى هذا فالسورة كلها مكية كما نص على ذلك الجمهور .

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٣٥٤) ط/ دار الفكر .

(١٩) سورة القصص

سورة القصص من السور المكية وقد تضمنت بعض الآيات المدنية قال الزركشي : سورة القصص مكية غير آية : (الذين آتيناهم الكتاب) يعنى الانجيل (من قبله هم به يؤمنون) يعنى الفرقان . نزلت فى أربعين رجلا من مؤمنى أهل الكتاب قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب فأسلموا .

قال السيوطى فى الاتقان : (سورة القصص استثنى منها (الذين آتيناهم الكتاب)[١] إلى قوله (الجاهلين)[٢] فقد أخرج الطبرانى عن ابن عباس أنها نزلت هى وآخر الحديد فى أصحاب النجاشى الذين قدموا وشهدوا وقعة أحد . وقوله (إن الذى فرض عليك القرآن)[٣] الآية لما سيأتى)[٤] .

وقد وضح قوله « لما سيأتى » فى أمثلة السفرى فقال منها ﴿ **إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لرادك إِلَى مَعَاد** ﴾ نزلت بالجحفة فى سفر الهجرة كما أخرجه ابن أبى حاتم عن الضحاك .

وقال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة. وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة وهى قوله ﴿ **إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادك إِلَى مَعَاد** ﴾ الآية .

وقال مقاتل : فيها من المدنى « الذين آتيناهم الكتاب » إلى قوله : « لا نبتغى الجاهلين»[٥] ويؤيد ذلك فى قوله تعالى ﴿ **الذين اتيناهم الكتاب** ﴾ إلى قوله

---

(١) ، (٢) القصص : ٥٢ ــ ٥٥ .

(٣) القصص : ٨٥ .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١٦) .

(٥) القرطبى (١٣ : ٢٤٧) .

(لا نبتغي الجاهلين) .

(١) ما أخرجه الطبرى عن ابن عباس قال : (يعنى من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب) .

(٢) ما أخرجه عن قتادة قال (كنا نحدث أنها نزلت فى أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها وينتهون إليها حتى بعث الله محمداً ﷺ ، فآمنوا به وصدقوا به فأعطاهم الله أجرهم مرتين . بصبرهم على الكتاب الأول ، واتباعهم محمداً ﷺ وصبرهم على ذلك ، وذكر أن منهم سلمان ، وعبد الله بن سلام[1] .

وذكر القرطبى فى تفسير الآية : (أن قوما ممن أوتوا الكتاب من بنى اسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ، كعبد الله بن سلام وسلمان ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبى طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى : منهم بحيرا الراهب وأبرهه والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردى . وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتى بعدها « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » قاله قتادة »[2] .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبى ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران . وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران . ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران** »[3] .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٠ : ٨٩) .

(٢) تفسير القرطبى (١٣ : ٢٩٦) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (٢ : ١٨٧) م ١ — كتاب الايمان .

فالصنف الأول من الناس الوارد ذكره فى الحديث يطابق ما جاءت به الآية ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُون.وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِين . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون ﴾ إلى قوله (لا نبتغى الجاهلين)[1] .

وهؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب كانوا بعد الهجرة قدموا إلى المدينة فالآيات مدنية .

أما قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّك إِلى مَعَادٍ قُل رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِين ﴾[2] . فهى مكية .

والمراد بقوله إلى (معاد) أى إلى مكة .

أخرج البخارى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) : قال : إلى مكة[3] .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك رضى الله عنه قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّك إِلَى مَعَادٍ ﴾ .

وهناك من لا يقول بمدنيتها ولامكيتها كابن عباس فإنه قال : (نزلت هذه الآية بالجحفة ليست مكية ولا مدنية)[4] .

قلت : هذا لأنه نظر إلى المكان وحده للضبط فما نزل بمكة فهو مكى، وما نزل بالمدينة فهو مدنى، وما نزل بين مكة والمدينة فهو ليس مكيا ولا مدنيا .

---

(١) القصص : ٥٢ ــ ٥٥ .

(٢) القصص : ٨٥ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى (١٠ : ١٢٧) .

(٤) تفسير القرطبى (١٣ : ٣٢١) .

ولكنى أقول معقبا على هذا بأن التعريف الجامع المانع للمكى وللمدنى هو (أنه ما نزل قبل الهجرة فهو مكى وما نزل بعد الهجرة فهو مدنى) .

فهنا اعتبرنا الزمان مع مراعاة أن الحد الفاصل بين المكى والمدنى هو وصول الرسول ﷺ إلى المدينة . إذن فما نزل فى طريق الهجرة فهو مكى فالآية (إن الذى فرض) مكية .

ذكر أبو عمرو عثمان بن سعيد الدارمى[1] بإسناده إلى يحيى بن سلام قال : (ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى ﷺ المدينة فهو من المكى وما نزل على النبى ﷺ فى أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنى)[2] .

فعليه فالآية نزلت قبل أن يصل المصطفى ﷺ إلى المدينة فهى مكية . والله أعلم ..

ويلى هذه السورة سورة العنكبوت وقد سبق أن فصلت القول فيها (ص ٧٤) من بحثنا هذا .

* * *

---

(١) وهو صاحب المسند الكبير ، أخذ الفقه عن البويطى والعربية عن ابن الأعرابى والحديث عن ابن المدينى . توفى سنة ٢٨٠ هـ . شذرات الذهب (٢ : ١٧٦) .

(٢) البرهان للزركشى (١ : ١٨٨) ، الاتقان (١ : ٩) .

وقد ذكر السيوطى أن الذى أخرج الأثر هو عثمان بن سعيد الرازى وذكر الزركشى في البرهان أنه الدارمى والصواب أنه الدانى فإنه هو الذى يكنى أبا عمر أما الدارمى فكنيته أبو سعيد (والله أعلم) .

(٢٠) سـورة لقمـان

وهى من السوره المكية واختلف فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] .

قال ابن كثير : روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود قال ابن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة يا محمد أرأيت قولك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[٢] إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ « كلاكما » قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال رسول الله ﷺ (إنها فى علم الله قليل وعندكم من ذلك مايكفيكم) وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) ثم عقب ابن كثير هكذا روى عن عكرمة وعطاء بن يسار وهذا يقتضى أن هذه الآية مدنية لا مكية والمشهور أنها مكية والله أعلم [٣] .

قلت : والذين قالوا بمدنية الآية لأن اليهود جاء ذكرهم فى القصة المذكورة فى سبب نزول الآية . ولا يمنع أن يكون اليهود أتوا إلى مكة وسألوا الرسول ﷺ عن قوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

فلذلك أرجح مكية الآية والله أعلم .

---

(١) لقمان : ٢٧ .

(٢) الاسراء : ٨٥ .

(٣) تفسير ابن كثير (٣ : ٤٥١) ، راجع أسباب النزول للواحدى (ص ٢٣٣) .

(٢١) سورة السجدة

سورة السجدة من السور المكية حيث إنها افتتحت بحروف المعجم وتضمنتها فى الآية الخامسة عشرة سجدة .

قال الألوسى فى مقدمة تفسيره للسورة : (أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله ، وفى رواية أخرى عن الحبر استثناء وأخرج النحاس عنه رضى الله عنه أنه قال : نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات (أفمن كان مؤمنا) إلى تمام الآيات الثلاث[١] .. وروى مثله عن مجاهد والكلبى . واستثنى بعضهم أيضا آيتين أخريين وهما قوله تعالى (تتجافى جنوبهم)[٢] واستدل عليه ببعض الروايات فى سبب النزول وستطلع على ذلك إن شاء الله واستبعد استثناؤهما لشدة ارتباطهما بما قبلهما)[٣] .

أما قوله ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ .

فقد اختلف العلماء فى المراد من الصلاة التى تتجافى جنوبهم لأجلها .

قال القرطبى : (وفى الصلاة التى تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال :

أحدها : التنفّل بالليل ، قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس .. ويدل عليه قوله تعالى : ﴿**فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين**﴾ لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفي . والله أعلم .

---

(١) السجدة : ١٨ — ٢٠ .

(٢) السجدة : ١٦ .

(٣) تفسير الالوسى (٢١ : ١١٥) .

وفى قيام الليل أحاديث كثيرة منها حديث معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال له : (ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار وصلاة الرجل فى جوف الليل قال ثم تلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ـــ حتى بلغ ـــ يعملون)[1] .

أخرجه أبو داود الطيالسى[2] فى مسنده والقاضى اسماعيل بن اسحاق وأبو عيسى الترمذى[3] . وقال فيه حديث حسن صحيح .

الثانى : صلاة العشاء التى يقال لها العتمة ، قاله الحسن وعطاء . وفى الترمذى عن أنس بن مالك أن هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) نزلت فى انتظار الصلاة التى تدعى العتمة . قال هذا حديث حسن صحيح غريب[4] .

الثالث : التنفل ما بين المغرب والعشاء ، قاله قتادة وعكرمة .

روى أبو داود[5] عن أنس بن مالك أن هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) قال : كانوا يتنفلون ما بين المغرب والعشاء .

الرابع : قال الضحاك : وتجافى الجنب هو أن يصلى الرجل العشاء والصبح فى جماعة .

قلت : هذا قول حسن . وهو يجمع الأقوال بالمعنى ..[6] .

والذين قالوا بمدنية الآية احتجوا بما أخرجه البزار بسنده . قال حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر حدثنا عبد الحميد بن سلمان

---

(١) السجدة : ١٦ ـــ ١٧ .

(٢) مسند أبى داود الطيالسى ص ٧٦ نسخة مصورة عن طبعه دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد ط.الأولى سنة ١٣٢١ هـ .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ١١ ـــ ١٢) .

(٤) سنن الترمذى (٥ : ٣٤٦) .

(٥) سنن أبى داود (١ : ٣٠٤) .

(٦) تفسير القرطبى (١٤ : ١٠٠) .

حدثنى مصعب عن زيد بن أسلم عن أبيه قال بلال لما نزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية كنانجلس فى المجلس[1] وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)[2] .

فالحديث ضعيف فيه عبد الله بن شبيب .

قال الذهبى : عبد الله بن شبيب (أبو سعيد الربعى) اخبارى علامة لكنه واه قال أبو أحمد الحاكم : ذاهب الحديث[3] .

وبما أخرجه الطبرى قال حدثنى محمد بن خلف قال ثنا يزيد بن حيان قال : حدثنا الحارث بن وجيه الراسبى قال : ثنا مالك بن دينار عن أنس بن مالك : أن هذه الآيات نزلت فى رجال من أصحاب النبى ﷺ كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)[4].

فالحديث أيضا ضعيف فيه الحارث بن وجيه الراسبى . قال ابن حجر فى تهذيب التهذيب : قال الدورى وغيره عن ابن معين ليس بشىء وقال البخارى فى حديثه بعض المناكير . وكذا قال أبو حاتم.وزاد ضعيف الحديث..[5] .

وبما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى ﷺ فنزلت (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)[6] . الآية .

---

(١) وفى لباب النقول للسيوطى (فى المسجد) (ص ١٧٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ : ٤٦٠) .

(٣) ميزان الاعتدال لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (٢ : ٤٣٨) ط/دار المعرفة ـ بيروت .

(٤) تفسير الطبرى (٢١ : ١٠٠) .

(٥) تهذيب التهذيب (٢ : ١٦٢) .

(٦) الدر المنثور للسيوطى (٥ : ١٧٤) .

قلت : والذى أرجحه أن المراد من الصلاة التى تتجافى جنوبهم هى صلاة قيام الليل ويؤيده ما أخرجه الطبرى بسنده عن الحسن (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) قال : قيام الليل[١] .

وما أخرجه الطبرى عن مجاهد قوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) يقومون يصلون الليل[٢] .

وقد ذكر الطبرى عدة أقوال فى المراد من الآية ثم قال بعد الانتهاء من سردها (الصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شغلا منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفا وطمعا ، وذلك نبو جنوبهم عن المضاجع ليلا ، لأن المعروف من وصف الواصف رجلا بأن جنبه نبا عن مضجعه ، إنما هو وصف منه له بأنه جفا عن النوم فى وقت منام الناس المعروف ، وذلك الليل دون النهار . وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصفته بذلك ، يدل على ذلك قول عبد الله بن رواحة الأنصارى[٣] رضى الله عنه فى صفة النبى ﷺ :

(يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع)[٤]

قلت : ومن المعروف أن قيام الليل كان فريضة بمكة . وذلك بنزول سورة المزمل وهى مكية بلا خلاف . وقد أشار الحديث الطويل الذى أخرجه مسلم فى صحيحه : قال سعد بن هشام بن عامر[٥] مخاطبا السيدة عائشة رضى الله عنها :

---

(١) تفسير الطبرى (٢١ : ١٠١) .

(٢) تفسير الطبرى (٢١ : ١٠١) .

(٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن ثعلبة الأمير السعيد الشهيد أبو عمرو الانصارى الخزرجى البدرى النقيب الشاعر .
سير اعلام النبلاء للامام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى (١ : ٢٣٠) . مؤسسة الرسالة ، ط/١بيروت .

(٤) تفسير الطبرى (٢١ : ١٠٢) .

(٥) ترجمة : سعد بن هشام بن عامر الأنصارى المدنى ابن عم أنس .. وذكر البخارى أنه قتل بأرض مكران على أحسن أحواله . قلت : قال أبو بكر الحازمى (مكران) بضم الميم بلدة بالهند .. باختصار . تهذيب التهذيب (٣ : ٤٨٣) لابن حجر العسقلانى .

(ثم قلت : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ فقالت : ألست تقرأ : يأيها المزمل . قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا . وأمسك الله خاتمتها إثنى عشر شهرا فى السماء حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة[1] .. الحديث .

فقوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية .. مكية تبعا للسورة وليس هناك أثر أو دليل على مدنيتها .

أما قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَايَسْتَوُون ﴾[2] .

فقد ذكرت بعض الآثار أن هذه الآية مدنية . والصواب أن الآية مكية عامة والآثار التى وردت بشأنها ضعيفة .

فقد أخرج الطبرى بسنده فقال : حدثنا ابن حميد ، قال ثنا سلمة ابن الفضل قال : ثنى ابن إسحاق ، عن بعض رجاله عن عطاء بن يسار قال : نزلت بالمدينة فى على بن أبى طالب ، والوليد بن عقبة بن أبى معيط ، كان بين الوليد وبين على كلام فقال الوليد بن عقبة : أنا أبسط منك لسانا ، وأحد منك سنانا ، وأرد منك للكتيبة فقال على : اسكت فإنك فاسق فأنزل الله (أفمن كان مؤمنا)[3] .

فالحديث فيه مجاهيل . فمن هم أصحابه الذين أخذ منهم ابن اسحاق ؟ وهو يدلس

ثم إن هناك رواية تشير إلى أن الآية نزلت بسبب على بن أبى طالب والوليد ابن عقبة بن معيط ورواية أخرى أن الآية نزلت فى على بن أبى طالب

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (٦ : ٢٦) .

(٢) السجدة : ١٨ .

(٣) تفسير الطبرى (٢١ : ١٠٧) .

وعقبة بن أبي معيط . وفى هذا اضطراب[1] . والذى أحدث الالتباس هى كلمة (فاسق) الموجودة في الأثر والآية .

قوله تعالى ﴿ يأَيُّها الّذينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبَيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِين ﴾[2] فقد قيل إنها نزلت فى الوليد ابن عقبة بن أبي معيط عندما بعثه النبى ﷺ إلى بنى المصطلق ..[3] . وعلى أثر الحادثة سمى الوليد فاسقا .

فعليه فالآية مكية تبعا للسورة وهى عامة. فكل كافر جاحد مكذب لله ورسوله لا يستوى مع المطيع لله ورسوله المصدق بكل ما جاء به الشرع فيما ينالهما من الجزاء والحساب يوم القيامة .

قال الالوسى : بعد ذكر بعض الروايات الضعيفة والأقوال على وجود بعض الآيات المدنية فى السورة ، قال : (وأستبعد استثناؤهما لشدة ارتباطهما بما قبلهما)[4] .

وأخيراً فإن سورة السجدة كلها مكية . والله أعلم ..

* * *

---

(١) أنظر لباب النقول للسيوطى (ص ١٧٠) .
(٢) سورة الحجرات : ٦ .
(٣) تفسير القرطبى (١٦ : ٣١١) .
(٤) تفسير الالوسى (٢١ : ١١٥) .

(٢٢) سورة سبإ

وهى من السور المكية إلا أن بعض المفسرين استثنى منها قوله ﴿ **وَيَرَى الّذينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الّذى أُنْزِلَ إلَيْكَ مِن رَّبكَ هُوَ الحَقَّ وَيَهْدِى إلَى صِرَاط العَزِيزِ الحَمِيد**﴾[١] .

قال السيوطى: (سورة سبأ استثنى منها ﴿**ويرى الذين أوتوا العلم**﴾ الآية وروى الترمذى[٢] عن فروة بن مسيك المرادى[٣] قال : أتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله لا أقاتل من أدبر من قومى .. الحديث وفيه أنزل فى سبإ ما أنزل فقال رجل يا رسول الله : وما سبإ .. الحديث (قال) ابن الحصار : هذا يدل على أن هذه القصة مدنية لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع . (قال) ويحتمل أن يكون قوله وأنزل حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته)[٤] .

قلت : وقوله (ويحتمل أن يكون قوله«وأنزل»حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته) هو الذى أرجحه وعليه فالآية مكية تبعا للسورة وهى عامة .

قال القرطبى : سورة سبإ مكية فى قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها)[٥] .

وقال الطبرى : فى تفسيره للآية (وعنى بالذين أوتوا العلم : مسلمة أهل

---

(١) سبإ : ٦ .

(٢) سنن الترمذى (٥ : ٣٦١) .

(٣) فروة بن مسيك بن غطيف المرادى ثم القطيعى له صحبة . أسلم سنة تسع وسكن الكوفة . روى عن النبى ﷺ وقد استعمله عمر بن الخطاب على صدقات مذحج وكناه ابن أبى خيثمة . أنظر تهذيب التهذيب (٨ : ٢٦٥) .

(٤) الاتقان للسيوطى (ص ١٦) .

(٥) القرطبى (١٤ : ٢٥٨) .

الكتاب كعبد الله بن سلام ونظرائه الذين قد قرأوا كتب الله التى أنزل قبل الفرقان وقيل : عنى بالذين أوتوا العلم : أصحاب رسول الله ﷺ . وعلى ذلك فالأدلة على مدنية الآية يتطرق إليها الإحتمال ولذلك بطل بها الإستدلال .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِكَ هُوَ الْحَقّ** ﴾ قال : أصحاب محمد[1] .

وهذا الذى أرجحه أن الآية عامة .

وكذلك نلاحظ سياق الآيات التى قبلها والتى بعدها عن المشركين وهى مترابطة فى معانيها وموضوعاتها .

قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ . لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِجْزٍ أَلِيمٍ** ﴾ وهم المشركون . ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾[2] (وهم المشركون) .

وأخيراً نجد ابن كثير أطلق على السورة أنها مكية ولم يتعرض للآية المذكورة بأنها مدنية . فعليه فالسورة مكية .

* * *

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢ : ٦٢) .

(٢) سبإ من آية ٣ ــ ٧ .

(٢٣) سورة يسٓ

وهى من السور المكية ولقد استثنى منها قوله تعالى ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾(١) .

قال القرطبى فى مقدمة تفسيره للسورة : (وهى مكية بإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية إلا أن فرقة قالت إن قوله تعالى ﴿ **ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾ نزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ ...(٢) .

واستدلوا لمدنية الآية بما أخرجه الترمذى بسنده قال : حدثنا محمد بن وزير الواسطى حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان الثورى عن أبى سفيان عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد . فنزلت هذه الآية ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ** ﴾ فقال رسول الله ﷺ إن آثاركم تكتب فلم ينتقلوا .

قال : هذا حديث حسن غريب من حديث الثورى وأبو سفيان هو طريف السعدى(٣) . قال ابن حجر : طريف بن شهاب وقيل ابن سعد بن سفيان . أبو سفيان السعدى الأشل ويقال الأعم وقال فيه البخارى العطاردى روى عن أبى نضرة العبدى .. قال أحمد ليس بشىء ولا يكتب حديثه وقال ابن معين ضعيف الحديث وقال أبو حاتم ضعيف الحديث ليس بالقوى وقال البخارى ليس بالقوى عندهم وقال أبو داود وليس بشىء وقال مرة واهى الحديث . وقال النسائى متروك

---

(١) سورة (يسٓ) : ١٢ .

(٢) تفسير القرطبى (١٥ : ١) م ١٨ .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ٣٦٣) . أنظر تحفة الأحوذى (٦ : ٦٤) .

الحديث .. وقال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ضعيف الحديث[1] .

فالحديث فى سنده أبو سفيان السعدي وهو ضعيف . وهو (طريف السعدى) .

قلت : ويؤول الحديث عند قوله (فنزلت هذه الآية) بعبارة (فتلا هذه الآية) والله أعلم .

ويؤيده ماذهبت إليه الرواية الصحيحة فى صحيح مسلم .

أخرج مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد ، قال : والبقاع خالية ، قال فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : « يابنى سلمة دياركم تكتب آثاركم،دياركم تكتب آثاركم » . فقالوا : ماكان يسرنا انا كنا تحولنا[2] .

فرواية مسلم ذكرت الحكاية مطلقة . ولم يذكر فيها أن هذه الحكاية كانت سببا فى نزول الآية .

وحيث ان رواية الترمذى ضعيفة ورواية مسلم خالية من الآية فإن هذه الآية مكية وبالتالى فالسورة مكية كلها .

وإذا تأملنا سياق الآية مع ماقبلها من الآيات نجد أن الآيات مترابطة كالحلقة يشد بعضها بعضا . وهى أشبه بالبناء الواحد المتكامل المترابط فى أجزائه وقد أفصح عن ذلك الرازى فى تفسيره للآية .

فقال فى الترتيب (أى فى ترتيب الآيات) وجوه :

(**أحدها**) : أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التى يصير بها المكلف مؤمنا مسلما ذكر أصلا آخر وهو الحشر .

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (٥ : ١١ — ١٢) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى (٥ : ١١٩) .

(**وثانيهما**) : وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله ﴿ **فبشره بمغفرة** ﴾ ولم يظهر ذلك بكماله فى الدنيا فقال إن لم ير فى الدنيا فالله يحيى الموتى ويجزى المنذرين ويجزى المبشرين .

(**وثالثها**) : أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر مايؤكده وهو (إحياء الموتى)[1] أ.هـ .

وعليه فالآية مكية كبقية السورة . والله أعلم .

---

(١) تفسير الرازى (٢٦ : ٤٨) .

(٢٤) سـورة الزمـر

وهـى من السور المكيـة ، ولقـد استثنـى منها قوله تعـالى ﴿ قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[١] .

قال الزركشى : (سورة الزمـر مكيـة غير « قل ياعبـادى الذيـن أسرفـوا على أنفسهم » الآية)[٢] .

قلت : أخـرج البخـارى بسنـده عن يعلى : أن سعيـد بن جبير أخبره عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنـوا وأكثروا فأتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو اليـه لحسن لو تخبرنـا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ﴾[٣]، ونزل - ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾[٤] .

وقد سبق أن بينت فى سورة الفرقان أن قوله تعالى ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلـٰهـاً آخـر ولا يقتلون النفس التي حـرم الله إلا بـالحق** ﴾ آيـة ٦٨، انها مكيـة وذلك لما ورد فى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم بسنده عن ابن عباس قال (نزلت هذه الآية بمكة) «والذين لا يدعون مع الله إلـٰهـاً آخر . **إلى قـوله مهـانا**» فقال المشركون ومايغنى عنا الاسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنـا النـفس التـى حرم الله

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) البرهان للزركشى (١ : ٢٠٢) .

(٣) الفرقان : ٦٨ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٣ : ١٧٠) .

وآتينا الفواحش فأنزل الله ﴿ **إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً** ﴾ إلى آخر الآية قال فأما من دخل فى الاسلام وعقله ثم قتل فلا توبة له)[1] .

فعليه فقوله ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا** ﴾ وقوله ﴿ **والذين لا يدعون** ﴾ قد نزلتا معا فى مكة كما نصت رواية البخارى السابقة (فنزل ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلـهاً آخر** ﴾) ونزل قوله ﴿ **قل ياعبادى الذين اسرفوا** ﴾ وكان ذلك قبل الهجرة .

وذكر القرطبى فى تفسيره وابن حجر فى شرحه لصحيح البخارى ورواه ابن اسحق فى السيرة عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة ، اتعدت انا وهشام بن العاصى بن وائل السهمى وعياش بن أبى ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضاة[2] بنى غفار . وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحبس عنا هشام وإذا به قد فتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة وكانوا هم أيضا يقولون هذا فى أنفسهم ، فأنزل الله عز وجل فى كتابه ﴿ **قُلْ ياعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحمَةِ اللَّهِ** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِين** ﴾[3] .

قال عمر : فكتبتها بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت علىّ خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله ﷺ[4] .

ويوفق بين الحديثين بأنه قد تكون الآية مما تكرر نزوله . والله أعلم .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (١٨ : ١٥٩) .

(٢) الأضاة أى الغدير .

(٣) الزمر من آية ٥٣ ـــ ٦٠ .

(٤) تفسير القرطبى (١٥ : ٢٦٧ ـــ ٢٦٨) ، فتح البارى (١٠ : ١٧٠) .

(٢٥) سـورة غـافر

وهـى أول سورة فى الحواميم . قال الألـوسى : (تسمـى سورة غافـر وسورة الطول وهى كما روى عن ابن عباس وابن الـزبير ، ومسروق وسمرة بن جنـدب مكيـة وحكـى ابـن حيـان الاجماع على ذلك . وعـن الحسن أنها مكيـة إلا قولـه تعـالى ﴿ وسبـح بحمـد ربك ﴾[1] لأن الصلـوات نزلت بالمدينــة وكانت الصلاة بمكــة ركعتين من غير توقيت وأنت تعلم أن الحق فى قول الأكثرين أن الخمس نزلت بمكة على أنه لا يتعين إرادة الصلاة بالتسبيح فى الآية وقيل : هى مكيـة إلا قولـه تعالى ﴿ إن الذيـن يجادلـون ﴾[2] الآية فإنها مدنيـة فقـد أخـرج ابـن أبى حاتم عن أبى العاليـة وغيره أنها نزلت فى اليهود لما ذكـروا الدجـــال . وهـــذا ليس بنص على أنها نزلت بالمدينـة . قال شيـخ الاسلام ابـن تيميـة : قولهم نزلت الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول ويـراد به تارة أن ذلك داخـل فى الآية . وإن لم يكـن السبب كما تقـول عنـى بهذه الآية كذا ، وقـال الـــزركشى فى البرهـــان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت الآية فى كذا فإنه يريد أنها تتضمـن هذا الحكـم . لا أن هذا كان السبب فى نزولها . فهـو من جنس الاستـدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع[3] .

قلت : فعليه فالسورة مكيـة وقـد عقب ابـن كثير على الذيـن قالـوا بمدنيـة الآية قولـه تعـالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَـاتِ اللَّـهِ بِغَيْـرِ سُلْطَـانٍ أَتَاهُمْ** ﴾ الآية ..

قال كعب وأبـو العاليـة نزلت هذه الآية فى اليهود ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ**

---

(١) غافر : ٥٥ والآية هى ﴿ فاصبر إن وعـد الله حق واستغفـر لذنبك وسبـح بحمــد ربك بالـــعشى والابكار ﴾ .

(٢) غافر : ٥٦ والآية هي ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم ان في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير ﴾ .

(٣) تفسير الألوسى (٢٤ : ٣٩) .

فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِى صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾.

قال أبو العالية : وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله تعالى لنبيه ﷺ آمرا له أن يستعيذ من فتنة الدجال ولهذا قال عز وجل ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ .

قال ابن كثير : وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبى حاتم فى كتابه والله سبحانه وتعالى أعلم[1] . ا.هـ .

فعليه فالسورة كلها مكية .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ٨٤) .

(٢٦) سـورة الشـورى

وهى من السور المكية ولقد استثنى منها أربع آيات قوله ﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فى الْقُرْبَى** ﴾[١] إلى قوله ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأَرْضِ ولكن يُنَزِّلُ بقدرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِير** ﴾[٢] .

قال القرطبى : (مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾ الى آخرها وهى ثلاث وخمسون آية)[٣] ا.هـ .

وآخرها قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوا فِى الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدرٍ مَا يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِير** ﴾ .

أما الآيات من قوله ﴿ **ذَلِكَ الَّذِى يُبشِّرُ اللَّهُ عِبَادَه الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِف حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُور** ﴾[٤] الآيات فقد أشار القرطبى وغيره إلى مدنيتها ولم أجد أثراً يؤيد ما أشاروا إليه بل وجدت خلاف ذلك في الصحيح ، فقد أخرج البخارى بسنده عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت طاووسا ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه سئل عن قوله — إلا المودة فى القربى — فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد ﷺ ، فقال ابن عباس : عجلت ، أن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة[٥] .

---

(١) الشورى : ٢٣ .

(٢) الشورى : ٢٧ .

(٣) القرطبى (١٦ : ١) .

(٤) الشورى : ٢٣ .

(٥) صحيح البخارى بشرح فتح البارى (١٠ : ١٨٥) وسنن الترمذى (٥ : ٣٧٧) وكذلك رواه الامام أحمد فى مسنده وبهامشه الفتح الربانى (١٨ : ٢٦٥) ، تفسير الطبرى (٢٥ : ٢٣) .

قال ابن كثير : والحق تفسير الآية بما فسرها به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كما رواه البخارى[1] .

والذين قالوا بمدنية الآية احتجوا بحديث ذكره الواحدى فى أسباب النزول قال الواحدى : قوله تعالى : ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾ قال ابن عباس : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت تنوبه نوائب وحقوق وليس فى يده لذلك سعة ،فقال الأنصار : إن هذا الرجل قد هداكم الله تعالى به وهو ابن اختكم وتنوبه نوائب وحقوق وليس فى يده لذلك سعة ، فاجمعوا له من أموالكم ما لا يضركم فأتوا به ليعينه على ماينوبه ففعلوا ، ثم أتوا به فقالوا : يارسول الله إنك ابن أختنا وقد هدانا الله تعالى على يديك وتنوبك نوائب وحقوق وليست لك عندها سعة فرأينا أن نجمع لك من أموالنا فنأتيك به فتستعين على ما ينوبك وهو هذا فنزلت هذه الآية [2] .

قال ابن حجر : بعد أن ذكر الرواية السابقة :

(وهذه من رواية الكلبى ونحوه من الضعفاء) .

ثم قال : والأقوى فى سبب نزولها عن قتادة : قال المشركون : لعل محمدا يطلب أجرا على مايتعاطاه . فنزلت[3] .

قال ابن كثير رحمه الله : (وذكر نزولها فى المدينة فيه نظر لأن السورة مكية وليس يظهر بين هذه الآية وهذا السياق مناسبة والله أعلم)[4] .

قلت : فالآية هى والتى تليها من الآيات الثلاث التى نص القرطبى على مدنيتها هى آيات مكية تبعا للسورة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ١١٢) .

(٢) أسباب النزول للواحدى بتحقيق الأستاذ سيد صقر (٣٩٥) .

(٣) فتح البارى (١٠ : ١٨٤ — ١٨٥) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤ : ١١٢) .

أما قوله تعالى ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لبغوا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾[1]

قال القرطبى (قيل إنها نزلت فى قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق وقال خباب بن الأرت[2] : فينا نزلت ، نظرنا الى أموال بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع فتمنيناها ، فنزلت[3] .

وأخرج الحاكم بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال :ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعم ان أدناهم منزلة يشرب من ماء الفرات ويجلس فى الظل ويأكل من البر وإنما أنزلت هذه الآية فى أصحاب الصفة ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾ .
(ذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الدنيا) .

قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وذكره الذهبى ورمز له بـ (خ . م) .

قلت : فالآية مدنية . والله أعلم .

---

(١) الشورى : ٢٧ .

(٢) خباب بن الارت بتشديد المثناة ابن جندلة بن سعد بن خزيمة بن كعب بن سعد بن زيد مناه بن تميم التيمى ويقال الخزاعى أبو عبد الله . سبى فى الجاهلية فبيع بمكة فكان مولى ام انمار الخزاعية وقيل غير ذلك ثم حالف بنى زهرة وكان من السابقين الأولين .. وروى الباردوى أنه أسلم سادس ستة وهو أول من أظهر اسلامه وعُذِّبَ عَذاباً شديداً لأجل ذلك .. شهد المشاهد كلها وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين جبر بن عتيك روى عن النبى ﷺ .. مات فى الكوفة سنة ٣٧ هـ وعاش ٦٣ سنة . باختصار من الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (١ : ٤١٦) .

(٣) تفسير القرطبى (١٦ : ٢٧) ، أسباب النزول للواحدى تحقيق السيد صقر (ص ٣٩٥ ـــ ٣٩٦) .

(٢٧) سـورة الزخـرف

سورة الزخرف من السور المكية وقد نقل القرطبى فى تفسيره الإجماع على مكيتها فقال : (سورة الزخرف : مكية باجماع) . وقال مقاتل : إلا قوله تعالى : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا** ﴾[١] .

قال الطبرى : اختلف أهل التأويل فى معنى قوله ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رسُلِنَا** ﴾ من الذين أمر رسول الله ﷺ بمسألتهم ذلك .

فقال بعضهم : الذين أمر بمسألتهم ذلك رسول الله ﷺ ، مؤمنو أهل الكتابين : التوراة ، والانجيل ، واستشهد بقراءة عبد الله بن مسعود للآية .

فأخرج الطبرى بسنده عن مجاهد قال : فى قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا** ﴾[٢] .

قال ابن كثير : (وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى عن ابن مسعود رضى الله عنه . وهذا كأنه تفسير لا تلاوة والله أعلم)[٣] .

وقال آخرون : بل الذين أمر بمسألتهم ذلك الأنبياء الذين جمعوا له ليلة أسرى به ببيت المقدس . أخرج الطبرى بسنده قال ابن وهب : قال ابن زيد فى قوله ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك** ﴾ الآية قال : جمعوا له ليلة أسرى به ببيت المقدس ، فأمهم ، وصلى بهم ، فقال الله له : سلهم ، قال فكان أشد ايمانا ويقينا بالله وبما جاءه من الله أن يسألهم .. الخ) .

قال الطبرى : وأولى القولين بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال عنى به : سل مؤمنى أهل الكتابين[٤] .

قلت : فسورة الزخرف مكية كلها .

---

(١) تفسير القرطبى (١٦ : ٦١) الآية المذكورة رقم : ٤٥ .
(٢) تفسير الطبرى (٢٥ : ٧٧) .
(٣) تفسير ابن كثير (٤ : ١٢٩) .
(٤) تفسير الطبرى (٢٥ : ٧٨) .

(٢٨) سورة الجاثيـة .

وهى من السور المكية . قال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وجابر وعكرمة وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية هى ﴿ **قُل لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ** ﴾[١] نزلت بالمدينة فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكره الماوردى . وقال المهدوى والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ** ﴾ ثم نسخت بقوله ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** ﴾[٢] . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف[٣] .

وذكر الواحدى ان الآية نزلت فى عمر مع عبد الله بن أبى فى غزوة بنى المصطلق .

قوله تعالى ﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله** .. ﴾ الآية أخرج الواحدى قال ابن عباس فى رواية عطاء :

يريد عمر بن الخطاب خاصة،وأراد بالذين لا يرجون أيام الله عبد الله بن أبى وذلك أنهم نزلوا فى غزوة بنى المصطلق على بئر يقال لها المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء ، فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ما حسبك ؟ قال غلام عمر قعد على فم البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى وقرب أبى بكر ، وملأ لمولاه فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، فبلغ قوله عمر رضى الله عنه فاستملّ سيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله

---

(١) الجاثية : ١٤ .

(٢) التوبة : ٥ .

(٣) تفسير القرطبى (١٦ : ١٥٦) .

هذه الآية[1] .

وأخرج الواحدى من طريق الثعالبى عن ابن عباس قال :

لما نزلت هذه الآية ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ قال يهودى بالمدينة يقال له : فنحاص : احتاج رب محمد (قال) : فلما سمع عمر بذلك استملّ على سيفه وخرج فى طلبه ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ فقال : إن ربك يقول لك : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) .

واعلم أن عمر قد اشتمل سيفه وخرج فى طلب اليهودى ، فبعث رسول الله ﷺ فى طلبه ، فلما جاءه قال : يا عمر ضع سيفك قال : صدقت يا رسول الله أشهد أنك أرسلت بالحق . فإن ربك عز وجل يقول : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ﴾ قال : لا جرم والذى بعثك بالحق لا ترى الغضب فى وجهى[2] .

قلت : فهذان السببان فى جملتهما يشيران إلى أن الآية مدنية والذى عليه المفسرون أن الآية منسوخة .

فقد أخرج الطبرى عن مجاهد (لا يرجون ايام الله) قال : لا يبالون نعم الله . وهذه الآية منسوخة بأمر الله بقتال المشركين . وإنما قلنا هى منسوخة لإجماع أهل التأويل على أن ذلك كذلك[3] .

وقال ابن كثير فى تفسيره للآية : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ﴾ . أى ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا فى ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد . هكذا

---

(١) أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ السيد صقر (ص ٣٩٩) ، تفسير القرطبى (١٦ : ١٦١) .

(٢) أسباب النزول للواحدى (ص ٤٠٠) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٣) تفسير الطبرى (٢٥ : ١٤٤) .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة[1] .

فعليه فالذى أرجحه أن الآية مكية تبعا للسورة . فسورة الجاثية مكية كلها . والله أعلم .

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ١٤٩) .

(٢٩) سورة الاحقاف

سورة الأحقاف من السور المكية وهى خاتمة الحواميم . ولقد استثنى منها قوله تعالى ﴿ **قُل أرَأَيْتُم إنْ كَانَ مِنْ عِنْد الله وَكَفَرْتُم بِهِ وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[١] .

قال الزركشي (الحواميم كلها مكيات ، غير آية فى الاحقاف نزلت فى عبد الله بن سلام[٢]) ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به** ﴾[٣] .

قال القرطبى فى مقدمة تفسيره للسورة (مكية في قول جميعهم وهى أربع وخمسون آية وقيل خمس)[٤] .

قال ابن كثير فى تفسيره للآية : ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِى إسْرَائيل** ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام رضى الله عنه وغيره . فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه وهذه كقوله تبارك وتعالى ﴿ **وَإذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إنه الْحَق مِنْ رَبّنَا إنَّا كنَا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمين** ﴾[٥] وقال ﴿ **إنَّ الّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذَا يُتْلَى عَلَيْهِم يَخِرّونَ لِلأذْقَانِ سُجّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبّنَا إنْ كَانَ وَعْدُ رَبّنا لَمَفْعُولاً** ﴾[٦] .

---

(١) الاحقاف : ١٠ .

(٢) عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ذرية يوسف النبى عليه السلام حليف النوافل من الخزرج الاسرائيلى ثم الانصارى .. يقال كان اسمه الحصين فغيره النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجزم بذلك الطبرى .. أسلم أول ما قدم النبى ﷺ المدينة قال الطبرى مات فى قول جميعهم بالمدينة سنة ٤٣ هـ .

باختصار من الاصابة فى تمييز الصحابة (٢ : ٣٢٠) .

(٣) البرهان (١ : ٢٠٢) .

(٤) القرطبى (١٦ : ١٧٨) .

(٥) القصص : ٥٣ .

(٦) الاسراء : ١٠٧ — ١٠٨ .

قال مسروق والشعبى ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية وإسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه كان بالمدينة رواه عنهما ابن جرير وابن أبى حاتم واختاره ابن جرير[1] .

قلت : وهذا الذى ذهب إليه إبن كثير هو الذى أرجحه .

والذى أحدث الاختلاف حول مكية الآية الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى فى مناقب عبد الله بن سلام رضى الله عنه :

حدثنا عبد الله بن يوسف قال : سمعت مالكا يحدث عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام قال : وفيه نزلت هذه الآية . وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله .. الآية .. إلى آخر الحديث[2] .

وقد أخرج الحديث بنصه مسلم فى صحيحه[3] .

وقد استنكر الشعبى فيما رواه بن حميد عن النضر بن شميل عن ابن عون عنه نزولها فى عبد الله بن سلام . لأنه إنما أسلم بالمدينة والسورة مكية . فأجاب ابن سيرين بأنه لا يمتنع أن تكون السورة مكية وبعضها مدنى وبالعكس وبهذا جزم أبو العباس فى مقامات التنزيل ، فقال الاحقاف مكية إلا قوله ـــ وشهد شاهد ـــ إلى آخر الآيتين . انتهى .. وقد جمع ابن حجر رحمه الله بين الأقوال بقوله :

ولا مانع أن تكون جميعها مكية وتقع الاشارة فيها إلى ما سيقع بعد الهجرة من شهادة عبد الله بن سلام[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ١٥٦) .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٨ : ١٢٩) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (١٦ : ٤١) .

(٤) فتح البارى (٨ : ١٢٩ ـــ ١٣٠) .

(٣٠) سورة (قٓ)

سورة (قٓ) من السور المكية المبتدئة بحرف المعجم .

واستثنى منها قوله تعالى ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ** ﴾(١) فقد وردت الآثار فى أن نزولها بسبب سؤال اليهود عن الأيام الستة .

أخرج الطبرى بسنده حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران ، عن ابى سنان عن أبى بكر قال جاءت اليهود إلى النبى ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق فى هذه الأيام الستة ؟ فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء ، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات ، يعنى من يوم الجمعة وخلق فى أول الثلاث الساعات الآجال ، والثانية الآفة ، وفى الثالثة آدم ، قالوا : صدقت إن أتممت ، فعرف النبى ﷺ ما يريدون ، فغضب فأنزل الله ﴿ **وَمَا مَسنا مِن لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ** ﴾(٢) .

قال القرطبى : قال قتادة والكلبى : هذه الآية نزلت فى يهود المدينة ، زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فجعلوه راحة فأكذبهم الله تعالى فى ذلك(٣) .

قال ابن كثير : قال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه(٤) .

---

(١) آية رقم : ٣٨ .

(٢) تفسير الطبرى (٢٦ : ١٧٨) المستدرك للحاكم (٢ : ٤٥٠) أسباب النزول للواحدى (ص ٢٢٠) بتحقيق السيد صقر ، لباب النقول للسيوطى (ص ٢٠٠) .

(٣) تفسير القرطبى (١٧ : ٢٤) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤ : ٢٢٩) .

قلت : والذى يظهر لى (والله أعلم) أن الآية مكية تبعا للسورة فإن الآثار الواردة فيها ضعيفة ومن تلك الآثار ما رواه الواحدى بسنده عن أبى سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس أن اليهود أتت النبى ﷺ ، فسألت عن خلق السموات والأرض فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء (وما فيهن من المنافع) وخلق يوم الأربعاء (الشجر والماء) وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش . قالوا : قد أصبت لو أتممت ثم استراح فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا ، فنزلت ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فى سِتةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوب . فَاصْبِر عَلَى مَا يقولُون** ﴾ .

قلت : هذا السند فيه (أبو سعد البقال) وهو سعيد بن المرزبان العبسى كما فى تهذيب التهذيب . قال : سعيد بن المرزبان العبسى (أبو سعد البقال الكوفى الأعور مولى حذيفة . روى عن أنس وأبى وائل وأبى عمرو الشيبانى وعكرمة ..

قال أحمد بن أبى سهم عن ابن معين ليس بشىء[1] وقال عمرو بن على ضعيف الحديث متروك الحديث وقال أبو زرعة لين الحديث مدلس وقال البخارى منكر الحديث . وقال أبو حاتم لا يحتج بحديثه)[2] .

فالحديث الذى رواه الواحدى ضعيف لا يحتج به .

وقد تبين لنا ضعف حديث الواحدى وكذلك قول ابن كثير مروى عن الكلبى وهو من الضعفاء[3] فهناك حديث صحيح مخالف للرواية من جهتين :

---

(١) قال ابن معين فى كتابه التاريخ : سعيد بن المرزبان هو أبو سعد البقال ، وليس بشىء (٢ : ٢٠٧) يحيى بن معين وكتابه التاريخ دراسة وترتيب وتحقيق د.أحمد نور سيف ، ط/الأولى ، من مطبوعات مركز البحث العلمى ــ كلية الشريعة ــ مكة المكرمة .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (ص ٧٩ م ٤) .

(٣) أنظر فتح البارى (١٠ : ١٨٥) .

أولا : أن قول الرسول ﷺ الذى قال عن ابتداء الخلق لم يكن نتيجة سؤال اليهود .

ثانيا : ان أول الحديث (خلق الله عز وجل التربة يوم السبت) وجميع تلك الآثار ذكرت أنه لم يكن يوم السبت خلق لشيء من المخلوقات مما دعا اليهود أن يقولوا قولهم القبيح إن الله عز وجل استراح يوم السبت فهو يوم الراحة تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وإليك الحديث بنصه كما رواه مسلم فى صحيحه .

حدثنى سريج بن يونس وهارون بن عبد الله . قالا : حدثنا حجاج بن محمد قال : ابن جريج : أخبرنى اسماعيل بن أمية بن خالد عن عبد الله بن رافع ، مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال (خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق . فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل[1] .

وللرازى كلام نفيس أعجبنى وهو يؤيد ما ذهبت إليه من أن الآية مكية .

قال الرازى : قال بعض المفسرين المراد من الآية الرد على اليهود حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه فى ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه فقال تعالى (وما مسنا من لغوب) ردا عليهم .

والظاهر أن المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما وقوله (وما مسنا من لغوب) أى ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الاعادة ثانيا والخلق الجديد . كما قال تعالى (أفعيينا بالخلق الأول) .

وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات

---

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباق (٤ : ٢١٤٩) .

ابتدىء يوم الأحد لكان الزمان متحققا قبل الأجسام والزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام أجسام أخر فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ..

وقال قبل هذه الأسطر السابقة فى تفسير قوله (ستة أيام) إشارة إلى ستة أطوار والذى يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم فى وضع اللغة لأن اليوم عبارة فى اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت[1] .أ.هـ .

ومما يؤيد ما أشرت إليه من كون الآية مكية ارتباطها بما بعدها وهى قوله تعالى (فاصبر على ما يقولون) خطاب للنبى ﷺ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون . أى هون أمرهم عليك[2] .

وذلك أنهم أنكروا البعث والرسالة وآذوه هو وأصحابه .

وقوله تعالى (**وَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوب** ﴾ .آية ٣٩ .

قال ابن كثير : كانت الصلاة المفروضة قبل الاسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر وقبل الغروب فى وقت العصر .

قلت : وهى نظير قوله تعالى فى سورة غافر المكية ﴿ **فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ الله حَقّ واسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّح بِحَمْدِ رَبّكَ بِالعَشِىّ والإبْكَارِ**﴾[3] وقد سبق أن فصلت فيها القول[4] .

وأخيراً فإن سورة (قّ) كلها مكية ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الرازى (٢٨ : ١٨٤) ط/الثانية .

(٢) تفسير القرطبى (١٧ : ٢٤) .

(٣) غافر : ٥٥ .

(٤) راجع ص ١٩٤) من بحثنا هذا .

(٣١) سورة النجم

وهى من السور المكية قال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الاثْمِ والفَوَاحِشَ** ﴾[١] .

والآية الكريمة ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الاثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ إِذْ أَنْشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى** ﴾ .

قال القرطبى : ذكر مقاتل بن سليمان أن هذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى نبهان التمار ، كان له حانوت يبيع فيه تمرا ، فجاءته امرأة تشترى منه تمراً فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله .. ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ، فقال : لعل زوجها غاز فنزلت هذه الآية[٢] .

فدل هذا الأثر على مدنية الآية .

قال ابن حجر فى الاصابة بعد أن ذكر هذه القصة : (هكذا أخرجه عبد الغنى بن سعيد الثقفى فى تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس مطولا ومقاتل متروك والضحاك لم يسمع عن ابن عباس وعبد الغنى وموسى هالكان وأورد هذه القصة الثعلبى والمهدوى ومكى والماوردى فى تفسيرهم بغير سند[٣] .

---

(١) النجم : ٣٢ .

(٢) تفسير القرطبى (١٧ : ١٠٦) .

(٣) الاصابة فى تمييز الصحابة لشهاب الدين ابى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٣ : ٥٥٠) وبهامشه الاستيعاب فى معرفة الاصحاب .

قلت : فالأثر الذى رواه مقاتل ضعيف والآية مكية تبعا للسورة والله أعلم .

قال القرطبى : والصحيح أنها (أى السورة) مكية لما روى عن ابن مسعود أنه قال : هى أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة[1] .

وقد ورد الحديث الصحيح فى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : سجد النبى ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[2] . فدل على أن السورة كلها مكية .

* * *

---

(١) تفسير القرطبى (١٧ : ٨١) .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٢٣٧) .

(٣٢) سورة القمر

وهى من السور المكية . قال القرطبى : مكية كلها فى قول الجمهور .

وقال مقاتل (إلا ثلاث آيات من قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ منتصر ﴾[١] إلى قوله « والساعة أدهى وأمر »[٢] ولا يصح على مايأتى) .

قلت : الآيات التى أشار إليها مقاتل بأنها مستثناة ورد فيها الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى بسنده عن يوسف بن ماهك[٣] قال : إنى عند عائشة أم المؤمنين قالت : لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة وإنى جارية ألعب بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر[٤] .

فسورة القمر كلها مكية . والله أعلم ..

* * *

---

(١) القمر : ٤٤ .

(٢) القمر : ٤٦ .

(٣) يوسف بن ماهك الفارسى المكى مولى قريش روى عن أبى هريرة وعائشة وحكيم بن حزام وغيرهم قال ابن معين والنسائى ثقة وذكره ابن حبان فى الثقات مات سنة ثلاث ومائة .
أنظر تهذيب التهذيب (١١ : ٤٢٢) .

(٤) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٢٤٣) .

(٣٣) سـورة الواقعة

وهى من السور المكيـة . قال القرطبـى : (مكيـة فى قول الحسن وعكرمـة وجابر وعطاء) وقال ابن عباس وقتادة إلا آيـة منها نزلت بالمدينـة قولـه ﴿ **وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ** ﴾[١] .

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن ابـن عبـاس قال : مطـر النـاس على عهد النبى ﷺ . فقـال النبـى ﷺ « **أصبح من الناس شـاكـر ومنهم كافـر قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا** » .

قال فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم ـ حتـى بلـغ ـ وتجعلـون رزقكم أنكم تكذبون)[٢] .

قلت : هذه الرواية السابقة لم تحدد زمن الحادثة فالظاهـر أن الآيات مكيـة ووقوع الحادثة المذكورة فى الرواية كان بمكة .

أمـا الروايـة الأخـرى المذكـورة فى البخـارى ومسلـم وغيرهما الشبيهة لها والتـى وقعت فى الحديبية ولم تنص على نزول آيات بسببها فالذى يظهر لى (والله أعلـم) أنها حادثة أخرى تكررت ولم تنزل بصددها آيات اكتفاء بما نزل أولاً قبل الهجرة .

أخرج البخارى ومسلم واللفظ للبخـارى عن زيـد بن خالـد الجهنـى[٣] أنـه قال صلى لنا النبى ﷺ الصبح بالحديبية على أثر سماء[٤] كانت من الليلـة ، فلمـا انصرف أقبـل على الناس فقـال : هل تدرون ماذا قال ربكـم ؟ قالـوا الله ورسولـه

---

(١) تفسير القرطبى (١٧ : ١٩٤) .

(٢) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (١ : ٨٤) .

(٣) ترجمة زيد بن خالد الجهنى مختلف فى كنيته أبو زرعة وأبو عبد الرحمن وأبو طلحـة .. روى عن النبى ﷺ وعن عثمان وأبى طلحـة وعـائشة . شهـد الحديبيـة وكان معـه لواء جهينـة يوم الفتـح وحديثـه فى الصحيحين وغيرهما . قال ابن البرقى وغيره : مات سنة ثمان وسبعين بالمدينة وله خمس وثمانون . الاصابة لابن حجر العسقلانى (١ : ٥٦٥) .

(٤) أى عقب مطر .

أعلم . قال : أصبح من عبـادى مؤمـن بى وكافـر فأمـا من قال مطرنـا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب . وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافـر بى ومؤمن بالكواكب(١) .

وزيادة على هذا فوجود القسم فى هذه الآيات مع كون السورة تحدثت عن أقسام أهل الجنة وأهل النار ثم الكلام على آيات الله فى خلق الانسان وامتنانه عليه بما سخر له فى الكون ثم الاستدلال على إمكان البعث، وأن الانسان محاسب يوم القيامـة على ما قدم من خير أو شر كل ذلك وغيره من علامـات مكيـة السورة . والله أعلم .

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٤٧٨) ، صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (١ : ٨٣) ، موطأ الامام مالك تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (١ : ١٩٢) .

(٣٤) ســـورة الماعون

وهـي من السور المكيـة وقـد فصل الألـوسى القـول فى السورة على ثلاثـــة أقوال :

قال الألوسى : وتسمى سورة أرأيت ، والدين ، والتكذيب .

أولاً : وهى مكية فى قول الجمهور . وأخرجه ابن مردويـه عن ابـن عبـاس وابن الزبير كما فى الدر المنثور .

ثانياً : وفى البحر المحيط أنها مدنية فى قول ابن عباس وقتـادة وحكـى ذلك عن الضحاك .

ثالثاً : وقال هبة الله بن سلام المفسر الضرير نزل نصفها بمكـة فى العـاص ابن وائل ونصفها فى المدينة فى عبد الله بن أبى المنافق)[١] .

قلت : والذى أرجحه أن السورة كلها مكية . والذين قالـوا بمدنيـة نصفهـا الآخر اعتمادا على أن الآيات ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾[٢] نزلت فى المنافـقين والنفـاق لم يظهـر إلا فى المدينة .

قال ابن حجر : (لا مانـع أن تكـون جميعهـا (أى السورة) مكيـة وتقـع الإشارة فيها إلى ماسيقـع بعـد الهجـرة)[٣] . فلا يمنـع أن تشير هذه السورة المكيـة إلى ماسيقع من النفـاق فى أداء الصلاة واللهـو عنها أو أدائهـا لغير وقتها . أو منـع الماعـون وهـو ما يعـار . ثم ليس هنـاك مايمنـع أن ينهى القـــرآن عن شىء من ترك الواجبات أو فعل المنهيات قبل أن يقع بين الأمة .

---

(١) تفسير الالوسى (٣٠ : ٢٤١) .

(٢) من آية ٤ الى آية ٧ .

(٣) فتح البارى (٨ : ١٣٠) .

(٣٥) ســـورة الكوثر

وهـى من السور المكيـة المختلـف فيها . واحتـج من قال بمدنـــيتها بالحديث الصحيـح الـذى رواه مسلـم عن أنس بن مالك رضى الله عنـه قال بينـا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنـا اذ أغفـى اغفـاءة ثم رفـع رأسه مبتسمـــا . فقلنـــا : ما أضحكك يارسول الله . قال (**أنزلت على آنفـا سورة فقـرأ** « بسم الله الـرحمن الرحيم . ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَـر . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَـر. إِنّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَـر** ﴾ ثم قال أتدرون ماالكوثر ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنـه نهر وعدنيـه ربى عز وجـل عليـه خير كثير . هو حوض ترد عليـه أمتـى يوم القيامـة . آنيتـه عدد النجـوم . فيختلـج العبـد منهم . فأقـول : رب إنـه من أمتـى فيقـول : مـا تـدرى ما أحدثت بعدك » .

زاد ابـن حُجْـرٍ فى حديثـه : بين أظهرنـا فى المسجـد . قال : «ما أحدث بعدك »[١] .

فدل الحديث على أن نزول السورة كان فى المدينة . لقولـه (بين أظهرنـا فى المسجد) وراوى الحديث أنصارى .

وقد استدل على مكية السورة بما جاء فى تفسير السورة :

(إن شانئك) قال ابن عباس أى عدوك[٢] .

(هو الأبتر) الذى لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل .

قال الألوسى : والجمهور على نزولها فى العاص بن وائل[٣] .

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباق (١ : ٣٠٠) دار احياء التراث العربى .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٣٦٢) .

(٣) تفسير الألوسى (٣٠ : ٢٢٤) .

فالآيات فى معانيها وألفاظها وأسلوبها تدل على مكيتها .

ويجمع بين القول بمكيتها والحديث الصحيح الذى رواه مسلم بتكرر نزولها فى مكة والمدينة .

قال الألوسى : (وفى أخبار سبب النزول وما يقتضى كلا من القولين.. استشكل أمرها وذكر الخفاجى[1] أن لبعضهم تأليفا صحح فيه أنها نزلت مرتين وحينئذ فلا إشكال)[2] .

---

(١) الشهاب الخفاجى (٩٧٧ ــ ١٠٦٩ هـ) أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجى المصرى قاضى القضاة وصاحب التصانيف فى الأدب واللغة نسبته الى قبيلة خفاجة ، ولد ونشأ بمصر . من أشهر كتبه (ريحانة الألبانى) ، (شفاء العليل) ، (عناية القاضى وكفاية الراضى حاشية البيضاوى) .
باختصار من الاعلام للزركلى (١ : ٢٣٨) .

(٢) تفسير الألوسى (٣٠ : ٢٢٤) .

ثانياً : الآيات المكية فى السور المدنية

سبق أن تحدثنا فى مقدمة هذا الفصل عن ترتيب القرآن الكريم سوره وآياته[1] .

والخلاصة : أن ترتيب القرآن الكريم توقيفى فى ترتيب آياته وسوره فإذا ما وجدت آيات مدنية فى سورة مكية أو آيات مكية فى سورة مدنية فهذا بأمر الله تعالى . وليس لنا فيه رأى . اللهم إلا العلم بأن هذه الآيات مكية أو مدنية .

والآيات المكية فى السور المدنية معدودة ونادرة .

قال ابن حجر (وقد اعتنى الائمة ببيان ما نزل من الآيات بالمدينة فى السور المكية وأما عكس ذلك وهو نزول شىء من سوره بمكة تأخر نزول تلك السورة إلى المدينة فلم أره إلا نادرا)[2] .

ومن بين تلك السور المدنية التى قيل إن فيها آيات مكية :

(١) سورة الأنفال ، (٢) سورة التوبة .

---

(١) أنظر (ص ١١٧ ــ ١٢٠) من بحثنا هذا .

(٢) فتح البارى (١٠ : ٤١٧) .

(١) سـورة الأنفال

سورة الأنفال من السور المدنية وتسمى أيضا بالبدرية .

قال القرطبي : (سورة الأنفال مدنية بدرية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس هى مدنية إلا سبع آيات من قوله تعالى ﴿ **واذ يمكر بك الذين كفروا** ﴾ إلى آخر السبع الآيات[١] .

والآيات الكريمة من قوله تعالى ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾[٢] .

فهـذه الآيات أشار ابـن عبـاس وغيره إلى أنها آيات مكيـة فى سورة الأنفـال المدنية .

قال الزركشى[٣] : (الآيات المكيـة فى السور المدنيـة) منها قوله تعـالى فى الأنفال ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ** ﴾[٤] .

---

(١) تفسير القرطبى (٧ : ٣٦٠) .
(٢) الانفال : ٣٠ ــ ٣٦ .
(٣) البرهان للزركشى (١ : ٢٠٢) .
(٤) الأنفال : ٣٣ .

قلت : والذى يظهر لى أن الآيات كلها مدنية تبعا للسورة .

والذى أحدث هذا الاستثناء فى الآيات هو ما تدور حوله الآيات من المعنى والحديث عما قاساه الرسول ﷺ من مشركى مكة من مكرهم وتكذيبهم للوحى وتحديهم لخالقهم ، وهم أضعف الأمم السابقة التى عتت عن أمر ربها . قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَروهَا أَكْثَر مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُم ولَكِنْ كَانُوا أَنْفُسهُمْ يَظْلِمُون** ﴾(١) . صدق الله العظيم .

ثم وصف صلاتهم وعبادتهم الفاسدة التى كانوا يؤدونها من التصفير والتصفيق(٢) .. الخ .

فهذه الآيات فى ظاهر معناها وسياقها أنها مكية . ولا يمنع أن تكون مدنية وقد تضمنها تذكير الرسول ﷺ بحاله مع قومه عند أول نصر له عليهم يوم بدر . فقوله تعالى ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك** ﴾ الآية ...

عن ابن عباس فى قوله (إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك) قال تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا اصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ . وقال بعضهم بل أقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات علىّ على فراش النبى ﷺ تلك الليلة وخرج النبى ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى ﷺ فلما أصبحوا ساروا إليه فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدرى ، فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل خلط عليهم فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال(٣) .

---

(١) الروم : ٩ .

(٢) قال صاحب الكشاف : المكاء فعال بوزن الثغاء والرغاء من مكا يمكو اذا صفر (فهو التصفير) أما التصدية : التصفيق تفعلة من الصدى أو من صد يصد .. الكشاف (٢ : ١٥٦) .

(٣) مسند الامام أحمد وبهامشه الفتح الربانى (١٨ : ١٥١) .

قال صاحب الفتح الربانى : (لما فتح الله على نبيه ﷺ ونصره يوم بدر على كفار مكة ذكره بمكر قريش حين كانوا بمكة ليشكر نعمة الله فى نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم فقال عز من قائل واذكر يامحمد (إذ يمكر بك الذين كفروا) وقد اجتمعوا للمشاورة فى شأنك بدار الندوة (ليثبتوك) أى يوثقوك بالحبال ويحبسوك .. (أو يقتلوك) كلهم قتلة رجل واحد .. (أو يخرجوك) من مكة ..)(١) .

وذكر ابن كثير القصة السابقة مطولة عن ابن عباس وفى نهايتها (وأخبره بمكر القوم فلم يبت تلك الليلة وأذن له بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده)(٢) .

وذكر السيوطى هذه القصة مطولة وفى آخرها يقول « وأذن الله له عند ذلك فى الخروج وأنزل عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه (وإذ يمكر بك الذين كفروا ..) الآية(٣) .

وقد سبق الآيات الكريمة آيات مشابهة لها فى مقام التذكير مما يؤكد أن سياق الآيات هو تذكير الرسول ﷺ بما كان من شأن قومه وما لاقاه منهم وكيف كان حاله مع قومه فى بداية الرسالة وكيف مكنه الله منهم وأبدله بعد الضعف قوة ليشكر الله عز وجل على هذه النعم . قال تعالى ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُم قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُم النَّاسُ فَآوَاكُم وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون** ﴾(٤) .

وما أسلفته فى الآية الكريمة (وإذ يمكر بك الذين كفروا) ينطبق عليه فى الآيات التى تليها فقوله (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من

---

(١) الفتح الربانى شرح مسند الامام أحمد تأليف أحمد عبد الرحمن البنا (١٨ : ١٥١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ : ٣٠٣) .

(٣) أنظر لباب النقول (ص ١٠٩ ــ ١١٠) .

(٤) الانفال : ٢٦ .

عنـدك ...) الآية . هو من مقـام التـذكير أى واذكـر إذ قالـــوا اللهـــم إن كان هذا .. الآيات .

(وقوله «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» اللام لتأكيد النفى على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهـم غير مستـقيم فى الحكمـة لأن عادة الله وقضيـــة حكمتـــه أن لا يعذب قوما عذاب استئصال مادام نبيهم بين أظهرهم ... « وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون » فى موضع الحال ومعناه نفى الاستغفار عنهم . أى ولـو كانـوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم .. ولـكنهم لا يؤمنـون ولا يستغفـرون ولا يتوقـع ذلك منهم)[١] .

وقوله فى نهايـة الآيات **﴿ إنَّ الذيـنَ كَفَـرُوا يُنفِقُـونَ أمْوَالَهُـمْ لِيصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّـهِ فَسيُنْفِقُونهـا ثُم تَكُـونَ عَلَيْهِـمْ حَسْرَة ثُمَّ يُغْلَبُـون وَالَّذِيـنَ كَفَـرُوا إلى جهنَّم يُحشَرُون ﴾** .

وردت آثار تفيـد أنها نزلت بسبب اجتماع أهـل مكـة بعـد هزيمتهم يوم بدر وذهابهم إلى أبى سفيان يطلبون منه المساعدة هو ومـن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة للاعانة على حرب الرسول ﷺ لعلهـم يصيبـون ثأرا بمن أصيب منهم يوم بدر ذكر ذلك ابن اسحق[٢] .

وردت آثار أخرى أنها نزلت فى المطعـمين يوم بدر وعلى كلا القـولين فالآية مدنية .

ولقـد استثنـى بعض المفسريـن قولـه **﴿يَأَيُّها النبى حسبك الله ﴾**[٣] الآية وصححه ابن العربى وغيره وقالوا : ويؤيده ما أخرجه البزار عن ابـن عبـاس رضى الله عنهما أنها نزلت لما أسلم عمر رضى الله عنه[٤] . فعليه فالآية مكية .

---

(١) باختصار من تفسير الكشاف لأبى القـاسم جار الله محمـود بن عمـر الـزمخشرى الخوارزمـى (٤٦٧ ــ ٥٣٨ هـ) (٢ : ١٥٥) ط/ دار الفكر الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ : ٣٠٧) .

(٣) الانفال : ٦٤ .

(٤) راجع الاتقان (١ : ١٥) ، الألوسى (٩ : ١٥٧) .

قال الـرازى : (هذه الآية نزلت بالبيـداء فى غزوة بدر قبـل القتـــال والمراد بقولـه « ومـن اتبـعك من المؤمـنين » الأنصار[1] . قال الألـــوسى والظاهـــر شمولها للمهاجرين والأنصار ، وعن الزهرى أنها نزلت فى الأنصار)[2] .

قلت ورواية البزار ضعيفة . قال السيوطى (روى البزار بسنـد ضعيـف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر رضى الله عنه قال المشركون : قد انـتصف القـوم منـا اليـوم وأنـزل الله ﴿ **يأيها النبى حسبك الله ومـن اتبـعك من المؤمنين** ﴾[3] .

قال ابـن كثير فى تفسيره للآية (يحرض تعـــالى نبيـــه ﷺ على القتـــال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ويخبرهم أنـه حسبهم أى كافيهم وناصرهـم ومؤيدهـم على عدوهم وإن كثرت أعداؤهم وتـرادفت أمدادهـم . ولـو قل عدد المؤمـنين . ثم ساق أثـرا مرويـا عن ابـن أبى حاتم بسنـده عن الشعبى فى قولـه ﴿ **يأيها النبـــى حسبك الله ومـن اتبـــعك من المؤمـــنين** ﴾ قال حسبك الله وحسب من شهـــد معك)[4] .

فعليه فالآية مدنية تبعا للسورة . وسورة الأنفال كلها مدنية والله أعلم .

---

(١) تفسير الرازى (١٥ : ١٩١) .

(٢) تفسير الألوسى (١٠ : ٣٠) .

(٣) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١١٣) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣٢٤) .

(٢) ســورة التوبة

سورة التوبة مدنية وقال القرطبى : مدنية باتفاق .

وقال الألوسى : مدنية كما روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير وقتادة وخلق كثير وحكى بعضهم الاتفاق عليه . وقال ابن الغرس : هى كذلك إلا آيتين منها ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ ... الخ . وهو مشكل بناء على ما فى المستدرك عن أبى بن كعب .

وأخرجه أبو الشيخ فى تفسيره عن على بن زيد عن يوسف المكى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أن آخر آية نزلت ﴿ **لقد جاءكم رسول** ﴾ إلخ ، ولا يتأتى هنا ما قالوه فى وجه الجمع بين الأقوال المختلفة فى آخر مانزل(١) .

قلت : سورة التوبة كلها مدنية . وقد نص الحديث الصحيح على مدنيتها (أخرج البخارى بسنده عن أبى اسحاق قال : سمعت البراء رضى الله عنه يقول آخر آية نزلت ــ يستفتونك قل الله يفتيكم فى **الكلالة** ــ(٢) وآخر سورة نزلت براءة)(٣) .

قال ابن حجر : وأصح الأقوال فى آخر الآية قوله تعالى ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله** ﴾(٤) .

ويوفق بين آية النساء وآية البقرة أن آية النساء آخر ما نزل فى شأن المواريث .

فإذا ثبت أن سورة التوبة من أواخر مانزل من السور دل ذلك على مدنيتها لأن أواخر حياته ﷺ كانت فى المدينة .

---

(١) تفسير الألوسى (١٠ : ٤٠) .
(٢) النساء : ١٧٦ .
(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٩ : ٣٨٦) .
(٤) البقرة : ٢٨١ ، انظر فتح البارى (٩ : ٢٧١ ــ ٢٧٢) .

ولقد استثنى من السورة الكريمة قوله تعالى ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّم** ﴾[1] الآيتين فقيل إنها نزلت فى مكة .

ويجاب بأن الآية فى عداد الآيات التى ورد بأنها من أواخر الآيات نزولا فى القرآن . أخرج الحاكم فى المستدرك عن أبى بن كعب قال آخر آية نزلت ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم ..** ﴾[2] إلى آخر السورة .

قال الحاكم حديث شعبة عن يونس بن عبيد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبى .

(وروى ابن مردويه عن أبى قال : آخر القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ إلى قوله ﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ .

(ويجاب عنه بأنهما آخر ما نزل من سورة براءة ، أو أنه أخبر بذلك بحسب ظنه واجتهاده)[3] .

قلت : وأخرجه أيضا الامام أحمد فى المسند عن ابن عباس عن أبى قال آخر آية نزلت ﴿ **لقد جاءكم رسول** ﴾ الآية[4] . فدل أن الآيتين مدنيتان تبعا للسورة . والله أعلم ..

ولقد استثنى من السورة قوله تعالى ﴿ **مَاكَانَ لِلنَّبِي وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِين** ﴾[5] .

أخرج البخارى بسنده عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال النبى ﷺ : أى عم قل لا اله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال النبي ﷺ

---

(١) التوبة ١٢٨ — ١٢٩ .

(٢) المستدرك للحاكم (٢ : ٣٣٨) .

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم الدكتور محمد أبو شبهة (١٢٣) .

(٤) مسند الامام أحمد بن حنبل وبهامشه الفتح الربانى (١٨ : ١٧٤) .

(٥) التوبة : ١١٣ .

لأستغفرن لك مالم أنه عنك ، فنزلت ﴿ **مَاكَانَ للنّبيِ والذينَ آمنُوا أَنْ يَسْتَغْفِـرُوا لِلْمُشْرِكِيـنَ وَلَـوْ كَانُـوا أولى قُرْبَـى مِنْ بَعْـدِ ما تبين لهُـــمْ أنّهُـــمْ أصْحــابُ الجَحِيم** ﴾[1] .

فعليه فالآية مكية . والله أعلم .

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٩ : ٤١١) .

الفصل الرابع
دحض الشبه التي أثيرت حول المدني والمكي من القرآن

الفصل الرابع
دحض الشبه التى أثيرت حول المدنى والمكى
من القرآن الكريم

لمحة موجزة عن المستشرقين

لقد دأب الملاحدة وأعداء الدين من المستشرقين والمبشرين وأذنابهم على تشكيك المسلمين فى دستورهم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ذلك الكتاب الذى أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم .

وطبيعى كان هدفهم فتنة المؤمنين عن دينهم ، وزعزعة ثقتهم فى كتاب ربهم وبث الفرقة فى صفوفهم ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِم وَيَأْبَى اللَّهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرون** ﴾[1] .

والدارس لكتبهم ومؤلفاتهم تتجلى له أساليبهم المُقنَّعَةِ والتى اعتادوها ــ إلا من رحم الله ــ للنيل من الاسلام وتعاليمه ومقدساته .

فهم عندما يبدأون بحوثهم يبدأونها بحملتهم على من سبقهم من الدارسين ــ أسلافهم ــ وأنهم ما أنصفوا ولا تحروا الصواب. وغلبت عليهم العصبية والتأثر بالعواطف الدينية **وما أشبه** بهذا التحايل ــ مما يجعل ذلك القارىء يثق فيهم كل الثقة ويعتقد كل الاعتقاد أن **ما** جاء به هذا الكاتب هو عين الصواب الذي سيجعل الحق فى النصاب . فيلقى للقارىء بكل سلاح يصلح للمعارضة

---

(١) التوبة : ٣٢ .

والتشكيك . فيسلم له القياد ثم بعد هذا يلقى بسمومه فيقول[1] إن القرآن فى أولى سوره يوضح أن كل نبى أرسل إلى قومه فيقول (رسول الى فرعون) وقوم نوح ، ومثل هذا محمد .

إذا لم يكن بدعا من الرسل على حد تعبير القرآن ، فهل كان مرسلا إلى عموم البشر ؟ لا بل إلى أهل مكة خاصة .

ومعلوم أن كلامه هذا يخالف أعظم قواعد الدين وأصوله . ويناقض الفكر الاسلامى تماما .

ومن أشهر المستشرقين الذين كان لهم الصيت البعيد والجهود العظيمة فى الاسلام والحديث الأستاذ ونسنك (أستاذ كرسى اللغة العربية بجامعة لندن) صاحب كتاب مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الذى جمع فيه الألفاظ الهامة للحديث من الكتب الستة ومسند أحمد وموطأ مالك وسنن الدارمى ورتبه على حروف المعجم . والذى اشتهر بالانصاف والاتزان عند كثير من الدارسين . نشاهد له موقفا غريبا يناقض تماما موقفه من الحديث إذ ادعى أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التى سبقته ، وعلى أثر اعلان هذا الرأى طرد من المجمع اللغوى المصرى ورأى الاسلام فى هذا واضح معروف .

وهذه الدكتورة (لورا فاجليرى) الاستاذة بمعهد الدراسات الشرقية بميلانو والتى قالوا عنها : إنها قد وضعت العدل والانصاف نصب عينيها فى مناقشتها للقيم الاسلامية وكأنها عاشت مع الاسلام أمدا طويلا .

قالت فى كتابها (تفسير الاسلام) : (إنه لا يمكن تجرد المسلمين من الروح الفدائية فى تحقيق غزواتهم ، لأن ذلك من طبيعة البشر .

وتقول عن الحديث : إن الأحاديث النبوية تعطى أجمل تعريف للشفقة والرحمة ولا يهم كثيرا أن بعض الأحاديث مشكوك فى صحته ، وأن بعضها ليس

---

(١) كتاب (قادة الأديان وأقوامهم) لتوماس كارليل ، طبع نيويورك ١٩١٩ م .

من كلام محمد ﷺ إلى غير ذلك من المزاعم الواهية[1] .

ولقد وجه أعداء الاسلام كثيرا من الشبه نحو القرآن الكريم وخصوصا المدنى والمكى[2] بقسميه . ومما يؤسف له أن من أبناء الاسلام من يتفوه بتلك الشبه ويهدم بمعوله حصون الاسلام المنيعة ليكون بذلك ابنا بارا بأساتذته وجامعاته التى أرضعته تلك السموم وصبغتها على أفكاره . وإليك الرد على تلك الشبه ودحضها .

---

(١) المستشرقون بين الانصاف والعصبية . للدكتور السيد محمد علوى المالكى (٢٦ ــ ٣٠) م.سحر

(٢) يلاحظ أننا سنتعرض فى أثناء الكلام على الشبه للقسم المكى بجانب المدنى حيث الارتباط قائم بينهما ولا يمكن صوغ الشبهة الا بشقيها ويقولون (وبضدها تتميز الأشياء) .

الشبهة الاولى

يقولون :

إن الباحث الناقد يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين لا تربط الأول والثانى صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب خضع لظروف مختلفة ، وتأثر ببيئات متباينة . فنرى أن القسم المكى منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد القسم المدنى منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فالقسم المكى يتفرد بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والغضب والسباب ، والوعيد والتهديد . مثل سورة (تبت يدا أبى لهب وتب) وسورة (والعصر ان الانسان لفى خسر) وسورة (ألهاكم التكاثر) ومثل (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ، (إن ربك لبالمرصاد)[1] .

الرد على الشبهة الأولى :

تتألف الشبهة من ثلاثة جوانب كاذبة وهى :

أولاً : أن القسم المكى تفرد بالعنف والشدة .

ثانياً : أن فيه سبابا وإقذاعا .

ثالثاً : أنه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، أما المدنى ففيه ثقافة واستنارة وسمو ورفعة ووقار .

والقصد من إلصاق تلك الشبهة بالقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو تشكيك أبناء الاسلام فى القرآن ، وبأنه مفكك الأجزاء غير متناسب فى الآيات والسور . وأنه خاضع للظروف متأثر بالبيئة وغرضهم من بث هذه المزاعم الباطلة هو أن القرآن ليس كلام الله وليس معجزا إنما هو كلام النبى ﷺ الذى تأثر أولا بأهل مكة فكان كلامه قاسيا بعيدا عن المعارف العالية التى اكتسبها من أهل الكتاب فى المدينة .

---

(١) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (١ : ١٩٩) .

أولاً :

فأما دعواهم أن القسم المكى تفرد بالعنف والشدة فتلك الدعوة تنبىء أن صاحبها لم يطلع على القرآن الكريم أو أنه اطلع ولكن أعمته عصبيته عن إدراك الحق المبين . فالقسم المدنى اشتمل على الوعيد والانذار . كما أن القسم المكى اشتمل على الدعوة إلى اللين والعفو والصفح ومقابلة الاساءة بالاحسان .

فمثلا سورة البقرة وهى مدنية (فيها الوعيد والانذار) .

قال تعالى : ﴿ **فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّار الَّتى وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارة أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين** ﴾[1] .

وقال فيها محذرا للمؤمنين من أكل الربا ، ومحاربا لآكل الربا ﴿ **يأيها الذين آمَنُوا اتَّقُوا اللَّه وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِن الرِّبَا إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنْين . فَإنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأذَنوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِه** ﴾[2] .. إلى غير ذلك من الوعيد الذى اشتمل عليه القسم المدنى .

ثم انظر الى ما جاء فى السور المكية حثاً على اللين والعرف والصفح والتسامح . قال تعالى فى سورة الأعراف المكية : ﴿ **خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِين** ﴾[3] . وفى سورة الحجر قال تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِين** ﴾ آية ٨٨ الى آخر السورة[4] .

قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية أيضا : ﴿ **وإذَا جَاءَكَ الذِين يُؤْمِنُونَ بِآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَانَّه غَفُورٌ رحيم** ﴾[5] .

---

(١) البقرة : ٢٤ .

(٢) البقرة : ٢٧٨ ــ ٢٧٩ .

(٣) الاعراف : ١٩٩ .

(٤) انظر مناهل العرفان لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى (ص ١٩٩ ــ ٢٠٥) .

(٥) الأنعام : ٥٤ .

ومن الملاحظ فى الآيات والسور المكية بشكل واضح أن القسم المكى خلا خلواً تاما من تشريع القتال والجهاد والمخاشنة . كما خلت أيامه فى مكة على طولها من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل والمصاولة .

فلم يسمع للمسلمين فيها صلصلة لسيف ، ولا قعقعة لسلاح ولا زحف على عدو وإنما هو الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة على الرغم من إيغال الأعداء فى أذاهم ولجاجهم فى عتوهم وأساهم سبا وطعنا وقتلا ونهبا ومقاطعة ومكابرة[1] .

والمتتبع لأسلوب القرآن الكريم فى مراعاته لمقتضى الحال فى جانب الترغيب والترهيب تجده أحيانا يغلب ناحية الترغيب لمن سلك طريق الاتباع . وأحيانا يغلب ناحية الترهيب لمن اعوج ومال عن طريق الحق والصواب .

وإنما قرن سبحانه الوعد بالوعيد وأكثر من ذكرهما فى القرآن لينبه على أن المؤمن لا بد أن يعتدل خوفه ورجاؤه . وليظهر بوعده للطائعين كمال رحمته بهم (وهذا كان شأنه جل وعلا فى خطابه لأهل المدينة) وبوعيده للعصاة كمال عدله وحكمته (وهذا كان شأنه فى خطابه لأهل مكة من العصاة والمعاندين) .

وتجده أحيانا يسوى بينهما حسب المقتضيات وأحوال المخاطبين .

قال تعالى فى سورة الفتح المدنية (يجمع بين الترغيب والترهيب) **﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَآتِهِم وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً . وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ والمُشْرِكَاتِ الظَّانِّين بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرا ﴾**[2] .

---

(١) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (ص ٢٦) .

(٢) الفتح : ٥ ـــ ٦ .

وقال تعالى فى سورة الدهر المكية يجمع بين الترغيب والترهيب ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً. يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً** ﴾[1] .

وأحيانا يقتصر على أسلوب الترهيب لأن المقام يقتضى ذلك . اقرأ مثلا سورة الهمزة وهى : ﴿ **وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ...** ﴾ .

وأحيانا يقتصر على أسلوب الترغيب إذا اقتضى المقام ذلك أيضا اقرأ مثلا سورة القدر ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فى لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ الآيات .

ثانياً :

أما دعواهم أن فى القسم المكى سبابا . ويريدون من السباب معناه المعروف عندهم من البذاءة والخروج عن حدود الأدب واللياقة فهذا عين الكذب والافتراء ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِن أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً** ﴾[2] لأن القرآن الكريم إنما جاء ليعلم الناس مكارم الأخلاق ، فكيف يكون مشتملا على ما يقولون ؟ .

ولو علموا الظروف والملابسات التى نزلت فيها هذه الآيات البينات التى استشهدوا بها لفهموا أن القرآن إنما يعالج النفوس بحسب ما يقتضيه المقام فلكل مقام مقال . فمراعاة مقتضى الحال هو الذى يجعل الأسلوب يتسم بالعنف والشدة وذلك مع المعاندين للحجج والبراهين . بيد أنه رغم العنف والشدة لم يخرج عن جادة الأدب ، ولم ينحاز عن سبيل الحكمة بل الحكمة تتقاضاه أن يشتد مع أمثال هؤلاء . ومن مصلحتهم هم ومن الرحمة بهم ، والخير لهم أن يشتد عليهم ليرعووا عن باطلهم . ويصحوا من غفلتهم . ويسيروا على نهج الحق والهدى والرشاد .

مع العلم أن هذا التقريع الحكيم تجده فى السور المدنية ، كما تجده فى

---

(١) الدهر : ٦ ــ ٧ .

(٢) الكهف : ٥ .

السور المكية . وإن كان فى المكى أكثر من المدنى ، لأن أهل مكة كانوا مسرفين فى العناد والاباء . مكابرين لا يريدون اتباع الحق رغم وضوحه لهم . لم يتركوا بابا من الشر إلا دخلوه ولم يدعوا مسلما إلا آذوه بل بلغ بهم الأذى بالمسلمين الى ملاحقتهم خارج وطنهم الذى تركوه[1] .

ثالثا :

أما زعمهم أن القسم المكى يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة فهو مردود عليهم ، وعلى أى وجه قصدوا .

فإذا أرادوا بانحطاطه الاشارة إلى قصر آياته ، أو إلى خلوه من التشريعات فهذا لا يدل على الانحطاط بل له اعتبار سنوضحه فى الشبهة القادمة[2] .

واذا أرادوا بما ذكروا أن أهل مكة كانوا منحطين فى الفصاحة والبيان والذكاء فلا أدل على كذب افترائهم من شهادة التاريخ لقريش بأنهم كانوا مركز الزعامة من جميع قبائل العرب ويذعنون لها بالسبق فى مضمار الفصاحة والبلاغة والذكاء والشرف والنبل[3] .

وقد شهد القرآن الكريم تعمدهم الجدل وأنهم أهل حجة وخصومة قال تعالى : **﴿ وَلَمَّا ضربَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون . وَقَالُوا أَآلهتنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُون ﴾**[4] .

ولقد أرادوا من إلصاق أمثال هذه التهم الباطلة بالقرآن تشكيك المسلمين فى كتابهم المقدس . حيث انه تأثر بالوسط والبيئة مما يترتب عليه أنه كلام النبى ﷺ لا كلام رب العزة .

---

(١) انظر علوم القرآن الكريم للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم وآخرين (ص ١٠٠ — ١٠١) ، ط/ الأولى ١٤٠١ هـ . مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة .

(٢) راجع ماسنذكره فى الشبهة الثانية (ص ٢٣٧) .

(٣) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (ص ٢٠٦ — ٢٠٧) .

(٤) الزخرف : ٥٧ — ٥٨ ، وانظر تفسير ابن كثير (٤ : ١٣١) .

الشبهة الثانية

(إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكى والقسم المدنى ، ويدل على أن القرآن فى نمطه هذا نتيجة لتأثر محمد بالوسط والبيئة . فلما كان فى مكة أميا بين الأميين جاءت سور المكى وآياته قصيرة ، ولما وجد فى المدينة بين مثقفين مستنيرين جاءت سور المدينة وآياته طويلة) وغرضهم من إلقاء هذه الشبهة التشكيك فى القرآن وأنه ليس من عند الله .

والرد على هذه الشبهة على النحو التالى :

أولا :

أن قولهم بقصر السور والآيات المكية وطول السور والآيات المدنية لا يسلم لهم على عمومه ففى القسم المكى سور طويلة مثل سورة الأنعام ويونس وهود ويوسف . وفى القسم المدنى سور قصيرة مثل سورة النصر والفلق والناس . ولا شك أن قصر الآية أو السورة أو طولها يرجع لمقتضى الحال الذى هو أساس البلاغة العربية . وليس تابعاً للبيئة أو الوسط .

ثانياً :

قولهم بانقطاع الصلة بين المكى والمدنى دليل على جهلهم بأساليب البلاغة فالصلة يحسها كل صاحب ذوق فى البلاغة فهى شاملة لكافة السور والآيات ولا أدل على ذلك من أنك ترى الكثير من الآيات المكية داخلة فى آيات وسور مدنية وكذلك العكس ومع ذلك فانه لا يكاد أحد يلمس أى تفاوت أو انقطاع بل يتجلى الاعجاز القرآنى عبر تلك الآيات من حيث الاتساق والانسجام فهو بمثابة عقد منظم تناسقت حباته وتآلفت لآلئه ونظم فى سلك من الذهب الخالص[٢] .

---

(١) مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (١ : ٢٠٩) .

(٢) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص ٢٣٤) ، مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (ص ٢٠٩)

قال الإمام الباقلانى : (إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام .. الخ .

وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد ، فى حسن النظم وبديع التأليف والرصف)[1] .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى (٤٠٣ هـ) تحقيق الأستاذ سيد صقر دار المعارف ١٩٦٣ م (ص ٣٦ ـ ٣٧) .

الشبهة الثالثة

(أن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام على حين أن القسم المدنى مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام . وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد ﷺ وتأليفه تبعا لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه فوجود التشريعات الاسلامية فى المدينة كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق دليل على أن هذا أثر من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن)[1] .

ونرد على ذلك فنقول :

أولاً :

قولهم إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام هذا زعم باطل فالقسم المكى لم يخل جملة من التشريع والأحكام بل عرض لها بطريقة اجمالية وذلك عند إشارته إلى أصول التشريعات والأحكام والتى ذكرها القرآن الكريم فى سورة الأنعام المكية التى تحدثت عن مقاصد الدين الخمسة وهى :

(١) الايمان بالله وعدم الاشراك به .

(٢) حفظ النفس .

(٣) حفظ العقل .

(٤) حفظ النسل .

(٥) حفظ المال .

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾[2] إلى تمام ثلاث آيات بعدها والتى جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة .

---

(١) أنظر مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (١ : ٢١١) .

(٢) الأنعام : ١٥٢ ــ ١٥٣ ــ ١٥٤ .

ثانياً :

أما كون أن القسم المدنى كثرت فيه التشريعات فهـذا تقتضيـه أنجع النظـم السياسية والتربوية . ذلك أن الفترة المكية تعتبر بالنسبة للمسلمين نقطـة البدايـة . ولا شك أن التدرج فى تربيـة أفـراد المجتمـع أساس نجاحـــه وتفوقـــه لهذا تدرجت التشريعـات الالهيـة فبـدأت باصلاح قلـوبهم وتطهيرهـا من الشرك والوثنيـة وتقويمهـا بعقيدة الايمان الصحيح والتوحيد الواضح .

ومن ثم فطمهم عن أقبـح العـادات والأخـلاق وأرشدهـم إلى أصول الآداب وفضائل العادات ثم فرض عليهم أمهات العبادات . هذا ماكان فى مكة .

فلما استضاءت قلوبهم بالايمان وأشربوا حبه وتهيأت نفوسهم للترقى والكمال عبر الأيام والسنين . وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة وأمّنوا على أنفسهـم وصارت لهم دولتهم وكيانهم وحريتهم وبعيدا عن الاضطهـاد والـعسف والظلـم ، حينئـذ جاء دور القرآن المدنى بتفصيـل التشريـع والاحكـام . محققـا السعـادة لبنـى الانسان . وأخذ يصقل أخلاقهم ويزرع المروءة فى نفوسهـم حتـى أصبـحت الأمـة الاسلاميـة بحق (خير أمة أخرجتْ للناس) .

أمـا ما زعموه أن ذلك من اختلاط النبى ﷺ بأهل المدينة فإن هذا ينـقضه القرآن فترى الكثير من الآيات وردت تصحح عقائد أهل الكتـاب وأخطاءهـم فى التشريع وفى التحليل والتحريم وفى الأخبار والتواريخ .

قال تعـالى : ﴿ **قُلْ يا أهْـلَ الكِتَـابِ تَعَالَـوْا إلَـى كَلِمَــةٍ سَوَاء بَيْنَنَــا وَبَيْنَكُم** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **كُلُّ الطَّعامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِى إسْرائِيـل إلاّ ماحَـرَّم إسْرائِيـل على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوراة** ﴾[2] الآية .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) آل عمران : ٩٣ .

ولا يخفى أن غرضهم الوصول إلى هدف معين من إلقـاء أمثـال هذه الشبهة وهو تشكيك المسلمين فى دينهم وفى كتابهم العزيز حتـى يصلـوا إلى هدفهـم وهـو تحريف وتغيير بعض آياته وسوره ولكن الله تكفل بحفظه ﴿ **إِنَّـا نَحْـنُ نَزَّلْنَـا الذِّكْـرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون** ﴾(١) .

---

(١) الحجر : ٩ .

الشبهة الرابعة

يقولون (إن القرآن أقسم كثيرا بالضحى والليل ، والتين والزيتون وطور سينين ، وكثير من المخلوقات ولا ريب أن القسم بالاشياء الحسية يدل على تأثر القرآن بالبيئة فى مكة لأن القوم كانوا فى مكة أميين لا تعدو مداركهم حدود الحسيات . أما بعد الهجرة واتصال محمد ﷺ بأهل المدينة ، وهم قوم مثقفون مستنيرون فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقى الجديد ، وخلا من تلك الايمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة[1]) .

ونرد على هذه الشبهة بما يلى :

أولا :

أن القسم بالأمور الحسية كالضحى والليل دليل على رعاية مقتضى الحال فيما سبق القسم لأجله . فالقرآن بصدد علاج أقبح الخصال وهى عقيدة الشرك ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة الباطلة وإقامة عقيدة التوحيد الخالصة إلا بالاشارة إلى عظمة هذا الكون وما أحاطه من مخلوقات عظيمة ليدركوا أن وراء تلك المخلوقات العظيمة خالقا لها مدبرا لشئونها ولأن فى الحلف والقسم معنى العظمة التى أودعها الله فى هذه النعم وفيه تنبيه على مدى انعامه جل وعلا عليهم فيستيقظوا من غفلتهم وشركهم بآلهتهم المزيفة التى لا تملك ضرا ولا نفعا .

ثانيا :

أما قولهم إن القوم فى مكة أميون لا تعدو مداركهم حدود الحسيات فقد سبق الرد عليهم به ــ مما يغنى عن إعادته ــ فى الرد على الشبهة الأولى[2] .

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى (١ : ٢١٣ ــ ٢١٤) .

(٢) انظر (ص ٢٣٦) من بحثنا هذا .

الشبهة الخامسة

يقولون (ان السور المدنية قد انخفضت فيها البلاغة حتى صار بعضها نثرا عادياً ويستدل لرأيه بأن حدة الوحي قد هدأت وأن البلاغة أصبحت شاحبة)[1] .

ونرد عليهم بما يلى :

ان البلاغة عند العرب عبارة عن مراعاة الخطاب لمقتضى حال المخاطب ، فاذا كان المخاطب كافرا فله خطاب يقتضى هذا الحال ، وإذا كان المخاطب مؤمنا فله خطاب يناسب حاله .

فالقرآن فى مكة كان يخاطب قوما يستأهل حالهم القرع والزجر والوعيد والتهديد أما عند انتقالهم إلى المدينة ودخول الايمان فى قلوبهم وثباتهم عليه كان مقتضى خطابهم توضيح الشريعة وتفصيلها وعرضها فى أسلوب سهل وهذا يقتضى البسط والاطناب .

قال الدكتور حسن عتر فى معرض الرد عليهم[2] : (فأما زعمه أن القوة الخطابية للقرآن قد فترت حماستها فى المدينة بحكم المسائل والموضوعات التى عالجها . فليس فى هذا ـــ ان سلمنا به ـــ دليل على ضعف البلاغة بل إن مراعاة مقتضى الأحوال هو عين البلاغة ولبها . فلا يصلح قوله دليلا على انخفاض مستوى البلاغة إلا أن يكون المتصدر للحكم من أمثال هذا المستشرق ، يعول على قوة ايقاع فواصل الكلم ، دون فهم لباب معانيه ومراميه وتأمل صوره وفنونه **﴿ كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾**[3] .

---

(١) بينات المعجزة الخالدة للدكتور حسن ضياء الدين عتر . ط/دار النصر . حلب الطبعة الأولى ١٩٧٥ م (ص ٣٩٦) .

(٢) انظر نفس المرجع السابق (ص ٣٩٦) .

(٣) البقرة : ١٧١ .

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن فى القرآن المدنى آيات قوية قارعة فيها حدة التهديد بعذاب النار ما يقتضيه مضجع هذا الحاقد وأضرابه .

قال تعالى فى سورة النساء المدنية : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جلوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً** ﴾[1] .

وأخيرا نرى آخر آيات التحدى فى سورة البقرة المدنية يفصح عن ذلك قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ من مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِين** ﴾[2] .

وسرعان ما يصدر الحكم عليهم بالعجز الأبدى . يقول تعالى ﴿ **فَإِن لَّم تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَة أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين** ﴾[3] .

---

(١) النساء : ٥٦ .

(٢) البقرة : ٢٣ .

(٣) البقرة : ٢٤ .

الباب الثاني
وفيه أربعة فصول

مقدمة في بيان حالة المجتمع المدني وقت هجرة النبي عليه أفضل الصلاة وازكى التسليم

الفصل الأول : التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات مع بيان الحكمة التشريعية .

الفصل الثاني : محاجة أهل الكتاب وبيان الصفات التي وصفهم بها القرآن الكريم

الفصل الثالث : بيان ضلال المنافقين وحقيقة أمرهم وما اتصفوا به من الصفات القبيحة وما أعد لهم من العذاب والنكال وما هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم تجاههم واشهر مواقفهم العدائية .

الفصل الرابع : بيان قواعد الجهاد وحكمة تشريعه والأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والصلح والمعاهدات .

مقدمة

بيان حالة المجتمع المدني وقت هجرة النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم

قبل الخوض فى الحديث عن التشريع فى العهد المدنى الذى يعتبر من أهم سمات وخصائص الآيات المدنية لابد لنا أن نتعرف على طبيعة المجتمع الذى عايش نزول تلك الآيات .

فما هى البطون والقبائل التى تسكنها ؟ وماهى معتقداتهم؟ وما مدى العلاقة القائمة بينهم ؟ إلى غير ذلك من الأمور التى صاحبت تحول هذا المجتمع من الظلمات إلى النور ومن الضلال الى الهدى ومن البغضاء إلى المحبة والأخوة .

لقد أصبحت المدينة بعد هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه معقل الاسلام وحصنه الحصين . ومنطلق الدعوة الاسلامية إلى العالم اجمع . وسماها الرسول ﷺ طيبة . وسماها الله (طابة) كما جاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم عن جابر بن سمرة (قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان الله سمى المدينة طابة »[1] . ولقد سماها الله تعالى (المدينة) فى مواضع عديدة من القرآن[2] .

وكان المجتمع بعد الهجرة النبوية يتألف من ثلاث فئات :

الفئة الأولى :

وهم المهاجرون الذين هاجروا من مكة فرارا بدينهم إلى المدينة والأنصار الذين آووا المهاجرين وضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله من قبيلتى الأوس

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباق (٢ : ١٠٠٧) .
أورد ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان تسعة وعشرين اسما لها منها: المدينة، طيبة، لطيب هوائها والمحببة والمحبوبة ، ويثرب والناجية والمباركة والعاصمة (٥ : ٨٢) ط/ دار الكتاب العربي بيروت .
(٢) كما فى سورة التوبة : ١٠١ ، ١٢٠ ، الأحزاب : ٦٠ ، المنافقون : آية ٨ .

والخزرج سكان المدينة الأصليين . ويرجع أصلهم إلى القبائل الأزدية اليمنية الذين هاجروا من اليمن بسبب الاضطرابات وغزو الأحباش(١) .

وعلى سواعد المهاجرين والأنصار كان تكوين الدولة الاسلامية فلقد كانت الخطوة الأولى للرسول ﷺ بعد دخوله المدينة هى بناء المسجد النبوى (ولم يلبث هذا المسجد فترة إلا وقد صار رمزا لشمولية رسالة الاسلام حيث أصبح مركزا روحيا لممارسة آداب الشعائر الاسلامية ومدرسة علمية وتشريعيــة تخرج قادة الفكر وتجمع أصحاب رسول الله ﷺ على ساحاته وقد عقدت بساحاته الندوات وألقى على منبره التعاليم والكلمات العطرة ، ومدرسة عسكرية لتوجيه علاقة الدولة فى الداخل والخارج ، كما غدا مؤسسة اجتماعية يتعلـم المسلمــون فيها النظــام والمساواة)(٢) .

أما الخطوة الثانية فهى أنه سعى صلوات الله وسلامه عليه جاهدا فى دفن الأحقاد والكراهية التى كانت مستأصلة بين الأوس والخزرج حتى إنه وقعت بينهم حروب كثيرة أولها حرب (سمير) وآخرها حرب بعــاث قبــل الهجـــرة بخمس سنوات(٣) .

وكان الباعث لتلك الخلافات اليهود (وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ويغرون بعضها على بعض بكيد خفى لم تكن تشعره تلك القبائل فلا تزال فى حروب دامية متواصلة ، ولا تزال أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب الخمود والانطفاء(٤)) .

---

(١) باختصار من كتاب مكة المدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ﷺ (ص ٣١٥) للأستـــاذ أحمد الشريف .

(٢) من كتاب بحوث مؤتمر رسالة المسجد الذى عقد فى مكة المكرمة بدعوة من رابطة العالم الاسلامى من ١٥ — ٢٠ رمضان ١٣٩٥ هـ من بحث الشيخ على محيى الدين (ص ١٠٩) بعنوان (مفهوم المسجد فى الاسلام) .

(٣) انظر كتاب الكامل فى التاريخ للامام العلامة أبى الحسن على المعروف بابـــن الأثير ط/ الثانيــة ١٣٨٧ هـ ، دار الكتاب العربى لبنان . المتوفى سنة ٦٣٠ (١ : ٤٠٢ — ٤١٧) .

(٤) الرحيق المختوم — بحث فى السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . تأليف فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفورى (ص ٢٠١) ط الأولى ١٤٠٠ هـ من منشورات رابطة العالم الاسلامي .

وسأتعرض فيما بعد لليهود وهم الفئة الثالثة التى كانت تسكن المدينة .

ومن (ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلا ، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام ، إلى حين وقعت بدر فلما أنزل الله « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض »[1] رد التوارث دون عقد الاخوة)[2] .

ومعنى هذا الاخاء (أن تذوب عصبيات الجاهلية ، فلا حمية إلا للاسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه وقد جعل الرسول ﷺ هذه الاخوة عقدا نافذا لا لفظا فارغا وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ...)[3] .

ولا بد لنا من معرفة الحالة الدينية والاجتماعية للأوس والخزرج قبل الاسلام . لقد كانوا كبقية العرب تابعين لأهل مكة فى العقيدة ويعتبرون أهل مكة قادة وزعماء للدين فهم سدنة البيت وسقاة الحجيج . فكانت الأوس والخزرج متمسكين بالوثنية السائدة فى جزيرة العرب يعبدون الأصنام كما تعبدها قريش وغيرها من القبائل إلا أنه كان لكل قوم صنم تربطهم به رابطة قوية . فكانت مناة لأهل المدينة والأوس والخزرج أشد إعظاما لها من غيرهم . وكانت اللات لأهل الطائف والعزى لأهل مكة وكان من اتخذ فى داره صنما من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه « مناة » أيضا كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيد سادات بنى سلمة قبل أن يسلم[4] .

---

(١) الانفال : ٧٥ .

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية تحقيق الأرناؤوط ـــ عبد القادر الأرناؤوط (٣ : ٦٣) ط/ الثانية ١٤٠١ هـ مؤسسة الرسالة بيروت .

(٣) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى (ص ١٩٢) خرج أحاديثه للشيخ ناصر الدين الألبانى ط/ السادسة دار الكتب الحديثة .

(٤) باختصار وتصرف من كتاب (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب سنة ١٢٤٢) للعلامة محمد شكرى الألوسى (١ : ٣٤٦) ، ٢ : ٢٠٨) ط ٣ دار الكتب القاهرة .

أخرج البخارى فى صحيحه عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال قلت لعائشة زوج النبى ﷺ وأنا يومئذ حديث السن أرأيت قول الله تبارك وتعالى « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما »[1]. فما أرى على أحد شيئا أن لايطوف بهما. فقالت عائشة : كلا لو كانت كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد[2] ، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة . فلما جاء الاسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله ﴿ **إن الصفا والمروة ..**﴾[3] الآية .

ولم يكن لأهل المدينة صنم اشتهروا به فى المدينة كاللات والعزى يرتحل الناس اليه كما كان الحال فى مكة . ولم يكن لكل بيت فى المدينة صنم خاص بهم كما كان عليه الحال فى مكة .

وكانت قريش ينظرون إلى الاوس والخزرج نظرة احترام وتقدير وتبجيل وحدثت بينهم مصاهرة . وقد تزوج هشام بن عبد مناف وهو سيد قريش من بنى النجار . واشتهر لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما فلما قدم النبى ﷺ قال لهم « **قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما يوم الفطر والأضحى** »[4] .

وكان للأنصار بالاضافة إلى عملهم فى الزراعة بحكم خصوبة أرضهم وكثرة المياه دور كبير فى التجارة . فكانت المدينة مركزا تجاريا فكثيرا من المواد الغذائية والمنسوجات القطنية تجلب من بلاد الشام أضف الى ذلك أنها مركز لممر القوافل التجارية القادمة من بلاد الشام والمتجهة إلى مكة فى رحلة الصيف التى ذكرها

---

(١) البقرة : ١٥٨ .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٩ : ٢٤٢) .

(٣) وادى فيه قرى صغيرة لا يزال معروفا كان طريق المدينة الى مكة يمر به . انظر كتاب المناسك وأماكن طرق الحج تحقيق حمد الجاسر (٤١٥) من منشورات وزارة الحج والأوقاف سنة ١٤٠١ هـ .

(٤) أخرجه النسائي فى كتاب صلاة العيدين (٣ : ١٧٩ — ١٨٠) .

القرآن الكريم والوحدة المتعارف عليها بينهم كأداة للوزن هو المكيال وكثير من تجار المدينة تفشى بينهم إنقاص المكيال .

أخرج الحاكم وابن ماجة بسندهما عن ابن عباس قال لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك)[1] .

هذه نبذة يسيرة عن الأوس والخزرج . ونختم هذه النبذة بنظم الدولة الاسلامية وقواعدها الركيزة التى أزاحت كل ماكان من حزازات الجاهلية والنزعات القبلية وقضت على كل التقاليد الجاهلية . ونقتصر على بعض بنود هذا النظام .

قال ابن هشام (وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم .

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم (وتلخيص ذلك الكتاب) :

١ ـ أنهم أمة واحدة من دون الناس .

٢ ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم[2] يتعاقلون[3] بينهم وهم يفدون عانيهم[4] بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى .

٣ ـ إن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم . وإن ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢ : ٣٣) وصححه الذهبى ، وابن جرير (٢٩ : ٩١) ، سنن ابن ماجه (٢ : ٧٤٨) رقم الحديث (٢٢٢٣) ط/ دار احياء الكتاب العربى عيسى البابى الحلبى وشركاه .

(٢) الحال التى جاء الاسلام وهم عليها .

(٣) المعاقل : الديات ، الواحد معقلة .

(٤) العانى : الأسير .

٤ - لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن .
٥ - وأن من اتبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .
٦ - وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن .
٧ - وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول .
٨ - إنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا ولا يؤويه .. ومن نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة .
٩ - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .
١٠ - وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم(١) .

وبهذه الحكمة وبهذه الحنكة السياسية أرسى رسول الله ﷺ قواعد المجتمع حتى كانت أمته خير الأمم كما وصفها رب العزة والجلال : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ** ..﴾ الآية(٢) .

ومافتىء رسول الله ﷺ يتعاهد أمته بالتعليم والتربية وتزكية النفس والحث على مكارم الأخلاق ويؤدبهم بآداب الاخاء والمحبة والايثار والطاعة . ولقد ضرب لنا الصحابة الكرام أعلى مقامات الايثار والتضحية عندما آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

أخرج البخارى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن بارك الله لك فى أهلك ومالك(٣) .

---

(١) باختصار وتلخيص من كتاب السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٤٧ — ١٤٩) .
(٢) آل عمران : (١١٠) .
(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٨ : ٢٧٤) .

وفى رواية أيضا للبخارى (فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع فقال : أقاسمك مالى وأنزل لك على إحدى امرأتىّ قال بارك الله فى أهلك ومالك)[1] .

لهذا امتدحهم المولى عز وجل فى كتابه الكريم بقوله :

﴿ والذِينَ تَبوَّأُوا الدَّار وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَالسَّابِقُون الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والانْصَارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيم ﴾[3] .

الفئة الثانية :

وهم اليهود . كانت المدينة تضم ثلاثة بطون من اليهود وهم (بنو قينقاع) و (بنو النضير) و (بنو قريظة) .

وقد تفرعت من هذه القبائل عشرات الجماعات كبنى عوف ، وبنى النجار ، وبنى ساعدة ، وبنى ثعلبة ، وبنى جفنة ، وبنى الحارث[4] .

قال ابن كثير : (وكان نزولهم بالحجاز قبل الأنصار أيام بختنصر حين دوخ بلاد القدس)[5] .

---

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١١ : ١٤٠) .

(٢) الحشر ٩ .

(٣) التوبة : ١٠٠ .

(٤) انظر كتاب وفاء الوفاء فى أخبار دار المصطفى (١ : ١٦٣ — ١٦٤) للسمهودى .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٣ : ٢٢٤) ط/ مكتبة المعارف بيروت . وانظر وفاء الوفاء للامام نور الدين على بن أحمد السمهودى المتوفى عام (٩١١) و (١ : ١٦٠) حققه محيى الدين عبد الحميد ط/ دار احياء التراث العربى — بيروت .

ولم تكن العلاقة حسنة بين تلك القبائل وكانت تقع أحيانا بينهم حروب كما وقع بين بنى قينقاع وبقية القبائل من اليهود وسببها أن بنى قينقاع كانوا قد حاربوا مع الخزرج فى يوم بعاث ــ وقد انقض اليهود على (بنى قينقاع) ومزقوهم شر تمزيق . وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم (بعاث) وأخيرا وقعت الحرب بين الأنصار وبين بنى قينقاع فلم ينهض أحد من اليهود فى محاربة الأنصار[1] .

والاحقاد بين اليهود بعضهم لبعض قديمة ومتوارثة .

وكانت لليهود حصون منيعة وآطام[2] فسيحة . وكانت الآطام عز اهل المدينة ومنعتهم التى كانوا يتحصنون فيها من عدوهم .. وقال شاعرهم :

ولو نطقت يوما قباء لخبرت … بأنا نزلنا قبل عاد وتبع
وآطامنا عادية مشمخرة … تلوح فتنكى من نعادى وتمنع[3]

ويسكنون فى أماكن خاصة بهم . فكانت بنو قينقاع فى داخل المدينة . وبنو قريظة فى جنوب المدينة فى منطقة (مهزور) . وبنو النضير على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة بوادى (بطحان)[4] وطبيعى لقد كانت لهم تشريعاتهم ومعاملاتهم الخاصة بهم .

فلقد اتخذوا أماكن خاصة يقيمون فيها طقوسهم الدينية ولهم أعيادهم واحتفالاتهم أما معاملاتهم فكان أغلبها يقوم على المراهنة والتعامل بالربا .

ومن أشنع وأقبح ما وصلت اليه مراهنات اليهود هو تراهنهم بالنساء والأطفال .

---

(١) باختصار وتصرف من كتاب (اليهود فى بلاد العرب وصدر الاسلام) للدكتور اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) (ص ٩) مطبعة الاعتماد بالقاهرة سنة ١٩٢٧ م .

(٢) الاطام : قال ابن الاعرابى : الاطوم القصور وفى حديث بلال انه كان يؤذن على اطم ، الأطم بالضم بناء وجمعه آطام . لسان العرب (ص ١٢١٩) .

(٣) باختصار من وفاء الوفا للسهمودى (١ : ١٦٢ ــ ١٦٣) .

(٤) بتصرف من كتاب (بنو اسرائيل فى القرآن والسنة) د. محمد سيد الطنطاوى (ص ٧٧) . ط/ الأولى ١٣٨٩ هـ . دار حراء القاهرة .

أخرج البخارى بسنده قال عمرو : سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول : (قال رسول الله ﷺ « من لكعب بن الأشرف فانه آذى الله ورسوله ﷺ » فقال محمد بن سلمة أنا فأتاه فقال : أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين . فقال ارهنونى نساءكم . قالوا : كيف نرهنك نساءنا ، وأنت أجمل العرب . قال : فارهنونى أبناءكم ، قالوا : كيف نرهن أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا ولكننا نرهنك اللامة . قال سفيان : يعنى السلاح فوعده أن يأتيه فقتلوه ثم أتوا به النبى ﷺ فأخبرو)[1] .

ولقد استطاع اليهود تكوين نشاط تجارى كبير فى المدينة فلقد كانت أهم الأسواق وأنشطها (سوق بنى قينقاع) وكانوا بارزين فى صياغة الحلى وبيعها وهناك أسواق أخرى لبيع المنتوجات الزراعية ساعد عليه خصوبة أرضها وكثرة بساتينها المكتظة بالنخيل وأنواع أخرى من الثمار وحوانيت عديدة لبيع المنسوجات القطنية والحريرية .

وبعد أن تشرفت المدينة بمقدم النبى ﷺ كانت نظرة اليهود إلى الاسلام ونبيه نظرة بغض وحقد . ذلك أن الرسول ﷺ لم يكن من جنسهم ولا يدعو إلى ماتدعو إليه أهواؤهم . وكانوا على علم بمعرفة الشرائع . واليهود عرفوا منذ الأزل بكرههم وقتلهم الأنبياء بغير حق . قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾[2] .

ولقد رسم صلوات الله وسلامه عليه سياسة حكيمة تجاه هذا الجنس من البشر فلقد أبرم معهم معاهدة وادعهم فيها وأقرهم على دينهم وأموالهم وإليك بعض فقرات هذه المعاهدة :

---

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٦ : ٦٨) .

(٢) آل عمران : ١٨١ .

(١) إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٢) أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ثم عدد جماعات أخرى من اليهود كبنى النجار ، وبنى حارثة ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى الأوس ، وبنى ثعلبة .. جميعهم مثل بنى عوف .

(٣) إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

(٤) وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .

(٥) وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

(٦) وإنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده إلى الله عز وجل . وإلى محمد رسول الله ﷺ ..الخ[١] .

هذه لمحة خاطفة عن اليهود وماكانوا عليه وسوف أفصل القول فى فصل كامل عن أهل الكتاب وذلك فى الفصل الثانى من الباب الثانى .

ثم ظهر بعد ذلك وبعد أن قويت شوكة المسلمين :

الفئة الثالثة :

المنافقون : وهم الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر والعداء والبغضاء للاسلام .

والنفاق : الدخول فى الاسلام من وجه والخروج من آخر ... وهو اسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به . وهو الذى يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله فى اللغة معروفا[٢] .

وقد ظهر بعد انتقال الاسلام إلى المدينة واستقرار المسلمين فيها .

(وكان ظاهرة طبيعية نفسية لابد منها فإنما تظهر بادرة « النفاق » فى بيئة

---

(١) باختصار وتصرف من كتاب السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٤٩) ط/ دار احياء التراث العربى — بيروت .

(٢) لسان العرب (١٠ : ٣٥٩) .

تجمع بين دعوتين متنافستين ، وقيادتين متقابلتين ، هناك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح بين هاتين الدعوتين ، ويتردد فى إيثار إحداهما على الأخرى ، وقد ينحاز إلى دعوة ، فيكون فى معسكرها ويعطيها ولاءه وحبه العاطفى ، إلا أن مصالحه المادية ، وانتشار الدعوة المقابلة وانتصارها لا يسمح له بإعلان موقفه ، والانضواء إلى الدعوة الأولى وقطعه للحبال التى تربط بيئته الأولى . قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾[1] وهم الذين وصفهم بقوله ﴿ **مُذَبْذَبِينَ بين ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ** ﴾[2][3] وسوف أعقد فصلا كاملا للحديث عن المنافقين فى الفصل الثالث من هذا الباب إن شاء الله .

---

(١) سورة الحج : ١١ .

(٢) سورة النساء : ١٤٣ .

(٣) السيرة النبوية للشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى (ص ١٦٨) ط/ دار الشروق .

الفصل الأوّل

التشريعات التفصيلية والاحكام العملية في العبادات والمعاملات مع بيان الحكمة التشريعيّة

مقاصد الآيات في السور المدنية

تمهيـــد :

عندما أتناول (مقاصد السور المدنية) بالبحث ليس المراد حصر المقـاصد فى هذه المقـاصد الأربعـة فقـط . فالقـرآن الكـريم لا ينضب فيضه ومهمـا تعـاقب العلماء والمفكـرون والـدارسون لهذا الكتـاب العزيـز بالبـحث على مر الدهـور فانـه لا يزداد إلا جدة وطرافة ولا يزال غضا طريا كما أنزل .

وسأقتصر فى بحثى هذا على أربعة مقاصد أصليـة ومـن خلالها يفهـم غيرهـا من المقاصد الكثيرة .

الفصل الأول
التشريعات التفصيلية والأحكام العملية
فى العبادات والمعاملات

س : لماذا لم يكن فى العهد المكى تشريعات كما هو الحال فى العهد المدنى ؟ .

إن إقامة الشرائع وتنفيذ جزئياتها رهن باستقرار الحكم وقوة السلطة والسلطان ، ولم يكن للمسلمين دولة فى مكة . بل كانوا مستضعفين وكثير منهم كان يخفى دينه بخلاف المجتمع فى المدينة . فإن القوة فيه كانت للرسول ﷺ ولصحابته رضوان الله عليهم . لذلك استطاع الرسول ﷺ أن يملى تعاليمه على المسلمين فى حرية كاملة وأن يقيم الحدود على من يخالف هذه التعاليم ما دام ملتزما بالعقيدة الاسلامية .

وبحثى حول التشريع فى العبادات والمعاملات يتركز وينصب حول بعض الآيات المدنية المعنية بتلك التشريعات وليس غرضنا التفصيل فى المسائل الفرعية فهذا بحثه فى كتب الفقه والأصول . وأحيانا أتعرض للحكمة التشريعية .

ونشرع أولا فى الركن الثانى من أركان الاسلام ألا وهو (الصلاة) .

الصلاة

الصلاة لغة : الدعاء والاستغفار . وبه سميت الصلاة لتضمنها لهما .
قال : ابن منظور : الصلاة من الله الرحمة .

وقال ابن الاعرابى : الصلاة من الله رحمة ، ومن المخلوقين الملائكة والانس والجن، القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح[1] .

الصلاة فى الشرع : هى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة[2] .

وللصلاة مكانتها العظمى فى الاسلام فهى عموده المتين . وهى الصلة بين العبد وخالقه . فالصلاة طهارة للقلوب . ومفتاح لباب الغيوب وهى محل المناجاة ومعدن المصافاة تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار ، علم وجود ضعفنا فقلل أعدادها . وعلم احتياجنا إلى فضله فكثر امدادها ، ولا تصلح إلا باستيفاء أركانها وشروطها .

قال ابن القيم عن مكانة الصلاة :

(انها محك الأحوال وميزان الايمان ، بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه ، فإنها محل المناجاة ، والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه ، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إذا كان محبا فإنه لا شيء آثر عند المحبين ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه وقد أقبل محبوبه عليه ، وكان قبل ذلك معذبا بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم فاذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه وآوى عنده واطمأن بذكره وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته فلا شيء أهم إليه من الصلاة كأنه فى سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح

---

(١) انظر لسان العرب (١٤ : ٤٦٤) .

(٢) مغنى المحتاج الى معرفة ألفاظ المنهاج ، تأليف شمس الدين محمد بن أحمد الشربينى الخطيب (ت ٩٧٧ هـ) القاهرة ــ مطبعة البابى الحلبى عام ١٩٥٨ م (١ : ١٢٠) .

وانشرح واستراح)[1] .

وأول مايحاسب عليه المؤمن يوم القيامة الصلاة . يذكرها القرآن فى دعاء الخليل ابراهيم ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء ﴾[2] ويمدح بها الذبيح اسماعيل ﴿ وَكَانَ يأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾[3] .

ويأمر الله كليمه موسى باقامتها أول ما يأمر به فى ساعات الوحى الأولى : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[4] .

وفي وصية لقمان لابنه ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾[5] . وينطق بها المسيح عيسى ابن مريم فى مهده ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ والزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً﴾[6] ويأمر الله بها خاتم أنبيائه : ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ واللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ ﴾[7] [8].

ومما يزيد فى مكانتها العظمى أنه لم يترك المجال لتركها حتى فى أحلك الظروف وأعسرها ففى الحضر والسفر والأمن والخوف وفى السلم والحرب وفى الصحة والمرض .

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص ٥٤٣) . للامام شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية . حققه الشيخ عبد الله الأنصارى طبع على نفقة الشيخ حمد بن فالح آل ثانى رحمه الله مطابع الدوحة الحديثة .

(٢) ابراهيم : ٤٠ .

(٣) مريم : ٥٥ .

(٤) طه : ١٣ — ١٤ .

(٥) لقمان : ١٧ .

(٦) مريم : ٣١ .

(٧) العنكبوت : ٤٥ .

(٨) انظر كتاب العبادة فى الاسلام (ص ٢١٠ — ٢١١) د. يوسف القرضاوى ط/ مؤسسة الرسالة ، ط/ التاسعة ١٤٠٢ هـ .

ففى السفر تخفيفا وتيسيرا للمسافر رخص بجمعها وقصرها .

وفى الحرب لها كيفيتها الخاصة وتؤدى جماعة ولها أحوال عدة .

وفى أثناء المرض ورد الحديث فيها (صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب)[1] .. الخ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا . وفى رواية ابن عمر عن النبى ﷺ قال صلاة الرجل فى الجماعة تزيد على صلاته وحده سبعا وعشرين . وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها يعنى صلاة العشاء[2] .

وقد توعد الله سبحانه وتعالى المتهاون فيها والساهى عنها فضلا عن الذى لا يؤديها فقال تعالى ﴿ **فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُون** ﴾[3] .

وقد صور القرآن الكريم مشهداً من مشاهد القيامة بين فيه عاقبة تاركى الصلاة وهو حديث يدور بين أصحاب اليمين وأهل النار .

قال تعالى : ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَر ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّين . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ** ....الآيات ﴾[4] .

أما عن الآثار الواردة فيها فهى كثيرة ونقتصر على بعضها .

فلقد جعلها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الحد الفاصل بين المسلم والكافر .

---

(١) الفتح الربانى (٥ : ١٤٥) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى (٥ : ١٥١ ــ ١٥٢ ــ ١٥٣) .

(٣) الماعون : ٤ ــ ٥ .

(٤) المدثر : ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٤٤ .

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سفيان قال سمعت جابراً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة** »[1] .

وأخرج الترمذى بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « **العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** »[2] .

وبلغ من مكانة الصلاة في الإسلام أن الخلفاء الراشديــن رضى الله عنهم أجمعين لا يرون شيئا تركه كفر غير الصلاة[3] .

* * *

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق الاستاذ محمد فؤاد عبد الباق (١ : ٨٨) .

(٢) سنن الترمذى (٥ : ١٤) .

(٣) أنظر كشف الغمة عن جميع الأمة لأبى المواهب عبد الوهاب الشعــرانى الانصارى (١ : ٦٩) ط/الأخيرة سنة ١٣٧٠ هـ البابى الحلبى .

مشروعية الأذان

الأذان لغة : الإعلام . قال تعالى : ﴿ **وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ واشتقاقه من الأذن بفتحتين وهو الاستماع .

وشرعاً : الاعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة[1] .

ولم يشرع الأذان إلا بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة وقد جزم بذلك ابن المنذر .

قال ابن حجر (وقد جزم ابن المنذر بأنه ﷺ كان يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة وإلى أن وقع التشاور فى ذلك فى حديث عبد الله بن عمر ثم حديث عبد الله بن زيد)[2] . أ.هـ .

أخرج البخاري بسنده عن نافع أن ابن عمر كان يقول : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها فتكلموا يوما فى ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوسا مثل ناقوس النصارى . وقال بعضهم بل بوقا مثل قرن اليهود .

فقال عمر : أولا تبعثون رجلا ينادى بالصلاة . فقال رسول الله ﷺ : « **يابلال قم فناد بالصلاة ...** »[3] .

والمراد بقوله ﷺ (قم فناد بالصلاة) ليس المراد قم فأذن الأذان المعروف . وإنما المراد إعلام الناس بحضور وقت الصلاة وذلك بقوله (الصلاة جامعة)[4] .

---

(١) فتح البارى (٢ : ٢١٧) .

(٢) فتح البارى (ص ٢١٨ — ٢١٩) جـ ٢ .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (ص ٢٢٠) جـ ٢ .

(٤) أنظر فتح البارى (ص ٢٢٢) جـ ٢ .

أخرج الامام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن زيد قال لما أجمع رسول الله ﷺ أن يضرب بالناقوس يجمع للصلاة الناس وهو له كاره لموافقته النصارى طاف بى من الليل طائف وأنا نائم رجل عليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس يحمله قال فقلت له يا عبد الله أتبيع الناقوس قال : وما تصنع به قلت ندعو به إلى الصلاة قال أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال فقلت بلى، قال: تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله.أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله،أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة،حى على الصلاة . حى على الفلاح،حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . قال ثم استأخرت غير بعيد قال ثم تقول إذا أقمت الصلاة الله أكبر .. (وذكر صيغة الاقامة) قال فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت قال فقال رسول الله ﷺ إن هذه لرؤيا حق إن شاء الله . ثم أمر بالتأذين فكان بلال مولى أبى بكر يؤذن بذلك ويدعو رسول الله ﷺ إلى الصلاة ...)(١) .

وفى رواية لأبى داود (إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتا منك) فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به قال : فسمع ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو فى بيته ، فخرج يجر رداءه ويقول : (والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى فقال رسول الله ﷺ « فلله الحمد »)(٢) .

فهذا الحديث يدل على أن الأذان منقبة من مناقب الأمة المحمدية فكانوا فى بادىء الأمر (كما سبق أن بينت) يتحينون أوقات الصلاة إلى أن تعددت المرائى حول ذلك وأقرها رسول الله ﷺ ومن يوم أن شرع والأذان شعيرة من شعائر الاسلام وبه تصير الدار دار الإسلام. ولهذا كان النبى ﷺ إذا سمع الأذان أمسك والا أغار وبذلك كان يوصى أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .

---

(١) مسند الامام أحمد (٤ : ٤٣) .

(٢) سنن أبى داود (١ : ١١٦) .

قال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذا نادَيْتم إلى الصَّلاةِ آتَّخذُوها هُزُواً وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[١] فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده[٢] .

وسورة المائدة مدنية . وسبب نزول الآية كما أخرجه ابن جرير عن السدى كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادى ينادى : أشهد أن محمداً رسول الله قال : حرق الكاذب . فدخلت خادمة ذات ليلة من الليالى بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله[٣] .

قال ابن العربى فى تفسير الآية : (كان المشركون واليهود والمنافقون إذا سمعوا النداء إلى الصلاة وقعوا فى ذلك وسخروا منه فأخبر الله سبحانه بذلك عنهم ، وليس فى كتاب الله تعالى ذكر الأذان إلا فى هذه الآية ، أما إنه ذكرت الجمعة على الاختصاص)[٤] .

وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجُمْعَةِ فاسْعَوا إلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٥] .

ففى هذه الآية الكريمة خطاب للمكلفين بفرض الجمعة بالاهتمام والمبادرة إلى أداء فريضة الجمعة عند سماعهم للأذان .

* * *

---

(١) المائدة : ٥٨ .

(٢) تفسير الكشاف (١ : ٦٢٤) .

(٣) تفسير الطبرى (٦ : ٢٩١) .

(٤) أحكام القرآن لأبى بكر محمد بن عمر المعروف بابن العربى (٤٦٨ ــ ٥٤٣) تحقيق على محمد البجاوى (٢ : ٦٣٤) ط/عيسى البابى الحلبى .

(٥) الجمعة : ٩ .

صلاة الجماعة

فرضيتها :

فرضت صلاة الجماعة فى المدينة ولم تكن فى مكة وذلك لأن المسلمين فى المدينة كانوا يصلون فى المسجد بدون خوف من أحد لأن المجتمع مجتمع مسلم متآخ يحب الواحد منهم لأخيه مايحب لنفسه بخلاف المجتمع المسلم فى مكة فقد كان مغلوبا على أمره ولا يأمنون على أنفسهم الجماعة فى المسجد .

فضيلة صلاة الجماعة :

ليس هناك طاعة من الطاعات أتم شأنا ولا أعظم برهانا من الصلاة لذا أوجب إشاعتها والاجتماع لها . ففى الاجتماع لها يكون هناك علماء يقتدى بهم وجهال متعطشون إلى موعظة وفقراء يلتمسون مد يد المساعدة لهم ومتهاونون لو لم يكلفوا أن يؤدوها على أعين الناس لتهاونوا فيها . وفى اجتماع الناس لها تفقد لأحوال المسلمين بعضهم لبعض فإذا تأخر أحدهم سئل عن سبب تأخره فإذا كان مريضا عادوه وإذا كان مسافرا دعوا الله له وإذا كان محتاجا ساعدوه . أضف إلى ذلك ما لها من عظيم الأجر فبالاجتماع لها تتنزل الرحمات والبركات وفى الخطا لها ترفع الدرجات ويحط بها السيئات .

أخرج الامام مسلم فى صحيحه عن أبى الاحوص قال عبد الله بن مسعود : (لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، قد علم نفاقه أو مريض إن كان المريض ليمشى بين رجلين حتى يأتى الصلاة ، وإن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى . وإن من سنن الهدى الصلاة فى المسجد الذى يؤذن فيه ؟

وأخرج أيضا عنه، قال: من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن. فإن الله شرع لكم سنن الهدى وأنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ومامن رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد

من هذه المساجد ، إلا كتب الله له بكل خطوة حسنة ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف)[١] .

فرضيتها :

فرضت الصلوات الخمس بمكة ليلة الاسراء . وقد ثبت ذلك فى الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى فى صحيحه المروى عن أبى ذر رضى الله عنه[٢] . وكان ذلك قبل الهجرة بسنة وحكى ابن حزم الاجماع عليه[٣] . وقد فرضت أولا خمسين صلاة ثم خففت حتى صارت خمس صلوات .

أخرج الترمذى بسنده عن أنس بن مالك قال : (فرضت على النبى ﷺ ليلة أسري به الصلوات خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمسا ، ثم نودى : يامحمد ، إنه لا يبدل القول لديَّ ، وان لك بهذه الخمس خمسين) قال أبو عيسى : حديث أنس حديث حسن صحيح (غريب)[٤] .

أخرج البخارى بسنده عن أم المؤمنين السيدة عائشة قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين . فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر[٥] .

قال ابن حجر : (والذى يظهر لى وبه تجتمع الأدلة السابقة أن الصلوات فرضت ليلة الاسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب ثم زيدت بعد الهجرة عقب الهجرة إلا الصبح كما روى ابن خزيمة وابن حبان والبيهقى من طريق الشعبى عن مسروق ، عن عائشة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (٥ : ١٥٦) .

(٢) انظر صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٤) .

(٣) انظر الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى لمحمد بن الحسن الحجوى الثعالبى الفاسى (١ : ١٠٨) الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة لصاحبها محمد بن سلطان النمنكانى .

(٤) سنن الترمذى (١ : ٤١٧) .

(٥) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٩) .

قالت : « فرضت صلاة الحضر ركعتين ركعتين ، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة ، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار » أ.هـ .

ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها فى السفر عند نزول الآية السابقة وهى قوله تعالى ﴿ **فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾ ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير فى شرح المسند أن قصر الصلاة كان فى السنة الرابعة من الهجرة)[1] .

ولا يخفى ما للصلاة من مهام اجتماعية فهى تعتبر أعظم رابطة جمعت المسلمين وألفت بين قلوبهم ووحدت صفوفهم بسبب ماسن فيها من الاجتماع اليومى خمس مرات ثم الاسبوعى يوم الجمعة ثم مرتين فى السنة للعيدين فبهذه الاجتماعات أمكن للرسول ﷺ تهذيب أمته وبث الخير والقرآن فى قلوبهم وزالت كل نفرة وضغينة كانت ساكنة بهم وعمل على ترقية أفكارهم وجمعهم لنهضة واحدة كرجل واحد حتى أصبحوا الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ولولا الصلاة ما اضمحلت منهم بقايا الوثنية التى أفسدت أفكارهم وكانت الأثر الأكبر فى ابتعادهم عن المعاصى والفجور وحلت مكانها الطاعات وحب الطيبات . وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله ﴿ **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾[2] [3] .

التوجه إلى القبلة والحكمة منها :

لقد حث الاسلام على تعظيم شعائر الله . قال تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾[4] وبيت الله من أعظم هذه الشعائر قال

---

(١) فتح الباري (٢ : ١٠) .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) انظر الفكر السامى (١ : ١٠٨) باختصار وتصرف .

(٤) الحج : ٣٢ .

تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾[1] .

ولما كان البيت رمزا لصاحبه . ولما كان من الأدب عند التخاطب التوجه صوب المخاطب (ولما كان التوجه فى الصلاة إلى ما هو مختص بالله لطلب رضاه والتقرب منه أجمع للخاطر وأدعى للخشوع وأقرب لحضور القلب مع الله لأن الخشوع لا يكون إلا مع السكون والركون إلى جهة معينة لا التوجه من جهة إلى جهة ، لهذا كله اقتضت الحكمة الإلهية أن يتوجه المسلمون فى صلاتهم الى الكعبة)[2] .

فيقف العبد بين يدي خالقه مناجيا ويستشعر ذلة نفسه وعزة ربه فينكس رأسه خاضعا مخبتا .

وفى توجه المسلمين الى قبلة واحدة فى صلواتهم رمز الى وحدتهم وتآلفهم إذ لو ترك الأمر بدون وجهة واحدة لحدث للمصلين الاضطراب والحيرة فلا يدرى المصلى أى الجهات أفضل أو أقرب إلى الله ولكان ذلك مظهرا من مظاهر الفرقة والخلاف .

وأخيرا كما لا يتوجه الوجه إلى القبلة إلا بالانصراف عن غيرها من الجهات كذلك فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه طوال فترة إقامته فى مكة يتوجه فى صلاته إلى بيت المقدس وكان من فرط حبه للكعبة وشغفه بها يجعلها بينه وبين بيت المقدس واستمر هذا الحال حتى هاجر إلى المدينة ومكث فيها ستة أو سبعة عشر شهرا وهو يستقبل بيت المقدس . وكان ذلك امتحانا للمسلمين ولكن الله ثبتهم فقالوا : « **سمعنا وأطعنا** » ، وقالوا « **آمنا به كل من عند ربنا** » .

---

(١) آل عمران : ٩٦ .

(٢) روح الصلاة فى الاسلام الأستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة (١٢١) .

وفى بقاء القبلة على ماهى عليه بعد الهجرة فيه تألف لقلوب يهود المدينة وإشارة الى وحدة الدين والرسالة ولكن هذه المعانى السامية لم تجد فى قلوب وصفها الله بأنها كالحجارة أو أشد قسوة ، بل زاد الطين بلة فقد اشتد حقد اليهود وحسدهم للرسول ﷺ على ما وهبه الله من فضله وما أحاطه من عنايته وازداد عداء اليهود يوما بعد يوم فتشوقت نفس الرسول ﷺ أن يؤمر باستقبال الكعبة وألا يشارك اليهود فى وجهة العبادة لاسيما بعد أن أمعنوا فى الفساد والعناد .

قال تعالى ﴿ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَاتَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَاجَاءَكَ من العِلْمِ إنَّكَ إذاً لَمِنَ الظَّالِمِين** ﴾[1] .

قال ابن كثير : (وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور)[2] ا.هـ .

وكان ﷺ يترقب الوقت الذى ينصرف فيه عن مشاكلة اليهود . ومن ثم تصبح قبلة المسلمين الكعبة وذلك لمكانتها العظيمة فى نفسه ولأنها رمز التوحيد الذى أقامه إبراهيم عليه السلام لذا كان ديدنه الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق .

قال تعالى : ﴿ **قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُ مَاكُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَه وَإنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُون أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يعْمَلُون** ﴾[3] .

---

(١) البقرة : ١٤٥ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ١٨٩) .

(٣) البقرة : ١٤٤ .

أى واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس وذلك بقولهم ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِم الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الـمَشْرِقُ والمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إلَىَ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم ﴾[١] . يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما فى كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته وماخصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا ولهذا تهددهم تعالى بقوله ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾[٢] .

أخرج الإمام أحمد فى مسنده بسنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (يعنى فى أهل الكتاب) (إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام آمين)[٣] .

وكان توجهه إلى الكعبة عند زيارته لبنى سلمة فى ضواحى المدينة أثناء صلاته للظهر وبعد ركعتين من الصلاة نزلت عليه آية تحويل القبلة فقرت عينه وطابت نفسه وتحول وهو فى الصلاة شطر الكعبة وسمى المسجد منذ ذلك الحين بمسجد القبلتين وكان ذلك فى يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا.

أخرج ابن سعد بسنده عن ابن عباس ــ إلى أن قال ــ زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور[٤] فى بنى سلمة فصنعت له طعاما ، وحانت الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين ، ثم أمر أن يوجه إلى الكعبة فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فسمى المسجد مسجد القبلتين ، وذلك يوم

(١) البقرة : ١٤٢ .
(٢) بتصرف من تفسير ابن كثير (١ : ١٩٣) .
(٣) مسند الامام أحمد (٦ : ١٣٥) .
(٤) واسمها خليدة كما قرره ابن حجر فقال والذى يظهر لى بعد البحث أن خليدة والدة بشر بن البراء . انظر الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٤ : ٤٣٥) . وقال ابن عبد البر (ام بشر) ابنة البراء بن معرور الأنصارية ويقال لها أم مبشر أيضا ــ قيل اسمها (خليدة) ولم يصح، روى عنها عبد الله بن كعب ومجاهد . انظر الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر النمرى القرطبى المتوفى سنة ٤٦٣ (٤ : ٤٣٥) فى هامش الاصابة .

الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا وفرض شهر رمضان فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا .

قال محمد بن عمر(١) : وهذا أثبت عندنا(٢) .

وأخرج البخارى بسنده عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة . فأنزل الله عز وجل ــ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ــ فتوجه نحو الكعبة . وقال السفهاء من الناس وهم اليهود ــ **ما ولاهم** عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ــ فصلى مع النبى ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى فمر على قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس (قلت : دل ذلك على أن الصلاة التى تم فيها التحويل هى صلاة الظهر) فقال : وهو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة)(٣) .

---

(١) محمد بن عمر بن واقد السهمى الواقدى : من أقدم المؤرخين فى الاسلام ومن أشهرهم . ومن حفاظ الحديث . ولد بالمدينة سنة ١٣٠ هـ تولى القضاء ببغداد وتوفى فيها سنة ٢٠٧ هـ وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد (صاحب كتاب الطبقات الكبرى) . الاعلام (٦ : ٣١١) .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١ : ٢٤٢) .

(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٤٨) .

انواع الصلوات

سبق أن تحدثنا عن الصلاة ومكانتها فى الاسلام وعن مشروعية الآذان وعن القبلة واكمالا للبحث سوف أتحدث بمشيئة الله عن بعض الصلوات التى شرعت فى العهد المدنى ولاسيما التى نزل فيها وحى يتلى كصلاة الجمعة ، والخوف ، والجنائز ، والمسافر .

صلاة الجمعة

قال تعالى : ﴿ **يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوا إِلَىَ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون . فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللّهِ واذكروا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ الله خيرٌ مِن اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ واللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِين** ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا** ﴾ خطاب تشريف للمكلفين بأداء فريضة الجمعة ويخرج عنه غير المكلفين .

أخرج أبو داود عن طارق بن شهاب عن النبى ﷺ قال (الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة إلا أربعة:عبد مملوك أو امرأة أو صبى أو مريض)[2] .

وأخرج الدارقطنى بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريض أو مسافر أو امرأة أو صبى أو مملوك ، فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غنى حميد)[3] .

---

(١) الجمعة : ٩ — ١١ .

(٢) سنن أبى داود للحافظ المنذرى (٢ : ٩) تحقيق محمد حامد الفقى ط/ مكتبة السنة المحمدية القاهرة .

(٣) سنن الدارقطنى (٢ : ٢) تحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى المدنى وبذيله التعليق المغنى على الدارقطنى ط/ دار المحاسن للطباعة — القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ .

قوله تعالى ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ .

قال الرازى (إذا نودى) يعنى النداء إذا جلس الامام على المنبر يوم الجمعة وهو قول مقاتل وأنه كما قال لأنه لم يكن فى عهد رسول الله ﷺ نداء سواه كان إذا جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر أذن بلال على باب المسجد وكذا على عهد أبى بكر وعمر)[1] .

وقوله (للصلاة) أى لوقت الصلاة يدل عليه قوله من يوم الجمعة ولا تكون الصلاة من اليوم وإنما يكون وقتها من اليوم[2] .

وقوله (من يوم الجمعة) بضم الجيم والميم وهى قراءة الجمهور[3] لغة أهل الحجاز وهى قراءة عاصم[4] .

واختلف فى سبب تسمية يوم الجمعة بهذا الاسم :

قال الحافظ ابن حجر : اختلف فى تسمية اليوم بذلك مع الاتفاق على أنه كان يسمى فى الجاهلية العروبة ، بفتح العين المهملة وضم الراء وبالموحدة.

(١) فقيل سمى بذلك لأن كمال الخلائق جمع فيه ... وهذا أسانيده ضعيفة .

(٢) وقيل لأن خلق آدم جمع فيه .. وهذا أصح الأقوال .

(٣) وقيل إنما سمى بذلك لتجميع الأنصار مع أسعد بن زرارة وكانوا يسمونه يوم الجمعة . يوم العروبة فصلى بهم وذكرهم فسموه الجمعة حين اجتمعوا إليه واستدل قائله بما رواه الحافظ أبوبكر عبد الرزاق الصنعانى فى مصنفه عن أيوب عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم رسول الله ﷺ

---

(١) وقد أحدث سيدنا عثمان رضى الله عنه (على الاذان والاقامة) اللذين على عهد رسول الله ﷺ أذانا ثالثا جعله قبل الوقت عندما كثر الناس بالمدينة ليتأهب الناس للصلاة ويستعدوا لها .

(٢) تفسير الرازى (٨ : ٣٠) .

(٣) انظر فتح القدير للشوكانى (٥ : ٢٢٧) ، وكذلك روح المعانى للألوسى (٢٨ : ٩٩) .

(٤) عاصم بن بهدلة الأسدى شيخ القراء بالكوفة واحد القراء السبعة توفى سنة ١٢٧ هـ . انظر غاية النهاية فى طبقات القراء لأبى الخير شمس الدين الجزورى . توفى سنة ٨٣٣ ط/١ القاهرة مكتبة الخانجى ١٩٣٣م .

وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموا الجمعة .. الحديث[1] .

(٤) وقيل سمى بذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه وبهذا جزم ابن حزم ، فقال إنه اسم إسلامى لم يكن فى الجاهلية وإنما كان يسمى العروبة ا .هـ[2] .

وأرجح من الأقوال السابقة (والله أعلم) القول الثانى وهو أنه سمى بذلك لأن خلق آدم جمع فيه لما ورد فيه من الآثار .

منها :

(١) **ما أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن سلمان الفارسي مرفوعاً أنه قال: قال** رسول الله ﷺ ياسلمان **ما يوم الجمعة ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم (كرر** ذلك مرتين) قال ياسلمان يوم الجمعة به جمع أبوك ــ أو أبوكم ــ أنا أحدثك عن يوم الجمعة **ما من رجل يتطهر** يوم الجمعة كما أمرتم ثم يخرج من بيته حتى يأتى الجمعة فيقعد فينصت حتى يقضى صلاته إلا كان كفارة لما قبله من الجمعة[3] .

قال ابن حجر فى الفتح أخرجه من حديث سلمان ابن خزيمة وأحمد وغيرهما وله شاهد عن أبى هريرة ذكره ابن أبى حاتم موقوفا باسناد قوى وأحمد باسناد ضعيف وهذا أصح الأقوال[4] .

(٢) وبما أخرجه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى فى تاريخه باختصار عن محمد ابن عيسى بن أبى موسى العطار عن سلمان أنه قال رسول الله ﷺ (إنما سميت الجمعة لأن آدم جمع فيه خلقه)[5] .

---

(١) المصنف لعبد الرزاق (٣:١٥٩ــ١٦٠) بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى من منشورات المجلس العلمى ط/ الأولى ١٣٩٠ هـ ط/ المكتب الاسلامي ــ لبنان .

(٢) انظر فتح البارى (٣ : ٣ ــ ٤) .

(٣) صحيح ابن خزيمة (٣ : ١١٨) تحقيق د. محمد فؤاد الأعظمى . ط/ المكتب الاسلامى .

(٤) فتح البارى (٣ : ٣) .

(٥) تاريخ بغداد للحافظ ابى بكر أحمد بن على الخطيب (٢ : ٣٩٧) ط/ بدون ــ دار الكتاب العربى .

وكانت أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بأصحابه فى المدينة فى بنى سالم ابن عوف . قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ بقباء فى بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده .

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة .. فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة فى بنى سالم بن عوف . فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وادى رانوناء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[1] .

قوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) .

قال ابن كثير (أى اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها وليس المراد بالسعى هنا المشى السريع إنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن)[2] .

وقال البغوى: قوله (فاسعوا إلى ذكر الله) أى فامضوا إليه واعملوا له وليس المراد من السعى الاسراع إنما المراد منه العمل والفعل كما قال (وإذا تولى سعى فى الأرض)[3] .

وقد نهى عن المشى السريع إلى الصلاة عموما فقد أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (إذا سمعتم الاقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)[4] .

قوله (إلى ذكر الله) قال الرازى (إلى ذكر الله) الذكر هو الخطبة عند الاكثر من أهل التفسير . وقيل هو الصلاة[5] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٣٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٨ : ٣٥٣) وبهامشه تفسير البغوى .

(٣) تفسير البغوى (معالم التنزيل) للامام البغوى المتوفى سنة ٥١٦ (٨ : ٣٥٣) . ط/الاولى فى مطبعة المنار بمصر ١٣٤٧ هـ على هامش تفسير ابن كثير .

(٤) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٢٥٧) .

(٥) تفسير الرازى (٣٠ : ٨) .

قال أبو السعود : (فاسعوا إلى ذكر الله) أى امشوا واقصدوا إلى الخطبة والصلاة[١] .

وقوله تعالى (وذروا البيع) .

قال الألوسى : أى اتركوا المعاملة على أن البيع مجاز عن ذلك فيعم البيع والشراء والاجارة وغيرها من المعاملات .. والأمر للوجوب فيحرم كل ذلك .

(ذلكم) أى المذكور من السعى إلى ذكر الله وترك البيع .

وقوله تعالى (خير لكم إن كنتم تعلمون) أنفع من مباشرة البيع فإن نفع الآخرة أجل وأبقى[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ أى إذا صليتم الفريضة يوم الجمعة (فانتشروا فى الارض) .

هكذا بصيغة الأمر بمعنى الاباحة لما أن إباحة الانتشار زائلة بفريضة أداء الصلاة فإذا زال ذلك عادت الإباحة فيباح لهم أن يتفرقوا فى الأرض ويبتغوا من فضل الله وهو الرزق بالتجارة بعد المنع بقوله تعالى ﴿ **وذروا البيع** ﴾ .

وعن مقاتل : أحل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة فمن شاء خرج ومن شاء لم يخرج .. والأفضل فى الابتغاء من فضل الله أن يطلب الرزق أو الولد الصالح أو العلم النافع وغير ذلك من الأمور الحسنة والظاهر هو الأول[٣] .

﴿ **واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ قال ابن جرير : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ماأنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه لتفلحوا ، فتدركوا طلباتكم عند ربكم وتصلوا الى الخلد فى جناته[٤] .

قوله تعالى ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائما** ﴾.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة خروج الناس من بين يدى رسول الله ﷺ وهو يخطب قائما يوم الجمعة .

---

(١) تفسير أبو السعود (٨ : ٢٤٩) المجلد الرابع ط/ دار احياء التراث العربى ـــ لبنان .

(٢) تفسير الالوسى (٢٨ : ١٠٣) .

(٣) تفسير الرازى (٣٠ : ٩) باختصار وتصرف .

(٤) تفسير الطبرى (٢٨ : ١٠٣) .

أخرج مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانفتل[1] الناس اليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ـ فى رواية أنا فيهم ـ فأنزلت الآية التى فى الجمعة ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما** ﴾[2] .

وفى الآية عتاب لما وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة الى التجارة ولابد أن أشير إلى أن هذه القصة وقعت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة فكان هذا هو السبب الذى رخصوا به لانفسهم فى ترك سماع الخطبة .

أخرج أبو داود فى مراسيله قال : كان رسول الله ﷺ يصلى الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ، حتى كان يوم جمعة والنبى ﷺ يخطب ، وقد صلى الجمعة ، فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة الكلبى قدم بتجارة ، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف فخرج الناس فلم يظنوا إلا أنه ليس فى ترك الخطبة شىء فأنزل الله عز وجل ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها** ﴾ فقدم النبى ﷺ الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة[3] .

وقوله تعالى ﴿ **قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِين** ﴾ .

أى ما عند الله من الثواب على الصلاة والثبات مع النبى ﷺ خير من اللهو ومن التجارة (والله خير الرازقين) لأنه موجد الأرزاق فإياه فاسألوا ومنه فاطلبوا[4] .

ونختم هذا التفسير الموجز لهذه الآيات الكريمة ببيان حكمة مشروعية صلاة الجمعة . قال القفال :

---

(١) انفتل : الفتل : لى الشىء كليك الحبل وكفتل الفتيلة . يقال انفتل فلان عن صلاته أى انصرف . ا.هـ . لسان العرب (١١ : ٥١٤) .

(٢) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (٢ : ٥٩) .

(٣) رواه أبو داود فى مراسيله .

(٤) تفسير البغوى (٨ : ٣٦٣) .

(وهى أن الله عز وجل خلق الخلق فأخرجهم من العدم الى الوجود وجعل منهم جمادا وناميا وحيوانا فكان ماسوى الجماد أصنافا منها بهائم وملائكة وجن وإنس ثم هى مختلفة المساكن من العلو والسفل فكان أشرف العالم السفلى هم الناس لعجيب تركيبهم ولما كرمهم الله تعالى به من النطق وركب فيهم العقول والطباع التى بها غاية التعبد بالشرائع ولم يخف موضع عظم المنة وجلالة قدر الموهبة لهم فأمروا بالشكر على هذه الكرامة فى يوم من الأيام السبعة التى فيها انشئت الخلائق وتم وجودها ليكون فى اجتماعهم فى ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله تعالى به عليهم . ولكل أهل ملة من الملل المعروفة يوم منها معظم فلليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد وللمسلمين يوم الجمعة .

ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذى به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسنة فى الأعياد واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيرا بالنعمة وحثاً على استدامتها بإقامة مايعود بآلاء الشكر)[1] .

---

(١) باختصار من تفسير الرازى (٣٠ : ٩) .

صلاة المسافر

إن من إكرام الله لهذه الأمة أن رفع عنهم إصرهم فلم يكلفهم ما لا يطيقون وذلك لأنهم قالوا ﴿ سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرِ ﴾[1] .

فمنذ أول عهد الرسالة فرض عليهم سبحانه وتعالى قيام الليل وذلك بقوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا المُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إلاّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ القُرْآن تَرْتِيلاً ﴾[2] . فكان النبى ﷺ وطائفة معه يقومون الليل على تلك المقادير المشار اليها فى الآية وشق ذلك عليهم فكان الرجل لايدرى كم صلى أو كم بقى من الليل، فكان يقوم الليل كله حتى انتفخت وتورمت أقدامهم وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم وخفف عنهم .

فأنزل الله تعالى ﴿ عَلِمَ أنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾[3] أى مَنَّ عليكم بالعفو ورخص لكم فى ترك القيام .

(فاقرأوا ما تيسر من القرآن) أى فاقرأوا فى الصلاة بالليل ما خف عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتا . ثم ذكر سبحانه عذرهم ودواعى التخفيف عليهم .

فقال تعالى ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه فى معاشهم[4] فلا يطيقون قيام الليل ـ ومن هنا كان التخفيف على المسافر بقصر الصلاة الرباعية .

﴿ وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ يعنى المجاهدين فلا يطيقون قيام الليل .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) المزمل : ١ ـ ٤ .

(٣) المزمل : ٢٠ .

(٤) انظر تفسير القرطبى (٢٩ : ٥٢ ـ ٥٦) .

ومن هنا كان التخفيف عليهم وفرض صلاة الخوف باختلاف صورها .

ومن هذا الباب الذى خفف الله فيه على الأمة صلاة المسافر .

قال تعالى : ﴿ **وإذَا ضَرَبْتم فِي الأرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إنْ خِفْتُمْ أنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُواً مبينا** ﴾[١] .

يقول تعالى : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض** ﴾ أى سافرتم عن موضع اقامتكم.

وقوله تعالى ﴿ **فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة** ﴾ : للعلماء فى هذه الآية قولان :

القول الأول :

قال ابن كثير (أى تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية) واستدلوا بها على قصر الصلاة فى السفر[٢] .

قال القاسمى : (ذهب الجمهور إلى أن الآية عنى بها تشريع صلاة السفر . وأن معنى قوله تعالى ﴿ **أن تقصروا من الصلاة** ﴾ هو قصر الكمية وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية . قالوا : وحكمها للمسافر فى حال الأمن كحكمها فى حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقا . روى الترمذى والنسائى وابن أبى شيبة عن ابن عباس (أن النبى ﷺ خرج من المدينة لا يخاف الا الله رب العالمين فصلى ركعتين) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح[٣] .

وروى البخارى[٤] والبقية عن أنس قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ من

---

(١) النساء : ١٠١ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ٥٤٦) .

(٣) سنن الترمذى باب ماجاء فى التقصير فى السفر (٢ : ٤٣١) .

(٤) اخرجه البخارى وعلى هامشه فتح البارى فى كتاب تقصير الصلاة باب ماجاء فى التقصير وكم يقيم حتى يقصر (٣ : ٢١٦) .

للمدينة إلى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا الى المدينة . قلت : أقمتم بمكة شيئا ؟ قال أقمنا بها عشرا)[1]

القول الثانى :

إن المراد بالقصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو ادخال التخفيف فى كيفية أداء الركعات .

وهو قول مجاهد والضحاك والسدى . واعتضدوا بما رواه الامام مالك عن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى السفر والحضر فأقرت صلاة السفر ، وزيد فى صلاة الحضر[2] .

فاذا كان أصل الصلاة فى السفر هى الثنتين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية لأن ما هو الأصل لا يقال فيه ﴿ **فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة** ﴾ .

وأصرح من ذلك دلالة على هذا ماروا الامام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ[3] .

(أخرجه النسائى وابن ماجه ورجاله ثقات ، قال الحافظ ابن القيم فى الهدى هو ثابت عنه (يعنى عن عمر) قال وهو الذى سأل النبى ﷺ ما بالنا نقصر وقد أمنا ؟ فقال له رسول الله ﷺ « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » .

---

(١) تفسير القاسمى (محاسن التأويل) (٥ : ١٥٠٢) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ط/ البابى الحلبى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ .

(٢) اخرجه البخارى على هامشه فتح البارى (٣ : ٢٢٤) واللفظ لمالك . أخرجه الامام مالك فى الموطأ (١ : ١٤٦) انظر تفسير ابن كثير (٥ : ٥٤٥ — ٥٤٦) .

(٣) مسند الامام أحمد بشرح الساعاتى (٥ : ٩٣) حديث رقم (١٢٠٧) .

قال : ولا تناقض بين حديثيه ، فان النبى ﷺ لما أجابه بأن هذا صدقة من الله عليكم ودينه اليسر السمح علم عمر أنه ليس المراد من الآية قصر العدد كما فهمه كثير من الناس .

قال (صلاة السفر ركعتان غير قصر) وعلى هذا فلا دلالة فى الآية على أن قصر العدد مباح منفى عنه الجناح فإن شاء المصلى فعله وإن شاء أتمه . وقد كان ﷺ يواظب فى أسفاره على ركعتين ركعتين ..)[1] .

وقد فصل هذا القول الرازى ورد على القائلين به .

فقال (القول الثانى) إن المراد من القصر إدخال التخفيف فى كيفية أداء الركعات وهو أن يكتفى فى الصلاة بالايماء والاشارة بدل الركوع والسجود وأن يجوز المشى فى الصلاة ، وأن تجوز الصلاة عند تلطخ الثوب بالدم ، وذلك هى الصلاة التى يؤتى بها حال شدة التحام القتال وهذا القول يروى عن ابن عباس وطاوس . واحتج هؤلاء على صحة هذا القول بأن خوف الفتنة من العدو لا يزول فيما يؤتى بركعتين على إتمام أوصافها وإنما ذلك فيما يشتد فيه الخوف فى حال التحام القتال وهذا ضعيف ، لأنه لا يمكن أن يقال : إن صلاة المسافر إذا كانت قليلة الركعات فيمكنه أن يأتى بها على وجه لا يعلم خصمه بكونه مصليا ، أما إذا كثرت الركعات طالت المدة ولا يمكنه أن يأتى بها على حين غفلة من العدو .

ثم رجح رأى القائلين بالقول الأول :

(واعلم أن حمل لفظ القصر على اسقاط بعض الركعات أولى). ويدل عليه وجوه :

الأول : حديث عمر بن الخطاب (قول النبى ﷺ « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » وهذا يدل على أن القصر المذكور فى الآية هو القصر فى عدد الركعات . وأن ذلك كان مفهوما عندهم من معنى الآية .

---

(١) الفتح الربانى (٥ : ٩٤) .

الثانى: **أن القصر عبارة عن أن يؤتى ببعض الشيء ويقتصر عليه فأما أن يؤتى** بشيء آخر ، فذلك لا يسمى قصرا ولا اقتصارا . ومعلوم أن إقامة الايماء مقام الركوع والسجود وتجويز المشي في الصلاة ، وتجويز الصلاة فى الثوب الملطخ بالدم ، ليس شيء من ذلك قصرا ، بل كلها إثبات لأحكام جديدة وإقامة لشيء مقام شيء آخر فكان تفسير القصر بما ذكرنا أولى .

الثالث: **ان (من) في قوله (من* الصلاة) للتبعيض، وذلك يفهم منه جواز** الاقتصار على بعض الصلاة .

الرابع: **أن لفظ القصر كان مخصوصا في عرفهم بنقص عدد الركعات ولهذا لما** صلى النبى ﷺ الظهر ركعتين ، قال ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت؟[1] .

الخامس: **ان القصر بمعنى تغيير الصلاة مذكور في الآية التى بعد هذه الآية،** فوجب أن يكون المراد من هذه الآية بيان القصر بمعنى حذف الركعات ، لئلا يلزم التكرار .

وبهذه الوجوه السابقة يكون تفسير التقصير بإسقاط بعض الركعات أولى من تفسيره بما ذكروه من الايماء والاشارة[2] .

وقوله تعالى ﴿ **إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾ .

ففى تفسير هذه الفتنة قولان :

الأول : خفتم أن يفتنوكم عن اتمام الركوع والسجود فى جميعها .

الثانى : خفتم أن يفتنكم الذين كفروا بعداواتهم ، والحاصل أن كل محنة وبلية وشدة فهى فتنة .

وهذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فإن فى مبدأ الاسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام أو في سرية خاصة وسائر الأحيان حرب للاسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى ﴿**ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا**﴾.

---

* يجوز أن تكون (من) زائدة .

(١) انظر تفسير الرازى (١١ : ١٧ — ١٨) .

(٢) انظر تفسير الرازى (١١ : ٢٢) .

وقوله تعالى ﴿ **إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبينا** ﴾ لأنكم دخلتم فى الاسلام فهم لكم أعداء لهذا أقدموا على محاربتكم . فإن طالت صلاتكم فربما وجدوا الفرصة فى قتلكم فعلى هذا رخصت لكم فى قصر الصلاة ، وإنما قال (عدواً) ولم يقل أعداء لأن العدو يستوى فيه الواحد والجمع[1] .

---

(١) انظر تفسير الرازى (١١ : ٢٣) .

صلاة الخوف

قال تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتِين فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا الله كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون ﴾[1] .

لما أمر تعالى بالقيام له فى الصلاة محافظين عليها فى أوقاتها ومؤدين لها بطمأنينة ووقار وسكينة وهذا فى حال الأمن والاستقرار ذكر حالة الخوف والفزع الطارئة أحياناً . وفى هذا إشارة إلى أن الصلاة لا تسقط عن العبد فى جميع الأحوال ورخص لعبيده فى الصلاة رجالا على الأقدام وركبانا على الخيل والإبل ونحوها إيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه ، وهذه هى صلاة الفذ الذى قد ضايقه الخوف على نفسه فى حال المسايفة أو من سبع يطلبه أو عدو يتبعه أو سيل يحمله[2] .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر عن النبى ﷺ (وإن كانوا أكثر من ذلك فليصلوا قياما وركبانا)[3] .

قال ابن حجر (أى إن كان العدو والمعنى أن الخوف إذا اشتد والعدو إذا كثر فخيف من الانقسام لذلك جازت الصلاة حينئذ بحسب الامكان وجاز ترك مراعاة مالا يقدر عليه من الأركان فينقل عن القيام إلى الركوع ، وعن الركوع والسجود إلى الإيماء إلى غير ذلك . وبهذا قال الجمهور[4]) .

---

(١) البقرة : ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٣ : ٢٢٣) باختصار وتصرف .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٣ : ٨٥) .

(٤) فتح البارى (٣ : ٨٥) .

قال تعالى : ﴿ وإذا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مرضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ الله أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِيناً ﴾[1] .

هذه الآيات الكريمة مدنية فى سورة النساء المدنية وتتحدث فى سياقها عن صفة صلاة الخوف . تلك الصلاة التى تبرز مدى أهمية فريضة الصلاة فى الإسلام فهى تعتبر أبلغ مثال فى المحافظة على الصلاة بل فى أدائها جماعة ، حيث إنه أمر بالإتيان بها حتى فى الحرب فى حالة الالتحام مع العدو وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ما للصلاة من منزلة كبرى فى الدين الإسلامي وكذلك ما للعبادة من أثر فعال فى تقوية معنويات الجيش التى هى من الأسباب الرئيسية للنصر . فالصلاة تغرس فى نفس المجاهد اليقين والصبر والثبات والتضحية وتجعله على يقين بلقاء ربه وما سوف يفوز به من منزلة الشهادة وما أعد له من النعيم .

فقوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) .

اختلف العلماء فى أنه هل صلاة الخوف خاصة للرسول ﷺ أو أنها تجوز لغيره .

الرأى الأول : قال أبو يوسف والحسن بن زياد : صلاة الخوف كانت خاصة للرسول ﷺ ولا تجوز لغيره . وقال المزنى كانت ثابتة ثم نسخت .

واحتج أبو يوسف على قوله بوجهين : الأول أن قوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) ظاهره يقتضى أن إقامة هذه الصلاة مشروطة بكون النبى ﷺ فيهم لأن كلمة (إذا) تفيد الاشتراط .

---

(١) النساء : ١٠٢ .

الثاني : أن تغيير هيئة الصلاة أمر على خلاف الدليل ، إلا أنا جوزنا ذلك فى حق الرسول ﷺ لتحصل للناس فضيلة الصلاة خلفه .

الرأى الثاني : وأما سائر الفقهاء فقالوا : لما ثبت هذا الحكم فى حق النبى ﷺ بحكم هذه الآية وجب أن يثبت فى حق غيره لقوله تعالى (واتبعوه) ألا ترى أن قوله تعالى ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم** ﴾[1] لم يوجب كون الرسول ﷺ مخصوصا به دون غيره من الأمة بعده .

وأما التمسك بلفظ (إذا) فالجواب أن مقتضاه هو الثبوت عند الثبوت أما العدم عند العدم فغير مسلم به، وأما التمسك بإدراك فضيلة الصلاة خلف النبى ﷺ فليس يجوز أن يكون علة لإباحة تغيير الصلاة ، لأنه لا يجوز أن يكون طلب الفضيلة يوجب ترك الفرض فاندفع هذا الكلام[2] .

قوله تعالى (فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) يعنى غير المصلين من الطائفة التى لم تصل مع النبى ﷺ وذلك لحراستهم (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك) .

وفى هذه الآية يشرع لنا المولى عز وجل كيفية صلاة الخوف . وقد فصلت السنة المطهرة أنواعاً كثيرة لصلاة الخوف . فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون فى غير اتجاهها ، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة بل يصلون فرادى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها ورجالا وركبانا . ولهم أن يمشوا ويضربوا الضرب المتتابع فى متن الصلاة ، ومن العلماء من قال : يصلون هذه الحالة ركعة واحدة لحديث ابن عباس قال : (فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين ، وفى الخوف ركعة)[3] .

---

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) انظر تفسير الرازى (١١ : ٢٤) .

(٣) صحيح مسلم على هامشه شرح النووى (٥ : ١٩٦) .

قال النووى (هذا الحديث قد عمل بظاهره طائفة من السلف منهم الحسن والضحاك وإسحق بن راهويه ، وقال الشافعى ومالك والجمهور إن صلاة الخوف كصلاة الأمن فى عدد الركعات فإن كان فى الحضر وجب أربع ركعات وإن كانت فى السفر وجب ركعتان . ولا يجوز الاقتصار على ركعة واحدة فى حال من الأحوال . وتأولوا حديث ابن عباس هذا على أن المراد ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتى بها منفرداً . كما جاءت الأحاديث الصحيحة فى صلاة النبى ﷺ وأصحابه فى الخوف[١] .

قال الحافظ ابن عبد البر (انفرد به بكير بن الأخنس وليس حجة فيما ينفرد به والصلاة أولى ما احتيط فيه ، ومن صلى ركعتين فى خوفه وسفره خرج من الاختلاف إلى اليقين)[٢] .

وقد وردت فى كتب السنة عدة روايات وضحت فيها صفة صلاة الخوف باختلاف صورها بحسب موقع العدو وتحاشيا من الأطالة سأقتصر على بعض ما أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد فوازينا العدو فصافقناهم ، فقام رسول الله ﷺ يصلى لنا . فقامت طائفة معه تصلى وأقبلت طائفة على العدو ، وركع رسول الله ﷺ بمن معه وسجد سجدتين ثم انصرفوا مكان الطائفة التى لم تصل . فجاءوا فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة وسجد سجدتين ثم سلم ، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين[٣] .

وفى هذه الصورة محتمل أن العدو كان فى خلاف جهة القبلة .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن سهل بن أبى حثمة أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه فى الخوف فصفهم خلفه صفين فصلى بالذين يلونه ركعة ثم قام

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم (٥ : ١٩٧) .

(٢) تفسير القرطبى (٣ : ٢٢٤) .

(٣) صحيح البخارى على هامشه فتح البارى (٣ : ٨٢) .

فلم يزل قائما حتى صلى الذين خلفهم ركعة ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم فصلى بهم ركعة ثم قعد حتى صلى الذين تخلفوا ركعة ثم سلم[1] .

وفى هذه الصورة يحتمل أن العدو كان جهة القبلة .

قال النووى : (وقد روى أبو داود وغيره وجوها أخرى فى صلاة الخوف بحيث يبلغ مجموعها ستة عشر وجها وقال الخطابى : صلاة الخوف أنواع صلاها النبى ﷺ فى أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى فى كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ فى الحراسة . فهى على اختلاف صورها متفقة المعنى)[2] .

قال ابن حجر : قال صاحب الهدى : أصولها ست صفات وبلغها بعضهم أكثر .

وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة فى قصة جعلوا ذلك وجها من فعل النبى ﷺ وإنما هو من اختلاف **الرواة*** . أ . هـ .

وهذا هو المعتمد وإليه أشار شيخنا بقوله : يمكن تداخلها [3] . ولنعد إلى تفسير بقية الآية .

وقوله تعالى (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) .

قال الرازى : (فان قيل : لم ذكر فى الآية الأولى « أسلحتهم » فقط وذكر فى هذه الآية حذرهم وأسلحتهم ؟ .

قلنا : لأن فى أول الصلاة قلما يتنبه العدو لكون المسلمين فى الصلاة ، بل يظنون كونهم قائمين لأجل المحاربة . أما فى الركعة الثانية فقد ظهر للكفار كونهم فى الصلاة فههنا ينتهزون الفرصة فى الهجوم عليهم فلا جرم خص الله تعالى هذا الموضع بزيادة تحذير فقال (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)[4] .

---

(١) صحيح مسلم على هامشه شرح النووى (٦ : ١٢٨) .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (٦ : ١٢٦) .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى (٣ : ٨٣) .

(٤) تفسير الرازى (١١ : ٢٦) .

* أنظر زاد المعاد فى هدى خير العباد لإبن قيم الجوزية (١ : ٥٣١ ، ٥٣٢)

ثم قال تعالى ﴿ **وَدَّ الذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحدة** ﴾ أى بالقتال .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو ما أخرجه الامام أحمد فى مسنده عن أبى عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) قال فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح قال : فصففنا خلفه صفين قال ثم ركع فركعنا جميعا ثم رفع فرفعنا جميعا[1] الحديث .

ثم قال تعالى : ﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُم مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُم** ﴾ والمعنى أنه إذا تعذر حمل السلاح إما لأنه يصيبه بلل السماء فيسود وتفسد حدته أو لأن من الأسلحة ما يكون مبطناً فيثقل على لابسه إذا ابتل بالماء أو لأجل أن الرجل كان مريضا فيشق عليه حمل السلاح ، فهنا له أن يضع السلاح .

ثم قال (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) أى إنه رخص لهم فى وضع السلاح حال المطر وحال المرض ثم أمرهم مرة أخرى بالتيقظ والتحفظ والمبالغة فى الحذر ، لئلا يجترىء عليهم العدو استغناما منهم لوضع المسلمين أسلحتهم[2] . ثم ختم الله الآيات الكريمة بقوله :

(**إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا**) وفيه تقوية لقلوب المسلمين وأن الله سيخذل الكافرين ولا ينصرهم ألبتة .

---

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل (٤ : ٥٩) والحاكم في المستدرك (١ : ٣٣٧) وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبى.

(٢) أنظر تفسير الرازى (١١ : ٢٦) .

صلاة الجنائز

قال تعالى : ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[1] .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما أخرجه البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لما مات عبد الله بن أبى بن سلول دُعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه . قلت : يا رسول الله أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا كذا وكذا ؟ قال اعدد عليه قوله ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : أخر عنى يا عمر ، فلما أكثرت عليه قال : إنى خيرت فاخترت[2] .

لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة ــ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ــ إلى قوله وهم فاسقون ــ قال : فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم[3] .

واختلف العلماء فى الآية هل يؤخذ من مفهومها وجوب الصلاة على المؤمنين مع أن الظاهر أنها نص فى الامتناع من الصلاة على الكفار على قولين . والذى أرجحه أنه يؤخذ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ فاذا زال الكفر وجبت الصلاة . وهذا

---

(١) التوبة : ٨٤ .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٠٦) .

نحو قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[1] يعنى الكفار . فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون فذلك مثله . والله أعلم .

ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه .

أما الدليل من السنة ما أخرجه الامام مسلم فى صحيحه بسنده عن جابر ابن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : (إن أخا لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه) قال : فقمنا فصفنا صفين)[2] يعنى النجاشى .

والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . روى الدارقطنى عن أبى ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال : (ان الملائكة صلت على آدم فكبرت عليه أربعاً وقالوا هذه سنتكم يا بنى آدم)[3] .

وقوله تعالى (ولا تقم على قبره) كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبيت .[4] .

﴿ إِنَّهم كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وهذه علة لنهيه ﷺ عن الصلاة على المنافقين فكأنه قال سبحانه وتعالى لا تصلّ عليهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وخرجوا عن جماعة المسلمين .

* * *

---

(١) المطففين : ١٥ .

(٢) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (٢ : ٦٥٧) حديث رقم ٦٦ كتاب الجنائز .

(٣) سنن الدارقطنى (٢ : ٧١) للامام على بن عمر الدارقطنى تحقيق السيد عبد الله المدنى ، ط/ دار المحاسن بالقاهرة .

(٤) أنظر تفسير القرطبى (٨ : ٢١٨) .

ثانيا : الزكاة

الزكاة فى اللغة : قال الزبيدى (زكا) المال والزرع وغيرهما (يزكو : زكاء) بالمد (وزكوا) بالفتح . وكل شيء يزداد ويسمن فهو يزكو زكاء .

(وزكاه الله تعالى) تزكية (وأزكاه) أنماه وجعل فيه بركة .

(وزكا) الرجل يزكو زكوا (صلح) ، وبه فسر قوله تعالى (ما زكا منكم من أحد) أى ما صلح (وزكا) يزكو (تنعم) وكان فى خصب نقله الجوهرى عن الأموى .

(والزكاة) ما أخرجته من مالك لتطهر به ، كذا فى المحكم وفى المصباح سمى القدر المخرج من المال زكاة . لأنه سبب يرجى به الزكاء .

وقال ابن الأثير (الزكاة) فى اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح وكل ذلك قد استعمل فى القرآن والحديث[1] .

الزكاة فى الاصطلاح :

(اسم لقدر مخصوص من مال مخصوص يجب صرفه لأصناف مخصوصة بشرائط معلومة تؤخذ من مظانها) وسميت بذلك لأن المال ينمو ببركة إخراجها ودعاء الأخذ ، ولأنها تطهر مخرجها من الإثم وتمدحه حين تشهد له بصحة الإيمان[2] .

---

(١) تاج العروس للعلامة محمد مرتضى الزبيدى (١٠ : ١٦٤) ط/ منشورات دار مكتبة الحياة ــ بيروت ــ لبنان .

(٢) مغنى المحتاج إلى معرفة الفاظ المنهاج تأليف شمس الدين محمد بن أحمد الشربينى الخطيب (ت ٩٧٧) القاهرة ، مطبعة البابى الحلبى عام ١٩٥٨ م (١ : ٢٦٨) .

مكانة الزكاة في الإسلام

تعتبر الزكاة ركناً من أركان الإسلام الأساسية فهى فى المنزلة الثالثة بعد الشهادتين وإقامة الصلاة وإيتائها مع الشهادتين وإقامة الصلاة إيذان بدخول المرء فى الإسلام واستحقاقه لأخوة المسلمين . قال تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين)[1] .

وقد تكررت كلمة الزكاة معرفة فى القرآن الكريم فى ثلاثين موضعا والمتتبع للمواضع الثلاثين التى ذكرت فيها الزكاة يجد أن ثمانية منها فى السور المكية وسائرها فى السور المدنية[2] .

وقد فرضها الله تعالى بقوله عز وجل ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّموا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله إن الله بِما تَعْمَلُونَ بَصِير** ﴾[3] .

وجاءت السنة مؤكدة لها ومفصلة لأنصبتها .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ بعث معاذا رضى الله عنه إلى اليمن، فقال: ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخد من أغنيائهم وترد على فقرائهم[4] .)

إلى غير ذلك من الأحاديث التى سطرتها كتب السنة المطهرة .

---

(١) التوبة : ١١ .

(٢) باختصار حقق ذلك الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه فقه الزكاة (١ : ٤٢) .

(٣) البقرة : ١١٠ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٤ : ٤) .

فالزكاة فريضة واجبة يكفر جاحدها ، ويفسق مانعها ، ويقاتل تاركها وليس أدل على ذلك من أن الخليفة الصديق جهز أحد عشر لواء لمقاتلة من امتنعوا عن أدائها . وقال رضى الله عنه (والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقا[1] كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها)[2] .

(والزكاة ليست « تبرعا » يتفضل به غنى على فقير أو يحسن به واجد على معدم إنها أبعد من ذلك غوراً وأوسع أفقا .

إنها جزء هام من نظام الاسلام الاقتصادى ، ذلك النظام الفريد الذى عالج مشكلة الفقر أو مشكلة المال على وجه عام ، قبل أن تعرف الدنيا نظاما عنى بعلاج هذا الجانب الخطير من حياة الانسان)[3] .

ومن أعظم الأدلة على عناية الاسلام بالزكاة مع أن فرضيتها كانت فى العهد المدنى — هى عنايته بالزكاة منذ العهد المكى .

ولا بد لنا أن نشير إلى أن الزكاة فى مكة كانت زكاة مطلقة من القيود والحدود وكانت بحسب أريحية الشخص ولم يكن هناك داع للتحديد فقد كانوا رضى الله عنهم يضحون بأنفسهم وأموالهم وأهاليهم فى سبيل الله .

وأشير إلى بعض الآيات المكية التى حضت على الانفاق أو ذمت الامساك . قال تعالى : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رهينة ، إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين : ماسلككم فى سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين** ﴾[4] .

---

(١) بفتح المهملة وهى الصغيرة من الغنم . فتح البارى (٤ : ٦٤) .
وقال الجوهرى فى الصحاح (٤ : ١٥٣٤) الطبعة الرابعة ١٤٠٢ هـ بتحقيق احمد عبد الغفور عطار العناق : الانثى من ولد المعز . والجمع اعنق ، عنوق .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٤ : ٨) .

(٣) انظر العبادة فى الاسلام (ص ٢٣٩) د. يوسف القرضاوى .

(٤) المدثر : ٣٨ — ٤٤ .

قال تعالى يقص علينا قصة أصحاب الجنـة ﴿ **فانطلقـوا وهـم يتخافتـون ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** ﴾[1] .

وفى سورة الذاريـات قال تعـالى : ﴿ **وَفِـى أَمْوَالِهِـمْ حَقٌّ لِلسَّائِـلِ والمَحْرُوم** ﴾[2] .

وفى سورة فصلت ينـذر الله المشركين بالويـل لعـدم إيتائهـم الـزكاة ﴿ **وَوَيْـلٌ لِلْمُشْرِكِينَ.الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةْ هُمْ كَافِرون** ﴾[3] .

وفى سورة الأنعام ينبه سبحانه إلى نعمه التـى يخرجهـا من الأرض من الـزروع والثمار وأن فيها حقا يجب إخراجه يوم حصاده .

قال تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْـلَ والزَّرع مُخْتَلِفاً أُكُلَهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُـوا مَنْ ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَر وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لايُحِبُّ المُسْرِفِين** ﴾[4] .

وهنا يتبادر الى الأذهـان سؤال وهـو أن المعـروف فى تاريخ التشريـع الاسلامـى أن الزكاة فرضت فى المدينة فكيف نوفق بين هذا وذكر القـرآن لها فى آيـات كثيرة من سوره المكية ؟ .

والجواب : أن الزكاة التى ورد ذكرهـا فى القـرآن المكـى . لم تكـن ذات الـزكاة التى شرعت فى المدينة وفصلت وحـددت مقاديرهـا ، وأرسل السعـاة والجبـاة لجبـايتها وصرفها وأصبحت الدولة قائمة على تنظيمها وجعل بيت المال مكانا لحفظها .

فالزكاة فى مكـة كانت مطلقـة عن التحديـد بالزمـان والكـم موكولـة إلى إيمان الفرد وأريحيته وشعوره بواجب الاخوة نحو اخوانه من المؤمنين[5] .

---

(١) القلم : ٢٣ ــ ٢٤ .
(٢) الذاريات : ١٩ .
(٣) فصلت : ٦ ــ ٧ .
(٤) الانعام : ١٤١ .
(٥) بتصرف انظر فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوى (٦١) .

وإن الدارس للقرآن الكريم من جانب عرضه لتشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام وأخص بذلك تشريعه لفريضة الزكاة نجد أنه منذ أول عهد الدعوة توالت لآيات فى الحض على الزكاة ففى مطلع سورة لقمان المكية قال تعالى ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾[1] . وفى عطف إيتاء الزكاة على إقامة الصلاة دليل على أنها زكاة المال — كما هى سنة القرآن .

وفى سورة الأعراف المكية أيضا قال تعالى ﴿ **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[2] .

وفى سورة الروم وهى مكية أيضا ﴿ **وَمَا آتَيْتُمْ مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** ﴾[3] .

ثم تتحول الدول الاسلامية الى دار الهجرة وفى المدينة أصبح المسلمون فى مأمن لإقامة دولتهم وسلطانهم لهذا أخذت التكاليف الاسلامية صورة جديدة على خلاف ماكانت عليه فى السابق . فتميزت بالتحديد والتخصيص بعد الاطلاق والتعميم . وتميزت بالإلزام والحتمية بعد أن كانت وصايا توجيهية واعتمد فى تنفيذها على القوة والسلطان بجانب اعتمادها على الضمير والإيمان .

ومن تلك الآيات المدنية الآيات التى نزلت بشأن الزكاة فحدد الشارع نصاب الزكاة من الأموال وغيرها التى تجب فيها ، وشروط وجوبها والمقادير المعينة لإخراجها ، والمستحقين لها والذين لا يستحقونها بل تحرم عليهم ، والفئة المكلفة بتنظيمها وإدارتها .

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لسورة المؤمنون فى قوله تعالى ﴿ **والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** ﴾[4] .

---

(١) لقمان : ٤ .

(٢) الاعراف : ١٥٦ .

(٣) الروم : ٣٩ .

(٤) المؤمنون : ٤ .

الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال ، مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة والظاهر أن التى فرضت بالمدينة هى ذات النصب والمقادير الخاصة . وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة . قال تعالى فى سورة الأنعام ــ وهى مكية ــ ﴿ **وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ** ﴾[١] [٢] .

وقد وردت آثار تؤكد ماجاء به القرآن من وجوب الزكاة وذلك منذ العهد المكى نذكر منها على سبيل الاختصار ماأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه عن أم سلمة بنت أمية رضى الله عنها (فى الحديث الطويل عن هجرة الحبشة عندما تحدث جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه عند مخاطبته للنجاشى ويخبره رسول الله ﷺ ويقول له فيما قال له « وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام »)[٣] .

قال ابن حجر (وأولى ما حمل عليه حديث أم سلمة) أن المراد بقوله يأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام أى فى الجملة ، ولا يلزم من ذلك أن يكون المراد بالصلاة الصلوات الخمس ، ولا بالصيام صيام رمضان ، ولا بالزكاة هذه الزكاة المخصوصة ذات النصب والحول والله أعلم[٤] .

إذ أن هذه الفرائض لم تكن شرعت بعد .

---

(١) الأنعام : ١٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ : ٢٣٨) .

(٣) صحيح ابن خزيمة ص (١٣ ــ ١٤) .

(٤) فتح البارى لابن حجر (٤ : ٩) .

فرضية الزكاة

تبين لنا مما سبق أن الزكاة المطلقة غير المقدرة فرضت بمكة . لكن متى فرضت الزكاة المحدودة ؟ .

اختلف العلماء فى ذلك على أقوال وأرجح هذه الأقوال وأشهرها أنها فرضت فى السنة الثانية من الهجرة .

قال ابن كثير أثناء ذكره جملة من الحوادث سنة ثنتين من الهجرة : (وفيها فرضت الزكاة ذات النصب)[١] .

وقال الحافظ شرف الدين الدمياطى : « إنها (أى الزكاة) فرضت فى السنة الثانية من الهجرة بعد زكاة الفطر بدليل قول قيس بن سعد بن عبادة — وذكر الحديث .

وفى تاريخ الطبرى أنها فرضت فى السنة الرابعة من الهجرة[٢] .

وجزم ابن الأثير فى تاريخه أن فرض الزكاة كان فى السنة التاسعة من الهجرة . وفيه نظر ، وقوى بعضهم ماذهب اليه ابن الأثير بما وقع فى قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ففيها (لما نزلت آية الصدقات بعث النبى ﷺ عاملا فقال : ما هذه إلا جزية وأخت الجزية) والجزية إنما وجبت فى السنة التاسعة فتكون الزكاة فى التاسعة) .

قال ابن حجر : (ولكن الحديث ضعيف لا يحتج به)[٣] .

---

(١) البداية والنهاية (٣ : ٣٤٧) .

(٢) كشاف القناع على متن الاقناع للشيخ منصور بن يونس البهوتى المتوفى سنة ١٠٥١ هـ ط/ مطبعة الحكومة بمكة سنة ١٣٩٤ هـ . أنظر (٢ : ١٩٢) .

(٣) فتح البارى (٤ : ٨) .

الزكاة في العهد المدني

قبل الخوض فى الآيات الواردة فى الزكاة لا بد أن أشير إلى أن الزكاة الشرعية قد تسمى فى لغة القرآن والسنة صدقة وإلى ذلك نوه الماوردى فقال (الصدقة زكاة . والزكاة صدقة ، يقترن الاسم ويتفق المسمى)[١] .

قال تعالى : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾[٢] .

وقال تعالى ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُم** ﴾[٣] . . إلى آخر الآية .

وفى حديث إرسال معاذ إلى اليمن : (أعلمهم أن الله افترض عليهم فى أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم)[٤] .

والآيات الواردة بشأن الصدقة والزكاة كثيرة وسوف أستعرض بعضها لنعرف مدى عناية القرآن الكريم ولا سيما المدنى منها بفريضة الزكاة .

قال تعالى ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِين** ﴾[٥] .

وقال تعالى ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير** ﴾[٦] .

وفى الآيتين السابقتين يحث سبحانه وتعالى عباده المؤمنين على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن لهم النصر فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

---

(١) الاحكام السلطانية الباب (١١) باب ولاية الصدقات .

(٢) التوبة : ١٠٣ .

(٣) التوبة : ٦٠ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٤ : ٤) .

(٥) البقرة : ٤٣ .

(٦) البقرة : ١١٠ .

وقد أثنى الحق سبحانه وتعالى على الإنفاق فى سبيله فى عدة آيات متتالية فى سورة البقرة بدأها بقوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الذِين يُنْفِقونَ أَمْوالهمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبَلَةٍ مَائِةُ حَبَّةٍ واللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاء واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾[1] .

وقد حذر من الانفاق المصاحب للأذى فيحبط عملهم .

قال تعالى ﴿ الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيم . يأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذى كالذى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاس ﴾[2] . . الآية .

وختم سبحانه وتعالى الآيات بقوله ﴿ الَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] .

وفى سورة آل عمران المدنية توالت الآيات فى الحث على الانفاق فى سبيل الله . وأنه السبيل لدخول الجنة ولاسيما إذا كان الانفاق مما يحبه المنفق وكان ذلك عزيزا إلى نفسه وأن الله مطلع على ماينفقه عباده وعليم به .

فقال تعالى : ﴿ لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيم ﴾[4] .

واختلف فى المراد من (البر) فقيل الجنة . روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدى . والمعنى (لن تصلوا الى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون)[5] .

---

(١) البقرة : ٢٦١ .

(٢) البقرة : ٢٦٢ — ٢٦٤ .

(٣) البقرة : ٢٧٤ .

(٤) آل عمران : ٩٢ .

(٥) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (ص ١٣ — ٢٠) حديث رقم ١٠٥ .

وقيل (البر) العمل الصالح وفى الحديث الصحيح (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة)[1] .

قلت البر : اسم جامع للخير كله . والله أعلم .

وبعد أن بين سبحانه وتعالى نوعية الانفاق مما تكون توالت الآيات ببيان حال الانفاق وما ينتظره المنفق من الأجر عند الله تعالى .

قال تعالى ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ إلى قوله ﴿ **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾[2] .

فالمراد من الآيات أن المؤمنين المتقين ينفقون أموالهم فى جميع الأحوال فى الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض فى الليل والنهار فى السر والعلانية فلا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والانفاق فى مراضيه . لذا أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها[3] .

وبعد أن تحدثت الآيات عن صفة المنفقين فى سبيل الله من المؤمنين المتقين ذكرت السورة الكريمة نفقة الكافرين وصورتها فى بطلانها وذهابها وعدم منفعتها بالزرع الذى أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء بعدما كانوا يرجون فائدته ونفعه [4] .

قال تعالى ﴿ **مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾[5] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى (٤ : ١٣٣) .

(٢) آل عمران : ١٣٤ — ١٣٦ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٤٠٤) .

(٤) انظر تفسير القرطبى (٤ : ١٧٨) .

(٥) آل عمران : ١١٧ .

وفى سورة النساء المدنية يخبرنا عز وجل عن المنافقين الذين ينفقون أموالهم لا يقصدون بها وجه الله وإنما قصدهم بتلك النفقة أن يقال عنهم أنهم أهل الجود والبذل والعطاء ويمدحوا بالكرم وإنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان فإنَّه سول لهم وحسن لهم القبائح . قال تعالى يخبر بخبرهم ﴿ **والذينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهم رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤمِنونَ بِاللَّهِ وَلاَ باليَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً** ﴾ والقرين هو الصاحب والخليل ﴿ **وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُم اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيما** ﴾[1] .

أما سورة الأنعام فهى مكية بلا خلاف ما عدا بعض الآيات اختلف فيها والتى سبق أن أوضحتها فى أول البحث[2] . ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إنَّهُ لاَ يُحبُّ المُسْرِفين** ﴾[3] .

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية مدنية وأن قوله تعالى ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ يعنى الزكاة ، والزكاة لم تفرض إلا فى المدينة وقد فصل القول فى هذه الآية أبو جعفر النحاس ورد على من زعم أن المراد من الآية الزكاة .

قال : (أما القول بأنها الصدقة المفروضة فيعارض بأشياء منها أن هذه السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة لاتنازع بين العلماء فى ذلك .. ومنها أن قوله ﴿ **يوم حصاده** ﴾ لو كان للزكاة المفروضة وجب أن يعطى وقت الحصاد وقد جاءت السنة وصحت أن الزكاة لا تعطى إلا بعد الكيل .

---

(١) النساء : ٣٨ ـــ ٣٩ .

(٢) راجع (ص ١٢٨) من بحثنا هذا .

(٣) الأنعام : ١٤١ .

وأيضا فإن فى الآية (ولا تسرفوا) فكيف يكون هذا فى الزكاة وهى معلومة وأيضا فلو كان هذا فى الزكاة لوجب أن تكون الزكاة فى الثمر وفى كل ما أنبتت الأرض وهذا لا يقوله أحد نعلمه من الصحابة ولا التابعين ولا الفقهاء إلا بعض المتأخرين ممن خرج عن الاجماع .

ولم يختلف العلماء فى أن فى أربعة أشياء منها الزكاة (الحنطة والشعير ، والتمر والزبيب) فهذا اجماع)[1] .

وأخيراً فإن المراد من الآية الصدقات وليس الزكاة والله أعلم .

---

(١) باختصار من كتاب الناسخ والمنسوخ لابى جعفر النحاس (ص ١٣٩ — ١٤٠) .

نموذج من السور المدنية في عنايتها بالزكاة

سـورة التوبـة

وتعتبر سورة التوبة من أعظم السـور المدنية عناية بفريضـة الزكـاة ففى مطلع هذه السورة الكريمة يأمر عز وجل بقتال المشركين الناكثين للعهود ومظاهرتهم العداء على رسول الله ﷺ فقد جعل لهم مهلة وهى انقضاء الأشهر الحرم . يختارون لأنفسهم مايرضيهم . قال تعالى ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾[1] أى فإذا انقضى ومضى وخرج ويعنى بالأشهر الحرم : ذا القعدة وذا الحجة والمحرم . وأريد فى هذا الموضع انسلاخ المحرم وحده ، لأن الأذان كان ببراءة يوم الحج الأكبر فمعلوم أنهم لم يكونوا أجلوا الأشهر الحرم كلها . ولكنه لما كان متصلا بالشهرين الآخرين قبله الحرامين وكان هو لهما ثالثا وهى كلها متصلة بعضها ببعض قيل : ﴿ **فاذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾.

وخلاصة معنى الآية : (فاذا انقضت الأشهر الحرم الثلاثة عن الذين لا عهد لهم . أو عن الذين كان لهم عهد فنقضوا عهدهم بمظاهرتهم العداء على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضى الله عنهم أو كان عهدهم إلى أجل غير معلوم (فاقتلوا المشركين) أى حيث وجدتموهم فى الحرم وغير الحرم فى الأشهر الحرم وغير الأشهر الحرم (وخذوهم) أى وأسروهم (واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أى واقعدوا لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم كل مرصد يعنى كل طريق ﴿ **فَإِن تَابُوا . وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ . فهذه ثلاثة شروط للكف عن قتال هؤلاء وتخلية سبيلهم .

الأول : (فإن تابوا) أى فإن رجعوا عما نهاهم عنه من الشرك بالله وجحود نبوة نبيه محمد ﷺ إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد .

الثانى : (وأقاموا الصلاة) وأدوا مافرض الله عليهم من الصلاة بحدودها وشروطها .

---

(١) التوبة : ٥ .

الثالث : (وآتوا الزكاة) أى وأعطوا الزكاة التى أوجبها الله عليهم فى أموالهم .

(فخلوا سبيلهم) أى فدعوهم يتصرفون فى أمصاركم ويدخلون البيت الحرام (إن الله غفور رحيم) لمن تاب من عباده[1] .

وبعد ست آيات من السورة نفسها قال تعالى فى شأن قوم آخرين من المشركين ﴿ **فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكَاةَ فإِخوانُكُمْ فِي الدِّين وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلمُون** ﴾[2] .

فلا يتحقق لكافر الانضمام لرابطة المسلمين وتثبت له أخوتهم الدينية وينال حقوقه الاجتماعية إلا بالتوبة عن الشرك وإيمانه بالله ورسوله وإقامة الصلوات بفرائضها وسننها . وايتاء الزكاة التى بها يتكافلون ويتحابُّون .

أخرج الطبرى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (أمرتم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزك فلا صلاة له)[3] .

ثم ذكر عز وجل يمتدح عمار المساجد الذين آمنوا بالله واليوم الآخر من أهل القبول عنده وهؤلاء لا يكونون عمروها بحق إلا باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وخشية الله وحده فأولئك عمارها .

قال تعالى ﴿ **إنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاّ اللَّه . فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِين** ﴾[4] .

---

(١) بتصرف انظر تفسير الطبرى (١٠ : ٧٧ ـــ ٧٨) .
(٢) التوبة : ١١ .
(٣) تفسير الطبرى (١٠ : ٨٧) .
(٤) التوبة : ١٨ .

اثم مانع الزكاة

قال تعالى ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُم اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ وَلِلَّهِ مِيراثُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُون خَبِير ﴾[1] .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى بشدقيه ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا ــ لا يحسبن الذين يبخلون ــ الآية[2] .

وقال تعالى فى سورة التوبة : ﴿ وَالّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكوَى بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَاكَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَاكُنْتُمْ تَكنِزُونَ ﴾[3] .

قال العلماء : (إنما عظم الوعيد فى هذا الباب لما فى اختلاف العباد من الشح على المال والبخل به ، فإذا خافوا من عظيم الوعيد لانوا فى أداء الطاعة)[4] .

واختلف العلماء فى المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أو لا ؟ فقال قوم نعم .. وقال قوم ما أديت زكاته منه أو من غيره عنه فليس بكنز قال ابن عمر : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين . وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض .. وهو الصحيح[5] .

---

(١) آل عمران : ١٨٠ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الزكاة (٤ : ١٢ ، ١٣) .

(٣) التوبة : ٣٤ ـــ ٣٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربى (٢ : ٩٣٦) .

(٥) تفسير القرطبى (٨ : ١٢٥) ، تفسير سورة التوبة .

ومن الوعيد الشديد لمانع الزكاة ماحكاه لنا القرآن الكريم فى سورة التوبة أيضا قال تعالى : ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ . بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُون فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُون** ﴾[١] .

قال الألوسى[٢] فى تفسيره :

(أخرج الطبرانى والبيهقى فى الدلائل وابن المنذر وغيرهم عن أبى امامة الباهلى[٣] قال: ... وذكر الحديث بطوله) .. (وكذلك أخرجه ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس ــ وذكر الحديث بطوله أيضا)[٤] .

وذكر القصة أيضا السيوطى فى لباب النقول وضعفها وقال : (بسند ضعيف)[٥] .

وخلاصة القصة كما رواها المفسرون (أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال النبى ﷺ قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه فدعا له رسول الله ﷺ واتخذ غنما فنما كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فخرج منها وتخلف عن الصلاة ونما وكثر غنمه حتى جاء عامل الصدقة مرسلا من رسول الله ﷺ حين فرضت الزكاة ليأخذ زكاته فقال ماهذه إلا أخت الجزية ونزلت فيه الآيات السابقة من قوله ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله** ﴾ الى قوله ﴿ **وبما كانوا يكذبون** ﴾ .

وفى القصة ذكر أن النبى ﷺ مات ولم يقبل منه الصدقة ولا أبوبكر ولا عمر وأنه مات فى خلافة عثمان .

---

(١) التوبة : ٧٥ ــ ٧٧ .

(٢) تفسير الألوسى (١٠ : ١٤٣) .

(٣) صدى بن عجلان ويقال ابن عمرو (أبو امامة الباهلى) الصحابى روى عن النبى ﷺ وعمر وعثمان وعلى . قال ابن سعد سكن الشام ، وقال ابن عيينة هو آخر من مات من الصحابة بالشام واختلف فى سنة وفاته . تهذيب التهذيب : (٤ : ٤٢٠) .

(٤) تفسير الطبرى : (١٠ : ١٨٨ ــ ١٩٠) ، والواحدى (ص ١٧٠ ــ ١٧١) .

(٥) لباب النقول فى أسباب النزول (ص ١٢١) .

قال ابن حجر : بعد أن ذكر ترجمته وطرفا من القصة (ولا أظن يصح ــ أى أن صاحب القصة هو ثعلبة بن حاطب ــ هو البدرى .. وقد ثبت أن النبى قال لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية . وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1] فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقا فى قلبه وينزل فيه ما نزل . فالظاهر أنه غيره . والله أعلم)[2] .

قلت : لاشك فى صحة القصة وأنها وقعت فعلا ونزل فيها قرآن لكن ليست فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى الصحابى البدرى المشهور وإنما وقعت لرجل يسمى ثعلبة من المنافقين والله أعلم .

قال ابن هشام : (معنب بن قشير ، وثعلبة والحارث ابنا حاطب وهم من بنى أمية بن زيد ، من أهل بدر وليسوا من المنافقين ، فيما ذكر لى من أثق به من أهل العلم . وقد نسب ابن اسحاق ثعلبة والحارث فى بنى أمية بن زيد فى أسماء أهل بدر)[3] .

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٨ : ٣٦٦ ، ٣٠٧) فى كتاب المغازى ــ غزوة بدر .

(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة (١ : ١٩٨) .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٦٩) .

مصارف الزكاة

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] .

يخبر سبحانه وتعالى عن الذين ينبغى أن تقسم عليهم الزكاة من الفقراء والمساكين وبقية الأصناف الثمانية . فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم وفهم ذلك من قوله تعالى (إنما) وهى تفيد الحصر فى وقف الصدقات على الأصناف الثمانية .

وقوله تعالى (للفقراء والمساكين) وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين . قال أبو جعفر الطبرى بعد أن ذكر العديد من الأقوال (وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب من قال الفقير : هو ذو الفقر أو الحاجة ومع حاجته يتعفف عن مسألة الناس والتذلل لهم فى هذا الموضع).

والمسكين : هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم[2] . والمسألة خلافية[3] .

قال تعالى (أو مسكينا ذا متربة) أى لا شىء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب . قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذى لا بيت له . قال مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره[4] .

(والعاملين عليها) وهم السعاة لجباية الصدقة . قال الطبرى وهم السعاة فى قبضها من أهلها ووضعها فى مستحقيها يعطون ذلك بالسعاية أغنياء كانوا أو فقراء[5] .

---

(١) التوبة : ٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى (١٠ : ١٥٩) .

(٣) يراجع تفسير الرازى (ص ١٠٧ — ١١٠) .

(٤) أنظر تفسير القرطبى (٢٠ : ٧٠) .

(٥) تفسير الطبرى (١٠ : ١٦٠) .

(والمؤلفة قلوبهم) هم قوم من أشراف العرب أعطاهم رسول الله ﷺ ليتألف قلوبهم على الاسلام . أخرج الطبرى بسنده عن الزهرى قال : قال صفوان ابن أمية لقد أعطانى رسول الله ﷺ وإنه لأبغض الناس إلىَّ فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ[1].

(وفى الرقاب) أى وفى فك الرقاب لتخليصهم من الرق .

(والغارمين) أى الذين استدانوا فى غير معصية الله ، ثم لم يجدوا ما يقضون به دينْهم .

(وفى سبيل الله) أى المجاهدين والمرابطين وماتحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد .

(وابن السبيل) الذى انقطع فى سفره عن ماله .

(فريضة من الله) أى فرضها الله جل وعلا وحددها فيحرم إخراجها عن هذه الأصناف التى فرضها الله تعالى لعباده وهو العليم بهم والمطلع على أحوالهم ولم يترك تقسيمها لأحد بل تولى قسمتها بنفسه (والله عليم حكيم) فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى من جملتها إعطاء الحقوق لمستحقيها[2] .

---

(١) تفسير الطبرى (١٠ : ١٦٢) .

(٢) انظر تفسير الألوسى (١٠ : ١٢٠ — ١٢٥) .

حكمة مشروعيتها

لم يشرع الله لنا فريضة من فرائض هذا الدين الحنيف إلا ولها حكمة تعود على الفرد والمجتمع . ولفريضة الزكاة حكم وأهداف من وراء مشروعيتها . وتلك الحكم تعود على المعطى وعلى الآخذ فى آن واحد .

أما بالنسبة للمعطى والمتصدق . فلقد عبر القرآن الكريم عن المقصود والهدف من زكاته فأجمل ذلك فى كلمتين ، ينطوى تحتهما الكثير من أهداف الزكاة وهاتان الكلمتان هما (التطهير ، والتزكية) قال تعالى ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** ﴾[1] . ومن تلك الأهداف العائدة إلى المعطى ما يلى :

(١) كسر سورة النفس بحبها للمال :

إن المال محبوب بالطبع . وإن الاستغراق فى حبه يذهل النفس عن حب الله وعن التأهب للآخرة فاقتضت حكمة الشرع تكليف مالك المال بإخراج طائفة منه من يده ، ليصير ذلك الاخراج كسراً من شدة الميل إلى المال ، وتنبيهاً للنفس على أن سعادة الانسان لا تحصل عند الاشتغال بطلب المال . وإنما تحصل بإنفاق المال فى طلب مرضاة الله تعالى .

فايجاب الزكاة علاج صالح متعين لازالة مرض حب الدنيا عن القلب فالله سبحانه أوجب الزكاة لهذه الحكمة وهى المراد من قوله ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا** ﴾ أى تطهرهم وتزكيهم عن الاستغراق فى طلب الدنيا[2] .

---

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) أنظر تفسير الرازى (١٦ : ١٠٠ — ١٠١) .

(٢) القسوة والطغيان من أسبابها كثرة المال :

إن كثرة المال سبب لحصول الطغيان والقسوة فى القلب وإلى ذلك أشار قوله تعالى ﴿ **كَلَّا إِنَّ الانْسَانَ لَيَطْغَى . أن رَآهُ اسْتَغْنَى** ﴾[١] فايجاب الزكاة يقلل الطغيان ويرد القلب إلى طلب رضوان الرحمن[٢] . وفى ذلك تدريب للنفس على خلق البذل والعطاء والانفاق ومن ثم تصبح صفة الانفاق صفة أصيلة من صفاته وخلقا عريقا من أخلاقه .

(٣) الانفاق فى سبيل الله من صفات الكمالات :

إن الانسان إن استطاع أن يخلع عنه ثياب الشح والبخل وارتدى ثياب البذل والانفاق بذلك يكون قد ارتقى من حضيض الشح الانسانى (وكان الانسان قتورا)[٣] واقترب من أفق الكمالات (الربانية) فإن من صفات الحق تبارك وتعالى إفاضة الخير والرحمة والجود والاحسان دون نفع يعود عليه . فاكتساب هذه الصفات وممارستها بقدر الامكان تخلق بأخلاق الله وذلك منتهى الكمالات الانسانية .

قال الرازى : (إن إفاضة الخير والرحمة من صفات الحق سبحانه وتعالى ، والسعى فى تحصيل هذه الصفة بقدر القدرة تخلق بأخلاق الله وذلك منتهى مكملات الانسانية)[٤] .

(٤) توفر النعم فى يد الانسان توجب شكر المنعم سبحانه :

الزكاة توقظ فى نفس معطيها معنى الشكر لله تعالى والاعتراف بفضله عليه وإحسانه إليه .

قال الغزالى فى شكر النعمة (فإن لله عز وجل على عبده نعمة فى نفسه

---

(١) العلق : ٦ — ٧ .
(٢) انظر التفسير الكبير للرازى (١٦ : ١٠١) .
(٣) الاسراء : ١٠٠ .
(٤) التفسير الكبير للرازى (١٦ : ١٠١ — ١٠٢) .

وفى ماله فالعبادات البدنية شكرا لنعمة البدن والمالية شكرا لنعمة المال وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج اليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدى شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله)[1] .

(٥) إخراج الزكاة وعدم كنز الأموال مدعاة إلى نشاط الحركة التجارية :

إلى غير ذلك من الأهداف السامية من نشر روح الأخوة والمحبة بين طبقات المجتمع ، وتحصين المال من الأخطار والبلواء ولاسيما فى هذا العصر الذى ادلهمت فيه الخطوب وكثرت فيه الفتن . وقد قال ﷺ فيما يروى عنه (حصنوا أموالكم بالزكاة)[2] ويفهم منه أن المال الذى تؤدى زكاته يكون محصنا من السرقة والحريق والغرق وغير ذلك .

أما الأهداف والمصالح العائدة إلى من يأخذ الزكاة فمنها :

(١) الزكاة تحرر آخذها من الوقوع فى المحرمات :

شاءت حكمة الله اختلاف الناس فى الأرزاق فتجد الغنى والمتوسط والمكتفى وتجد الفقير الذى لايجد مايكفيه . ﴿ **واللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ** ﴾[4] . فعندما فرض الاسلام الزكاة وأوجبها على الأغنياء منهم حتى يأخذوا بيد الفقير ويعاونوه على مواجهة الحياة ومتطلباتها فإذا حرم الأغنياء الفقراء زكاة أموالهم كان ذلك سببا فى هلاك الفقير وحرمانه فيحمله ذلك الحرمان على السرقة والنهب وربما أودى به الى القتل وربما باع عرضه وشرفه لأجل لقمة عيش .

فالزكاة حصن حصين للفقير من الوقوع فى كثير من المهالك والشرور .

---

(١) الاحياء للغزالى (١ : ٢١٥) ط/ دار احياء الكتب العربية البابى الحلبى وشركاه .

(٢) رواه أبو داود فى المراسيل ورواه الطبرانى والبيهقى وغيرهما من الصحابة مرفوعا متصلا . قال المنذرى : المرسل أشبه ا.هـ . فقه الزكاة للقرضاوى (٢ : ٨٦٧) .

(٣) النحل : ٧١ .

(٤) العنكبوت : ٦٢ .

(٢) الزكاة تطهير لآخذها من الحسد والبغضاء :

كذلك من المساوىء التى تقع لحرمان الفقير من الزكاة وقوعه فى آفات نفسية خطيرة كالحسد والمقت . فقد يحصنه إيمانه من الوقوع فى تلك المحرمات التى سبق الاشارة إليها من القتل والسلب والنهب ، لكن قد لا يسلم من داء الحسد والكراهية . فاذا ما عضته أنياب الفقر والحرمان ورأى حوله جيرانه بل ربما أقاربه ينعمون بالخير ويعيشون فى الرغد ولا ينظرون إلى حاله وما يقاسيه من الفقر والحرمان فإن هذا الانسان لا يسلم قلبه من البغضاء والحقد والمقت على مجتمعه ولا يخفى ما للحسد والبغضاء من آفات فتاكة قاتلة. فالفرد الذى يغزو قلبه الحسد وتحتله الضغينة لن يكون إنسانا كامل الايمان . لأن القلب لا يسع الايمان بالله مع الحقد على عباد الله .

* * *

ثالثاً : الصيـــام

الصيام فى اللغة :

الإمساك عن الشيء والترك له .

قال أبوعبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم[1] .

قال تعالى مخبرا عن مريم عليها السلام ﴿ **إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً** ﴾[2] أى سكوتا عن الكلام .

والصيام فى الشرع[3] :

الامساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وتمامه وكماله باجتناب المحظورات ، وعدم الوقوع فى المحرمات لقوله ﷺ : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)[4] .

وقيل للصائم صائم لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح .

وقال الراغب : الصوم فى الأصل الامساك عن الفعل ولذلك قيل للفرس الممسك عن السير صائم .

وفى الشرع : إمساك المكلف بالنية عن تناول المطعم والمشرب والاستمناء والاستيقاء من الفجر إلى المغرب[5] .

فرضيتـه

كان وجوبه فى شعبان من السنة الثانية من الهجرة[6] .

---

(١) انظر لسان العرب (ص ٣٥٠ — ٣٥١) ، الصحاح للجوهرى (٥ : ١٩٧٠) تحقيق العطار .

(٢) مريم : ٢٦ .

(٣) تفسير القرطبى (٢ : ٢٧٣) .

(٤) رواه البخارى فى كتاب الصوم باب من لم يدع قول الزور والعمل به فى الصوم ، صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٥ : ١٨) .

(٥) المفردات للراغب (ص ٢٩١) .

(٦) انظر البداية والنهاية (٣ : ٢٥٤) .

وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ - إلى قوله - لعلّهم يرشدون ﴾[1]

ماجاء فى وجوب صوم رمضان

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ .

هذه الآية الكريمة مدنية من سورة البقرة المدنية باتفاق . حيث شرع الله سبحانه وتعالى عبادة الصيام على الندب . ثم إنه تعالى أوجبها بقوله ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآن ..﴾ الآية .

وقد خاطب سبحانه وتعالى عباده مناديا لهم بلفظ الايمان ليحرك فيهم **مشاعر** الطاعة فتستجيب نفوسهم وأفئدتهم لما كتبه الله عليهم حيث فرض عليهم الصيام .

وقوله تعالى ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى فرض عليكم كما فرض على الأمم ممن قبلكم ممن كانوا أصحاب كتب ورسالة .

(ومذهب الجمهور أن الذى كتب على الأمم قبلنا مطلق الصوم لا رمضان نفسه)[2] .

وحكمة التشبيه تأكيد الحكم والتسلية لعباده .

وأما التشبيه فإنما وقع على الفرضية وذلك أن من كان قبلنا إنما فرض عليهم الصيام مثل الذى فرض علينا سواء .

(**لعلكم تتقون**) أى لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه .

قوله (**أياما معدودات**) أى أيام شهر رمضان[3]. وهى أيام معدودات قلائل فلم يفرض علينا الدهر كله رحمة بنا . ثم بين الأسباب التى تبيح للمكلف الفطر لها . قال تعالى (**فمن كان منكم مريضا**) أى مرضا يعسر عليه الصوم معه (أو على سفر) يشق عليه الصوم فيه فأفطر فى كلتا الحالتين (**فعدة**) أى فعلية عدة

---

(١) البقرة : ١٨٣ ــ ١٨٦ .

(٢) الفكر السامى تأليف محمد بن الحسن الحجوى الثعالبى الفاسى (١٢٩١ ــ ١٣٧٦ هـ) (١ : ١١٥) الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة **للنمنكاني** .

(٣) انظر الطبرى (٢ : ١٣٢) .

ما أفطر (**من أيام أخر**) يصومها بدله .

(**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**) أى وعلى الذين يستطيعون صيامه إذا أفطروا عليهم فدية طعام مسكين لكل يوم[١] . وكان ذلك فى بدء الاسلام فلقد خيروا بين الصوم وبين الافطار والفدية ثم نسخ بتعيين الصوم .

أخرج البخارى بسنده عن يزيد مولى سلمة بن الأكوع عن سلمة قال لما نزلت ــ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ــ كان من أراد أن يفطر ويفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها[٢] .

وقد روى البخارى أيضا فى كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ **أياما معدودات**﴾ . **الخ** عن عطاء سمع ابن عباس رضى الله عنه يقول : (وعلى الذين يطوقونه[٣] فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ) . قال ابن عباس : (ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فليطعما مكان كل يوم مسكينا) .

قال ابن حجر : (هذا مذهب ابن عباس وخالفه الأكثر وكان هذا فى أول الأمر عند الأكثر ثم نسخ وصارت الفدية للعاجز إذا أفطر)[٤] . وقد ذكر ذلك فى كتاب الصيام من حديث ابن أبى ليلى قال حدثنا أصحاب محمد ﷺ لما نزل رمضان شق عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه ورخص لهم فى ذلك فنسختها وأن تصوموا خير لكم .

ثم يقول ابن حجر (وأما على قراءة ابن عباس فلا نسخ لأنه يجعل الفدية على من تكلف الصوم وهو لا يقدر عليه فيفطر ويُكَفِّر وهذا الحكم باق)[٥] .

وقوله ﴿ **فمن تطوع خيراً فهو خير له** ﴾ بأن زاد على المد أو فى عدد المساكين فهو خير له ﴿ **وان تصوموا خير لكم** ﴾ من الافطار والفدية (**إن كنتم**

---

(١) صفوة التفاسير ٢ : ١٢١) للشيخ الصابونى .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب التفسير باب قوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) (٩ : ٢٤٧) .

(٣) يُطوّقونه بفتح الطاء وتشديد الواو مبيناً للمفعول وهذه قراءة ابن مسعود أيضاً .

(٤) فتح البارى (٩ : ٢٤٦ ، ٢٤٧) .

(٥) فتح البارى (٩ : ٢٤٧) .

تعلمون ﴾ ما فى الصوم من الفضيلة .

ونستطيع أن نلخص المعانى السامية التى وردت فى الآية فى نقاط :

(١) أن الآية الكريمة دلت على عظيم فضل الله وسعة رحمته بعباده فقد بين الله سبحانه فى أول الآية أن شريعة الصيام لم تكن بدعا من الشرع بل كانت لنا فيها أسوة فقد كانت مكتوبة على من قبلنا من الأمم .

(٢) ثم بينت الآية وجه الحكمة فى إيجاب الصوم وهو أنه سبب قوى فى حصول التقوى .

(٣) أنه سبحانه وتعالى لم يكلفنا بما يشق بل كلفنا أياما معدودات وهى وإن قلت فجزاؤها جزيل . وفضل الله واسع والله ذو الفضل العظيم .

ثم بين جل شأنه أنه خص هذه الأيام بالشهر الذى أنزل فيه القرآن لمزيد الشرف فقال تعالى ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾[١] ومعنى أنزل القرآن فيه وقد أنزل القرآن فى غيره أيضا أنه ابتدأ إنزاله فى رمضان والحوادث الجسام تؤرخ وتنسب إلى أول أوقاتها .

وفى الآية إشارة إلى العلة من تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة ذلك أن الله سبحانه أنزل القرآن الكريم وهو من أعظم آيات الربوبية فلا يبعد أيضا تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية وهو الصوم وبذلك ثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة فلما كان هذا الشهر مختصا بنزول القرآن ، وجب أن يكون مختصا بالصوم[٢] .

وقوله تعالى ﴿ **هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾ حالان من القرآن أى أنزله حال كونه هداية بما فيه من الاعجاز وغيره ، وآيات واضحة مرشدة إلى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام . وهذا ثناء ومدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب عباده ممن آمن به وصدق بما جاء فيه .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) انظر تفسير الرازى (٥ : ٨٤) .

وقوله تعالى ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ أى من شهد الشهر بمعنى حضر ولم يكن مسافرا (فليصمه) .

قال جمهور الأمة : (من شهد أول الشهر وآخره فليصم مادام مقيما ، فإن سافر أفطر . وهذا هو الصحيح وتدل عليه الأخبار الثابتة)[1] والآية عامة ويخصصه قوله تعالى ﴿ **ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ . أى من كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه (أو كان على سفر) أى فى حالة السفر فله أن يفطر فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ أى إنما رخص لكم فى الفطر فى حالة المرض والسفر مع تحتمه فى حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم .

(**ولتكملوا العدة**) أى لتكملوا عدة شهركم .

(**ولتكبروا الله على ماهداكم**) أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم .

(**ولعلكم تشكرون**) أى إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم تكونون من الشاكرين بذلك[2] .

---

(١) تفسير القرطبى (٢ : ٢٩٩) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٢١٧ ــ ٢١٨) .

الحكمة من مشروعية الصيام

لاشك أن لجميع العبادات من وراء مشروعيتها حكمة تعبدية وهى الأصل ، لكن العلماء استشفوا بما وردت بين أيديهم من النصوص حكما لتلك العبادات سطروها فى كتبهم ومن تلك الحكم :

(١) الصيام يحرر الانسان من عبودية العادات ، فإن الصيام يقلب العادات رأسا على عقب ويعلم الانسان نوعا من المرونة حتى لا يتصرف تصرف الآلة .

(٢) الصيام له تأثير بالغ فى تخفيف الأمراض التى تنتاب الأعضاء الظاهرة والباطنة . ولقد استفاد الطب من ناحية الصوم مالم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير .

(٣) الصيام ينبه الأغنياء المُمسِكين فيجعلهم يحسون بألم الجوع فيحسنون إلى الفقراء وبذلك يتم العطف والمودة ، وينشأ عنها تماسك المجتمع وسعادته .

(٤) الصيام ينمى لدى الفرد الارادة ويقوى العزيمة ويكسب الاخلاص والصبر .

(٥) وأخيرا فإن الصيام يهذب النفوس ويصفى الروح[١] .

والدارس للآيات الكريمة الواردة فى مشروعية الصوم يستوحى منها الحكمة المنشودة من الصيام .

قال تعالى ﴿ **يَأَيُّها الذين آمنوا كُتِبَ عَليكُمُ الصيامُ كما كُتِبَ على الذين من قَبلكم لعلكم تتقون**﴾[٢] فقوله تعالى ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ .. قال البقاعى أى تجعلون بينكم وبين إسخاط الله وقاية بالمسارعة إليه رجاء لرضى ربكم وخوفا ممن سبق من قبلكم ، لتكون التقوى لكم صفة راسخة فتكونوا ممن جعلت الكتاب هدى لهم فإن الصوم يكسر الشهوة فيقمع الهوى فيروع عن موافقة السوء)[٣] .

---

(١) انظر العبادة احكام واسرار (ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦) للدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله ط/ دار الكتاب اللبنانى .

(٢) البقرة : ١٨٣ .

(٣) تفسير البقاعى (٣ : ٤٤) .

فالحكمة من مشروعية الصيام هو رجاء حصول التقوى فإن الصوم يضعف الشهوة ويردعها كما قال عليه الصلاة والسلام (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه وجاء له)[1] .

وكذلك فى قوله تعالى ﴿ وان تصوموا خيرا لكم ﴾ فى الآية إشارة إلى أن الصائم ينال كل الخير من الصيام . والخير نكرة فى الآية فيشمل كل أنواع الخير فينال الخير فى رزقه وجسمه وصحته كما جاء فى الحديث (صوموا تصحوا)[2] . وكذلك الحديث القدسى (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى)[3] .

وقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُون ﴾[4] .

لا بد قبل الخوض فى تفسير هذه الآية الكريمة من الاشارة إلى مناسبتها بين آيات الصيام . ذلك أن شهر رمضان موسم من أعظم المواسم للتعرض لنفحات الحق سبحانه وتعالى وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار .

أخرج الامام أحمد[5] فى مسنده والترمذى[6] فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم ..)الخ الحديث . إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى فضل هذا الشهر وأنه شهر الدعاء والمغفرة فناسب ذكر هذه الآية إشارة إلى أن شهر رمضان موطن هذا الدعاء وأنه عز وجل رقيب على عباده وقريب منهم يسمع دعاءهم فيستجيب لعباده الطائعين الصائمين الذين استجابوا لأوامره وانتهوا عما نهاهم عنه والله أعلم .

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب النكاح باب من لم يستطع الباءة فليصم (١١ : ١٢ — ١٣) .

(٢) ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة ص ٢٣٦ . وعزاه إلى أبو نعيم فى (الطب) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٢ : ٤٩١) كتاب اللباس .

(٤) البقرة : ١٨٦ .

(٥) مسند الامام أحمد (٢ : ٣٠٥) .

(٦) سنن الترمذى (٤ : ٦٧٢) .

أما سبب نزول الآية فقد أخرج ابن أبى حاتم وابن جرير الطبرى[1] أن أعرابيا قال يارسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه . فأنزل الله (**وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب**)[2] .

وقوله ﴿ **فإنى قريب** ﴾ أى فقل لهم إنى قريب . وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب[3] .

﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم** ﴾[4] . وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما أخرجه البخارى بسنده عن البراء رضى الله عنه قال : كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الافطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى وأن قيس بن مخرمة الانصارى كان صائما فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام فقالت : لا ، ولكن انطلق فاطلب لك . وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رأته : قالت خيبة لك . فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبى ﷺ . فنزلت هذه الآية ــ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ــ ففرحوا بها شديداً ــ ونزلت ــ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر[5] .

(والرفث) كناية عن الجماع . وايثاره هنا على ماكنى به عنه فى جميع القرآن من التغشية والمباشرة واللمس والدخول ونحوها استقباح . لما وجد منهم قبل الاباحة . ولذا سماه اختيانا فيما بعد ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ أى هن سكن لكم وأنتم سكن لهن .

---

(١) تفسير الطبرى (٢ : ١٥٨) .

(٢) ابن كثير (١ : ٢١٨) .

(٣) انظر تفسير ابى السعود (١ : ٢٠٠) .

(٤) البقرة : ١٨٧ .

(٥) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٥ : ٣١) كتاب الصوم .

﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ الاختيان ابلغ من الخيانة ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيض حظها من الثواب[1] .

وقوله تعالى ﴿ وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ ﴾ أخرج البخارى بسنده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال لما نزلت .. حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ــ عمدت إلى عقال[2] أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتى ، فجعلت أنظر فى الليل فلا يستبين لى فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال : إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار[3] .

وقوله ﴿ وابتغوا ماكتب الله لكم ﴾ أى واطلبوا ماقدره الله لكم فى اللوح من الولد .

وقوله ﴿ ولاتباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ .

الاعتكـــاف : لغة الملازمة .

وفى الشرع : ملازمة طاعـــة مخصوصة فى وقت مخصوص على شرط مخصوص فى موضع مخصوص .

وعن قتادة (كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون فى المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام مفسد له . لأن النهى فى العبادات يوجب الفساد)[4] .

(**تلك حدود الله فلا تقربوها**) أى هذه الأحكام حدود الله فلا تخالفوها .

(**كذلك يبين الله آياته للناس**) أى كما بين هذه الحدود يبين جميع الأحكام لتتقوا مجاوزتها .

(**لعلهم يتقون**) أى لعلهم يتقون مخالفة أوامره ونواهيه ولعل سائلا يسأل ماهى الحكمة من ذكر الاعتكاف بعد ذكر بعض أحكام الصيام ؟

---

(١) تفسير أبى السعود (١ : ٢٠١) .

(٢) العقال المراد به الخيط .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٥ : ٣٤) كتاب الصوم .

(٤) انظر أبى السعود (١ : ٢٠٢) .

والجواب كما قال البقاعى :

(لما كان الصوم شديد الملابسة للمساجد والاعتكاف وكانت المساجد مظنة للاعتكاف . وكان سبحانه قد أطلق فى صدر الآية الاذن فى الوطء فى جميع الأماكن والأحوال غير حال الصوم خص من سائر الأحوال الاعتكاف ومن الأماكن المساجد. فعقب ذلك بأن قال ﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد** ﴾[1] [2] .

(١) البقاعى (٣ : ٨٩) (نظم الدرر) .

(٢) من أراد معرفة بعض أحكام الاعتكاف فعليه مراجعة كتب الفقه .

رابعـــاً : الحــج

الحج لغة : القصد . ورجل محجوج أى مقصود .

قال ابـن السكـيت : يكثرون الاختـلاف إليــه ، هذا الأصل . ثم تعــورف استعماله فى القصد إلى مكة للنسك ، والحج إلى البيت خاصة[1] .

الحج شرعـا : الـقصد الى البيـت الحرام على وجـه التعـظيم بأفعـال مخصوصة كالطواف والسعى والوقوف بعرفة محرما بنية الحج[2] .

مشروعيته : اختلـف العلمـاء فى السنـة التـى شرع فيها . فالجمهـور على أنها سنة ست لأنها نزل فيها قوله تعالى ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ وهذا ينبنـى على أن المراد بالاتمام ابتداء الفـرض ويؤيـد قراءة علقمـة ومسروق وإبـراهيم النخعـى بلفـظ ــ وأقيموا ــ أخرجه الطبرى بأسانيد صحيحة عنهم .

وقيـل المراد بالاتمام الاكمال بعـد الشروع وهـذا يقـتضى تقـــدم فرضه قبـــل ذلك[3] .

(وقالت طائفة من أهل العلم أنه تأخر نزول فرضه إلى السنة التاسعـة حكـاه النـووى فى الـروضة والماوردى فى الأحكـام السلطانيـة وصححـه القــاضى عيـــاض والقرطبـى وصوبـه ابـن الـقيم فقـال: إن الحج فرض سنـة تسع وإن آيـة فرضهقولـه تعـالى ﴿ **ولله على الناس حج البيت** ﴾ وهى نزلت عام الوفود أو آخر سنة تسع وأنه عليـه الصلاة والسلام لم يؤخر الحج بعد فرضه عامـا واحـد وهـذا هو اللائـق بهديـه وحالـه ﷺ)[4] .

---

(١) انظر لسان العرب (٢ : ٢٢٦) ، الصحاح للجوهرى (١ : ٣٠٣) .

(٢) انظر بلوغ الامانى للبنا (١ : ١١) ، مغنى المحتاج للنووى (١ : ٤٥٩) .

(٣) فتح البارى (٤ : ١٢١) .

(٤) انظر اسعـاف أهـل الاسلام بوظائـف الحج الى بيت الله الحرام للعلامـة الشيـخ حسن مشاط (ص ٧) الطبعة ٣ ، ١٣٩٧ هـ .

قال تعالى ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدى لِلْعَالَمِين** ﴾ يخبر سبحانه عن أول بيت وضع للناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده (للذى ببكة) يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل عليه السلام .

أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الارض قال (المسجد الحرام) قلت ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى قلت كم بينهما ؟ قال أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيث ما ادركتك الصلاة فصل)[1] .

وعن مجاهد قال تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة .

قال المسلمون : بل الكعبة أفضل ، فأنزل الله هذه الآية[2] .

(للذى ببكة) : خبر (إن) واللام للتوكيد (وبكة) موضع البيت .

وبكة لغة فى مكة لأن العرب تعاقب بين الباء والميم وسميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة لم يقصدها جبار إلا قَصَمَهُ الله عز وجل[3] .

قوله تعالى (مباركا) أى كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره ولما يحصل من مضاعفة العمل فيه .

(وهدى للعالمين) لأنه قبلتهم ومتعبدهم .

(وفيه آيات بينات) يعنى مقام ابراهيم عليه السلام قالوا : أثر قدميه فى المقام آية بينة . وكذلك من آياته الصفا والمروة والركن والحطيم[4] .

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (١ : ٣٧) .

(٢) تفسير القرطبى (٤ : ١٣٧) .

(٣) تفسير الالوسى (٢ : ٦٠) .

(٤) انظر تفسير القرطبى (٤ : ١٣٩) .

(ومن دخله كان آمنا) يعنى حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) قال من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فاذا خرج أخذ بذنبه .

قوله تعالى ﴿ وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور .. (ولله) اللام فى قوله (ولله) لام الإيجاب والإلزام والإستحقاق .

أخرج مسلم فى صحيحه[1] عن أبى هريرة رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال أيها الناس : (قد فرض الله عليكم الحج فحجوا) فقال رجل أكل عام يا رسول الله . فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله ﷺ (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) ثم قال (ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) . رواه الامام أحمد فى مسنده[2] والنسائى فى سننه[3] .

وقوله (من استطاع إليه سبيلا) . السبيل المراد به الزاد والراحلة . أخرج الدارقطنى[4] عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله الحج كل عام ؟ قال : لا بل حجة . قيل : فما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة .

وأخرج الحاكم[5] فى المستدرك عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (٩ : ١٠٠) .

(٢) سنن الامام أحمد ج ٢ (ص ٥٠٨) ط/ دار صادر .

(٣) سنن النسائى وعليه شرح الحافظ السيوطى وحاشية السندى ــ كتاب مناسك الحج (٥ : ١١٠) باب وجوب الحج ط/ دار احياء التراث العربى ــ بيروت .

(٤) سنن الدارقطنى (٢ : ٢١٦) وبذيله التعليق المغنى على الدارقطنى لأبى الطيب الابادى ، ط/دار المحاسن للطباعة بالقاهرة ط/ونشر السيد عبد الله هاشم اليمانى المدنى .

(٥) المستدرك للحاكم (١ : ٤٤٢) كتاب المناسك .

عن قول الله عز وجل (من استطاع إليه سبيلا) فقيل ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة. قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . قال الذهبى (على شرط البخارى ومسلم) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِين ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد أى ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غنى عنه .

وقد روى الاسماعيلى الحافظ من حديث الاوزاعى بسنده عن عبد الرحمن ابن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا . قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضى الله عنه[1] .

* * *

(١) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٣٨٦) .

الحكمة من مشروعية الحج

الحكمة والهدف الأساسى من مشروعية الحج أنه كسائر العبادات (تعبدنا الله به).
والمتأمل فى هذه الفريضة وما نزل فيها من الذكر الحكيم وما ورد فيها من الأحاديث والآثار يستشعر أن للحج أسرارا فيما اشتمل عليه من المناسك فى الأفعال والأقوال .

قال تعالى مخاطبا نبيه إبراهيم عليه السلام بعد أن أكمل بناء البيت الحرام :
﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرَ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ ﴾[1] .

والعبادات كلها وإن اختلفت صورها ، تلتقى عند غاية واحدة ، هى تحقيق معنى العبودية لله ، بالاخلاص فى طاعته ، والتوجه إليه وحده والاستعانة به وحده والتخلص من سلطان الآثام التى يرتكبها الانسان فى حياته .

والحج كذلك عبادة من هذه العبادات يحقق معنى العبودية والاخلاص لله تعالى . لهذا جعل عنوان الشروع فيه ، والشعار الذى يصحبه فى جميع مراحله فيوجه القلب إلى الله ويصرفه عما سواه (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) . يسجل به المؤمنون على أنفسهم أسمى معانى الاخبات والخضوع والاستجابة لنداء مولاهم .

قال تعالى **﴿ لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ ... ﴾** .

---

(١) الحج : ٢٧ ــ ٢٩ .

قال الفخر الرازى (إنما نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد فى غيرها من العبادات) [1] .

ولا يخفى ما لاجتماع المسلمين على صعيد واحد وفى زمن محدد لا فرق بين أبيضهم وأسودهم وعربيهم وعجميهم إلا بالتقوى . يجمع بينهم الاخاء لدين الله وتسودهم روح المحبة والتعاون ويعمهم الفرح والسرور .

وكم من زعماء وعلماء ومفكرين وأطباء وتجار وغيرهم يتبادلون الخبرات والمعارف ويتناصحون فيما بينهم ويتعارفون ويتزاورون ويتراحمون وصدق الحق سبحانه وتعالى (ليشهدوا منافع لهم) .

* * *

(١) تفسير الرازى (٢٣ : ٢٩) .

المعاملات

ولما أنهينا الكلام عن معاملة العبد مع خالقه نتطرق إلى معاملة العبد مع الخلق .

وقد نظمت الشريعة أبواب المعاملات بأمرين :

الأول : أمرت بالوفاء بالعقود ففي السنة العاشرة نزلت المائدة التي أولها **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ ﴾**[1] وهي العقود الصحيحة شرعا الخالية من المفاسد الاجتماعية والدينية والأدبية .

الثاني : أوجبت الصدق على المتعاقدين وترك الغش والايمان الفاجرة قال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ بَيْنَكُم ﴾**[2] .

وقال تعالى **﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَموالَكُمْ بِالبَاطِلِ وَتُدْلوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾**[3][4] .

* * *

---

(١) المائدة : ١ .

(٢) النساء : ٢٩ .

(٣) البقرة : ١٨٨ .

(٤) شريعة الله الخالدة تأليف الدكتور السيد محمد علوى المالكي (ص ١٠٣) .

البيع

البيع لغة : نقل ملك بثمن على وجه مخصوص . والشراء قبول ذلك على أن لفظ كل منهما يقع على الآخر .

البيع : ضد الشراء ، والبيع الشراء أيضاً وهو من الاضداد[١] .

شرعا : مقابلة مال بمال على وجه مخصوص[٢] .

قال ابن حجر : (البيع : نقل ملك إلى الغير بثمن والشراء قبوله ويطلق كل منهما على الآخر . وأجمع المسلمون على جواز البيع والحكمة تقتضيه لأن حاجة الانسان تتعلق بما فى يد صاحبه غالبا . وصاحبه قد لا يبذله له . ففى تشريع البيع وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير حرج)[٣] .

قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون** ﴾[٤] .

هذه الآية الكريمة أصل فى جواز البيع وللعلماء فيها أقوال أربعة أصحها .

(١) (انها عام مخصوص فإن اللفظ لفظ عموم يتناول كل بيع فيقتضى إباحة الجميع . لكن قد منع الشارع بيوعا أخرى وحرمها فهو عام فى الإباحة مخصوص بما لا يدل الدليل على منعه) .

(٢) وقيل عام أريد به الخصوص .

(٣) وقيل مجمل بينته السنة .

---

(١) لسان العرب (٨ : ٢٣) .

(٢) مغنى المحتاج إلى معرفة الفاظ المنهاج شرح الشيخ محمد الشربينى الخطيب (٢ : ٢) .

(٣) فتح البارى (٥ : ١٩١) كتاب البيوع .

(٤) البقرة : ٢٧٥ .

(٤) وقيل إن اللام فى البيع للعهد وأنها نزلت بعد أن أباح الشرع بيوعا وحرم بيوعا فأريد بقوله ــ وأحل الله البيع ــ أى الذى أحله الشرع من قبل[1] .

* * *

(١) فتح البارى كتاب البيوع (٥ : ١٩١) .

الربـــا

الربا فى اللغة : ربا الشيء يربو ربواً ورباء : زاد ونما[1] .

ومنه قوله تعالى (اهتزت وربت) أى زادت ونمت .

وشرعا : عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل فى معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير فى البدلين أو أحدهما[2] .

والأصل فى تحريمه آيات منها قوله تعالى (وحرم الربا)[3] .

وأحاديث كحديث البخارى (أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن الدم ، وثمن الكلب ، وكسب الأمة ، ولعن الواشمة والمستوشمة ، وآكل الربا وموكله)[4] الحديث .

ولا شك أن الربا ظاهرة اجتماعية خطيرة فلا غرابة أن جاء الوعيد والتهديد الشديد لمن تعامل بالربا ، لما فيه من امتصاص دماء الناس وأكل حقوقهم بالباطل . لهذا أعلن الله الحرب على المرابين قال تعالى ﴿ **فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُم فَلَكُمْ رُؤُوس أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُون وَلَا تُظْلَمُون** ﴾[5] .

ولقد عالج الإسلام هذه الظاهرة كغيرها من الأمراض المستأصلة فى النفوس فمن المعلوم أن التشريع الإسلامى سار بسنة التدرج فى تقرير الأحكام .

---

(١) لسان العرب (١٤ : ٣٠٤) .

(٢) مغنى المحتاج إلى معرفة معانى الفاظ المنهاج للشربينى (٢ : ٢١) .

(٣) البقرة : ٢٧٥ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب البيوع (٥ : ٣٣١) .

(٥) البقرة : ٢٧٩ .

ولقد مر تحريم الربا بأربعة أدوار كما حدث فى تحريم الخمر وذلك تمشيا مع قاعدة التدرج ومصداقاً لحديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها فى حديثها مع العراق (إنما نزل أول ما نزل منه سورة المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب[1] الناس إلى الاسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا . ولو نزل لا تزنوا . لقالوا لا ندع الزنى أبدا ... الحديث)[2]

هذا الحديث يدلنا على مدى عناية الاسلام بتربية الفرد والجماعة وأنه لم يأمرهم بالحلال وينهم عن الحرام إلا بعد ما تقبلته نفوسهم وأشربت حبه ثم إنه لم يلزمهم به دفعة واحدة ، بل كان على سبيل التدرج .

الدور الأول :

قوله تعالى : **﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَما آتَيْتُم من زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾**[3] .

هذه الآية الكريمة مكية نزلت فى مكة وفيها بيان أن الله تعالى يمحق بركة الربا أما الزكاة ففيها المخلص لمن أراد أن يضاعف أمواله أضعافا كثيرة . وليس فى الآية نص على تحريم الربا . ولكنه لفت الأنظار إلى أن التعامل بالربا غير مربح عند الله ، وأولى منه الزكاة التى يراد بها وجه الله تعالى .

---

(١) (ثاب) بالمثلثة ثم الموحدة أى رجع . انظر فتح البارى (١٠ : ٤١٥) .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (١٠ : ٤١٥) .

(٣) الروم : ٣٩ .

الدور الثانى :

ثم نزلت آية النساء المدنية وفيها قوله تعالى : ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾[١] .

وهى درس قصه الله سبحانه وتعالى علينا من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه واستحقوا عليه اللعنة والغضب . فالآية حكاية عن جرائم اليهود الذين خالفوا أوامر التوراة ونواهيها وحيث إن التحريم كان فى كتاب سماوى سابق . وليس فيه ما يدل دلالة قطعية عليه فالتحريم فى هذا الدور كان غير صريح . وليس فيه ما يدل دلالة قطعية عليه ، ففيه تلويح بأن التحريم فى سبيله إلى الذكر فى القرآن الكريم . فالتحريم فى هذا الدور كان غير صريح .

الدور الثالث :

ثم نزلت آية آل عمران ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[٢] .

هذه الآية مدنية وفيها تحريم للربا صريح ولكنه تحريم (جزئى) لا (كلى) لأنه تحريم لنوع من الربا الذى يسمى (الربا الفاحش) وهو الربا الذى بلغ فى الشناعة والقبح الذروة العليا وبلغ فى الاجرام النهاية العظمى حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافا مضاعفة . فقد كان الدائن إذا حل الأجل ولم يسدده المدين قال أربيك وتزيد فى الأجل . فان لم يسدد زيد فى الأجل مقابل الزيادة فى الفائدة[٣] .

---

(١) النساء : ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) آل عمران : ١٣٠ .

(٣) انظر تفسير آيات الاحكام للشيخ محمد على الصابونى (١ : ٣٩٠) .

الدور الرابع :

وفى هذا الدور الأخير نزل التحريم الكلى القطعى فقد نزل قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** ﴾ الآيات . إلى قوله تعالى :﴿ **يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمُونَ** ﴾[1] .

قال الطبرى : (نزلت هذه الآية فى العباس بن عبد المطلب ورجل من بنى المغيرة كانا شريكين فى الجاهلية ، سلفا فى الربا إلى أناس من ثقيف من بنى عمرو ، وهم بنو عمرو بن عمير ، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا ، فأنزل الله (ذروا ما بقى) من فضل كان فى الجاهلية (من الربا)[2] .

وختم سبحانه وتعالى آيات الربا بقوله : ﴿ **وَإِنْ كان ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون** ﴾[3] أى إذا كان المستدين معسرا فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه : إما أن تقضى وإما أن تربى . فيندب إلى الوضع عنه ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل[4] .

* * *

---

(١) البقرة : ٢٧٥ — ٢٧٩ .

(٢) تفسير الطبرى (٣ : ١٠٦ ، ١٠٧) .

(٣) البقرة : ٢٨٠ .

(٤) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ٣٣١) .

الحكمة في تحريم الربا

لقد حرم الاسلام الربا وأكد حرمته وتوعد المرابين بالحرب وفى ذلك التحريم مراعاة للبشرية فى اخلاقها واجتماعها واقتصادها . وأهم الأسباب لتحريم الربا مايلى :

أولاً : (من ناحية اقتصادية) :

(أ) أن الربا يقتضى أخذ مال الانسان من غير عوض ، لأن بيع الدرهم نقدا أو نسيئة يحصل له زيادة درهم من غير عوض . ومال الانسان معلق بحاجته . وله حرمة عظيمة . فأخذ ماله من غير عوض محرم .

(ب) إن الاعتماد على الربا يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدا كان أم نسيئة ، خف عليه اكتساب وجه المعيشة ، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة وذلك يفضى إلى انقطاع منافع الخلق ، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات .

ثانيا : (من ناحية أخلاقية) :

أنه يفضى إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض ، لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله ، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين ، فيفضى ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والاحسان .

ثالثا: (ومن ناحية إجتماعية) :

أن الغالب أن المقرض يكون غنيا ، والمستقرض يكون فقيرا ، فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغنى من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالا لا حق له فيه وفى ذلك أكل مال بالباطل ويورث التباغض والكراهية والعداء بين طبقات المجتمع(١) .

---

(١) انظر تفسير الرازى (٧ : ٧٨) بتصرف واختصار .

المداينة والقرض الحسن

ولما ذكر تعالى الربا وبين ما فيه من قباحة وشناعة وأكل أموال الناس بالباطل وأنه كسب يحرمه الاسلام ويمقته ، أردفه بذكر القرض الحسن بلا فائدة وتناول الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن وكيف السبيل إليها ؟ وماهى أسلم الطرق فى التعامل بها ؟ وأنها هى أشرف الطرق لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع .

وتعتبر آية الديْن أطول آيات القرآن الكريم على الاطلاق مما يدل على عناية الاسلام بالنظم الاقتصادية واهتمامه بها لأنها على أثرها تنبنى حياة الأمم .

قال تعالى : ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مسَمًّى فَاكْتُبُوه** .. ﴾[1] .

وفى ذلك ارشاد من الله تعالى لعباده بكتابة المعاملات ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمقدارها وميقاتها .

﴿ **وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ** ﴾ أى بالحق ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان .

﴿ **وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ** ﴾ أى ولا يمتنع أحد من الكتابة بالعدل كما علمه الله .

﴿ **وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً** ﴾ فلا ينقص من الحق شيئا[2] .

﴿ **فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيها أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ** ﴾ أى لا يستطيع الاملاء بنفسه لعلة أو خرس أو عجمة فليملل قيمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة .

---

(١) البقرة : ٢٨٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٣٣٤ ـــ ٣٣٥) .

﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾.

﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَادُعوا ﴾ أى ولا يمتنع الشهداء عن أداء الشهادة أو تحملها إذا طلب منهم ذلك .

﴿ وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَىَ أَجَلِهِ ﴾ هذا من تمام الارشاد الحث على عدم التهاون فى كتابة الحق سواء قل أو كثر الى أجله ﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى ألا تَرْتَابُوا إلاَّ أن تَكُونَ تِجَارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ ﴾ أى إلا إذا كان البيع حاضرا يدا بيد والثمن مقبوضا ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ألاّ تَكْتُبُوهَا وأشْهِدُوا إذا تَبايعتُمْ ﴾ لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف .

﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ ولا شَهِيد ﴾ فى هذا نهى للكاتب والشهيد عن إضرار من له الحق وذلك بأن يزيد الكاتب أو ينقص أو لا يشهد أو يشهد بحيث لا يحصل معه النفع[1] . وهذا قول أكثر المفسرين . ويحتمل أن يكون نهيا لصاحب الحق عن اضرار الكاتب والشهيد ﴿ وَإِنْ تَفْعَلُوا فإِنَّهُ فُسوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّـهَ وَيُعَلِّمُكُمْ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم ﴾ .

---

(١) تفسير الرازى : (٧ : ١١٨) .

الرهن

الرهن : ماوضع عند الانسان مما ينوب مناب ما أخذ منه[1] .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَة ﴾[2]

أى إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم ، فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه .

﴿ فإنْ أمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم ﴾ .

أى إذا دعيتم إلى أداء الشهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير[3] .

---

(١) لسان العرب (١٣ : ١٨٨) .

(٢) البقرة : ٢٨٣ .

(٣) انظر تفسير صفوة التفاسير للشيخ محمد على الصابونى (١٧٧/١ ــ ١٧٩) .

النكاح

النكاح فى اللغة : الضم والتداخل . قال الفراء النكح بضم ثم سكون اسم للفرج . ويجوز كسر أوله وكثر استعماله فى الوطء وسمى به العقد لكونه سببه[١] .

وفى لسان العرب : نكح فلان امرأة ينكحها نكاحا إذا تزوجها ونكحها ينكحها باضعها أيضا[٢] .

فى الشرع : عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ إنكاح أو تزويج أو ترجمته[٣] .

قال ابن حجر : إنه حقيقة فى العقد ، مجاز فى الوطء على الصحيح .

والحجة فى ذلك كثرة وروده فى الكتاب والسنة للعقد حتى قيل إنه لم يرد فى القرآن إلا للعقد .

قال تعالى : ﴿ **وَانْكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم** ﴾[٤] .

الأيامى : مقلوب أيايم جمع أيم ، لأن فيعل لا يجمع على فعالى بل على فعائل فقدمت الميم على الياء وفتحت للتخفيف ، فانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها . والأيم : كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها بكرا أو ثيبا .

والمعنى : زوجوا من لا زوج له (منكم) أى الذين من جنسكم فى الحرية من الأحرار والحرائر . وذهب الفخر الرازى وبعض المفسرين إلى أن الآية ليست وعدا من الله بإغناء المتزوج بل المقصود الحث على النكاح والنهى عن التعلل بالفقر . والمراد : ليس النكاح مانعا من الغنى ولا سببا فى الفقر والمال غاد ورائح فلا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزوجها[٥] .

---

(١) فتح البارى وعلى هامشه صحيح البخارى (١١ : ٣) كتاب النكاح .

(٢) لسان العرب (٢ : ٦٢٥) .

(٣) مغنى المحتاج الى معرفة الفاظ المنهاج (٣ : ١٢٣) كتاب النكاح .

(٤) النور : ٣٢ .

(٥) أنظر كتاب تأملات فى تفسير سورة النور للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم (ص ١١٤ ــ ١١٥) .

وهذا الحكم وإن كان مشروعا فى مكة إلا أننى ذكرته هنا لما له من صلة أيضا بالتشريع فى المدينة ثم لما له من صلة وثيقة بالطلاق الذى هو من التشريعات المدنية .

* * *

الخطبة

الخطبة : تعبير واضح عن الرغبة فى الزواج . الخِطبة (بكسر الخاء) .

فحين يطمئن الرجل إلى حسن اختياره ، ويرضى بما فى المرأة التى وقع اختياره عليها من الصفات التى تكفل لهما السعادة ، فيتقدم للخطبة .

وقد جعل الإسلام الخطبة وسيلة للتعرف على الصفات المرغوبة التى يهم الرجل الاطمئنان إليها فيمن يريدها زوجا له . حتى يقدم على الزواج وهو مرتاح إلى سمات زوجته الحسية والمعنوية فلا يفاجأ بعد بما ينغص حياته ويكدر عيشته .

أخرج الترمذى بسنده عن المغيرة بن شعبة أنه خطب امرأة فقال النبى ﷺ (أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) قال أبوعيسى هذا حديث حسن ومعنى قوله (أحرى أن يؤدم بينكما) قال أحرى أن تدوم المودة بينكما[1] .

وقد كره الإسلام الاقدام على الزواج دون نظر وتثبت خشية تقطع العلاقات عند تبين الحقيقة . أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال إنى تزوجت امرأة من الأنصار فقال له النبى ﷺ هل نظرت إليها فإن فى عيون الأنصار شيئا)[2] .

وقال تعالى ﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ من خِطْبَةِ النِّسَاءِ** ﴾[3]

هذه الآية الكريمة تشير إلى خطبة المعتدة التى توفى عنها زوجها والتعريض ضد التصريح . وهو إفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره .

---

(١) سنن الترمذى (٣ : ٣٩٧) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى (٩ : ٢١٠) .

(٣) البقرة : ٢٣٥ .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتـدة بما هو نص فى تزوجها وتنبيه عليه لا يجوز . وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر وجماع أو تحريض عليه لا يجوز . وكـذلك ما أشبهه وجـوز ما عدا ذلك[1] .

والحكمة فى عدم التصريح بخطبة المعتدة : (هى أن المرأة فى عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت . وبمشاعر أسرة الميت . ومرتبطة كذلك بما قد يكون فى رحمها من حمل لم يتبين ، أو حمل تبين والعـدة معلقـة بوضعـه .. كل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجيـة جديـدة . لأن هذا الحديث لم يحن موعده . ولأنه يجرح مشاعر ويخدش ذكريات . ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض ــ لا التصريح ــ بخطبة النساء ، أبيحت الاشارة البعيدة التى تلمح المرأة منها أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها)[2] .

* * *

---

(١) تفسير القرطبى (٣ : ١٨٨) .

(٢) انظر ظلال القرآن لسيد قطب (١ : ٣٧٤) .

الخلع

لغة : بضم الخاء . وهو النزع . لأن كلا من الزوجين لباس الآخر . قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ فكأنه بمفارقة الآخر نزع لباسه .

فى الشرع : (فرقة بين الزوجين بعوض مقصود راجع لجهة الزوج بلفظ طلاق أو خلع)[١] .

قال ابن قدامة[٢] : وجملة الأمر أن المرأة إذا كرهت زوجها لخلقه أو خلقه أو دينه أو كبره أو ضعفه أو نحو ذلك وخشيت أن لا تؤدى حق الله فى طاعته جاز لها أن تخالعه بعوض تفتدى به نفسها منه . لقوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ألا يُقِيمَا حُدودَ الله فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾[٣] .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ولكن أكره الكفر فى الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : (أتردين عليه حديقته ؟) وكان قد أمهرها حديقة قالت: نعم . قال رسول الله ﷺ (اقبل الحديقة وطلقها تطليقة)[٤]

---

(١) مغنى المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج للشيخ محمد الشربينى الخطيب (٣ : ٢٦٢) كتاب الخلع .
(٢) المغنى لابن قدامة (٧ : ٣٢٣) .
(٣) البقرة : ٢٢٩ .
(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١١ : ٣١٦ ـــ ٣١٩) .

الطـــلاق

الطلاق لغة : حل الوثاق . ومنه ناقة طالـق : أى مرسلـة بلا قيد
شرعا : حل عقد النكاح بلفظ الطلاق ونحوه .

الاسلام حين شرع الطلاق كان قبل ذلك قد شرع طرقا حكيمـة كفيلـة برأب الصدع والنزاع الذى حصل بين الزوجين فإذا لم تنفع جميع تلك الوسائل فلابد أن نستعمل آخر الأدوية وكما يقال فى الامثال (آخر الدواء الكى) حتـى لا يؤدى ذلك المرض الخطير إلى حدوث عواقب أليمة ، فقـد يؤدى استفحـال الشقاق والنزاع إلى حدوث قتل وفتك بأحـد الـزوجين ومـن هنـا تنشأ العـداوة حتى ربما وصلت إلى إراقة دماء أبريـاء يذهبـون ضحيـة هذا النـزاع . فمـا هى الخطوات التى سلكها الإسلام لعلاج نشوز المرأة ؟

قال تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِـم فَالصَّالِحَـاتُ قَانِتَـاتٌ حَافِظَـاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَـا حَفِـظَ اللهُ وَاللَّاتِـي تَخَافُـونَ نُشُوزَهُـنَّ فَعِظُوهُـنَّ وَاهْجُرُوهُـنَّ فِي الْمَضَاجِـعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِـنّ سَبِيـلًا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّـا كَبِيرا. وإِنْ خِفْتُمْ شِقَـاقَ بَيْنِهِمَـا فَابْعَثُـوا حَكَمًـا مِنْ أَهْلِـهِ وَحَكَمًـا مِّنْ أَهْلِهَـا إِنْ يُرِيـدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا** ﴾[1] .

أرشدت الآية الكريمة إلى الطـرق الحكيمـة فى معـالجة نشوز المرأة ودعت إلى سلوك هذه الخطوات التالية :

أولا : الـنصح والارشاد بالحكمـة والموعظـة الحسنــة لقولــه تعـــالى (**فعظوهن**) .

ثانيا : الهجـران بعـزل فراشه عن فراشهـا وتـرك معـاشرتها لقولـه تعـالى (واهجروهن فى المضاجع) .

---

(١) النساء : ٣٤ ــ ٣٥ .

ثالثا : الضرب غير المبرح بسواك ونحوه تأديباً لها لقوله تعالى (واضربوهن) .

رابعا : إذا لم تجد كل هذه الوسائل فينبغى التحكيم لقوله تعالى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) فان لم يفلح الحكمان من استرجاع الود ومحو الشقاق ورأيا من العوائق ما يحول دون استمرار الحياة الزوجية على وجه صالح . فإن لهما أن يطلبا من الزوج تطليق زوجته إذا كانت متضررة من بقائها معه على هذا الوجه . فإن أبى رفع الأمر إلى القاضى ليطلقها منه للضرر .

لذلك أباح الاسلام الطلاق وهو التفريق بين الزوجين عند تعذر اجتماعهما في حياة مشتركة لما نشأ من الأذى والكيد ، ليكون لكل منهما سبيله وليرتفع الضرر ، وينتفى الحرج ، ولعل كلا منهما يوفق إلى من يعجبه ويرضيه .

قال تعالى ﴿ **وإن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعًا حَكِيمًا** ﴾[1] .

ثم قال تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ** ﴾ [2] الآية .

أخرج البخارى بسنده عن نافع عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : مره فليراجعها . ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر . ثم إن شاء أمسك بعد ، وإن شاء طلق قبل أن يمس . فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء)[3] .

قال السدى : نزلت فى عبد الله بن عمر ، وذلك أنه طلق امرأته حائضاً ،

---

(١) النساء : ١٣٠ .

(٢) الطلاق : ١ .

(٣) فتح البارى وعلى هامشه صحيح البخارى كتاب الطلاق (١١ : ٢٦١ : ٢٦٦) .

فأمر رسول الله ﷺ أن يراجعها ويمسكها حتى تطهرثم تحيض حيضة أخرى فإذا طهرت طلقها إن شاء قبل أن يجامعها فإنها العدة التى أمر الله بها[1] .

قلت : والحكمة فى نهى الشارع الحكيم عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر ولأن فترة الحيض منفرة للزوج فقد يتسرع فى طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرا . ونهى كذلك عن طلاقها فى الطهر الذى جامعها فيه لاحتمال حصول حمل من ذلك الوطء فتتحول العدة من الحيض لوضع الحمل وفى ذلك ضرر بالغ كما لا يخفى .

ولقد عالجت سورة البقرة فى الآيات من قوله تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2] إلى قوله تعالى **﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَافَرَضْتُم إلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ إنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾**[3] .

ولقد عالجت تلك الآيات وغيرها مما ورد فى سورة الطلاق والتحريم الايلاء وأحكام الطلاق وكيفيته وأنواعه وشروطه ومتى يقع ومايىنبنى عليه من الأمور الخاصة بكل من الزوج والزوجة . وحثت الأزواج على حسن المعاشرة **﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾**[4] .

كما ثبت فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته فى حجة الوداع (فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله وأستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ،

---

(١) أسباب النزول للواحدى (ص ٢٨٩) .

(٢) البقرة : ٢٢٦ ـــ ٢٢٧ .

(٣) البقرة : ٢٣٧ .

(٤) البقرة : ٢٢٨ .

فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[1] .

(١) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووى (كتاب الحج) باب حجة النبى ﷺ (٨ : ١٨٣) .

حكمة تشريع الطلاق

شرع الله الطلاق ، فى حين أنه أبغض الحلال إلى الله وذلك لضرورة قاهرة وفى ظروف استثنائية ملحة . تجعله دواء وعلاجا للتخلص من شقاء محتم قد لا يقتصر على الزوجين بل يمتد إلى الاسرة كلها فيقلب حياتها إلى جحيم لا يطاق نعم إن الطلاق هدم للأسرة وتصديع لبنيانها وضياع للأولاد وتمزيق لشملهم ومع هذا فقد أجازه الاسلام لدفع ضرر أكبر وتحصيل مصلحة أكثر . وهى تفريق بين متباغضين من الخير أن يفترقا لأن الشقاق والنزاع قد استحكم بينهما واستحال التوفيق بينهما رغم كثرة محاولات الاصلاح للتوفيق بينهما .

لذا كان الطلاق ضرورة لا مندوحة عنه . لأن الحياة الزوجية مبنية على الحب والوفاء والهدوء والاستقرار . لا التناحر والخصام والبغضاء[1] .

ومما تجدر الاشارة إليه (أن الشريعة الاسلامية انفردت بنظام « المراجعة » فى الطلاق دون الشرائع الأخرى ، حرصا على إعادة الرباط الزوجى بين الزوجين وحفاظا على الذرية من الضياع والتشرد واستصلاحا لما فسد بين الزوجين من مودة وسكن ويعتبر الطلاق الرجعى فى الاسلام وهو المرة الأولى والثانية ، فترة اختبار للزوجين ، وفرصة تأمل ومراجعة للأخطاء والزلات والندم والتوبة ثم العودة إلى بيت الزوجية ، وما يظلله من مودة ورحمة وسكن وذرية .

وصدق الحق سبحانه وتعالى حيث يقول فى كتابه العزيز : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾[2] .

---

(١) انظر باختصار وتصرف من كتاب (روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام) للشيخ محمد على الصابونى (١ : ٣٤٣) .

(٢) الروم : ٢١ .

كما ينبغى أن نلاحظ أيضا أن الاسلام جاء ليصحح وضعا خاطئا ويحفظ للمرأة كرامة كانت مضيعة على عهد الجاهلية الأولى ، إذ كان العرب يطلقون دون حصر أو عدد فكان الرجل يطلق ماشاء ثم يراجع امرأته قبل أن تنقضى عدتها إضرارا لها حيث تظل معلقة بين طلاق ورجعة فى نهاية العدة . ثم طلاق فى بداية الرجعة وهكذا ، فنزل القرآن يضع لهذه الفوضى حدا ، ولهذا الظلم النازل بالنساء قيدا ﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان**[1] ﴾[2] .

---

(١) البقرة : ٢٢٩

(٢) من كتاب محاضرات فى الثقافة الاسلامية (ص ٢٨٨) للأستاذ احمد محمد جمال .

الظهار

الظهار : بكسر المعجمة . هو قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ..

وإنما خص الظهر دون سائر الأعضاء لأن محل الركوب غالبا ولـذلك سمى المركوب ظهرا فشبهت الزوجة بذلك لأنها مركوب الرجل[1] . ا.هـ .

والظهار هو نوع من أنواع طلاق الجاهلية وقد جاء الاسلام فبين حكمه وكفارته .

قال الشافعى : (سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول « كان أهل الجاهلية يطلقون بثلاث (الظهار ــ والايلاء ــ والطلاق) فأقر الله الطلاق طلاقا وحكم فى الايلاء والظهار بما بين فى القرآن)[2] . ا.هـ .

هذا وقد نزلت سورة المجادلة وبينت أحكام الظهار .

قال تعالى ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا** ﴾[3] الآيات .

أخرج البخارى بسنده عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات فأنزل الله تعالى على النبى ﷺ ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِها**[4] ﴾ .

هكذا أخرجه البخارى وتمامه عند أحمد فى مسنده بعد قولها (الأصوات) لقد جاءت المجادلة[5] الى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ماتقول فأنزل الله عز وجل ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِها** ﴾[6] الآية .

---

(١) فتح البارى (١١ : ٣٥٣) .

(٢) فتح البارى (١١ : ٣٥٤) .

(٣) المجادلة : ١ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب التوحيد (١٧ : ١٤٣) .

(٥) تعنى المرأة التى كانت تجادل رسول الله ﷺ فى ظهار زوجها وهى خولة بنت ثعلبة .

(٦) الفتح الربانى فى ترتيب مسند الامام احمد للساعاتى (احمد عبد الرحمن البنا) (١٨ : ٢٩٨) .

ويوضح سبب النزول ماأخرجه الإمام أحمد فى مسنده :

عن خولة بنت ثعلبة قالت والله فيَّ وفى أوس بن صامت أنزل الله عز وجل من صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه وضجر قالت فدخل على يوما فراجعته بشيء فغضب . فقال انت على كظهر أمي . قالت ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل على فاذا هو يريدنى على نفسى . قالت فقلت كلا والذى نفس خويلة بيده لا تخلص إلىّ وقد قلت ماقلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبنى وامتنعت عنه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابا ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه. فجعلت أشكو اليه ﷺ ما ألقى من سوء خلقه ، قالت فجعل رسول الله ﷺ يقول ياخويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه قالت فو الله مابرحت حتى نزل فى القرآن فتغشى رسول الله ﷺ ماكان يتغشاه ثم سرى عنه ـ فقال لى ياخويلة قد أنزل فيك وفى صاحبك ثم قرأ على ﴿ **قَدْ سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله** ﴾ إلى قوله ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾ .

فقال رسول الله ﷺ مريه فليعتق رقبة . قالت فقلت يارسول الله والله ماعنده مايعتق قال : فليصم شهرين متتابعين . قالت فقلت والله يارسول الله إنه لشيخ كبير مابه من صيام . قال فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر ، قالت قلت والله يارسول الله ماذاك عنده . قالت فقال رسول الله ﷺ فإنا سنعينه بعرق من تمر فقالت وأنا يارسول الله سأعينه بعرق آخر . قال قد أصبت وأحسنت فاذهبى وتصدقى عنه ثم استوصى بابن عمك خيرا . قالت ففعلت(1) . ا.هـ .

فكان نزول الكفارة تخفيفاً ورحمة .

---

(1) الفتح الربانى (١٨ : ٢٩٧ ـ ٢٩٨) .

الحجاب والاستئذان

شرع الحجاب فى العهد المدنى وكان فى بادىء الأمر لسيدات بيت النبوة رضى الله عنهن أجمعين وذلك فى قصة زواجه عليه الصلاة والسلام بالسيدة زينب .

أخرج البخارى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب ابنة جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا . فانطلقت فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاءحتى دخل. فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه، فأنزل الله ﴿ **يَأَيُّها الذينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيوتَ النَّبِىِّ ...** ﴾[1] الآية .

وان كان السبب خاصا بأمهات المؤمنين إلا أنه يسرى أيضا على جميع النساء المؤمنات لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم قال تعالى ﴿ **قُل لِلْمُؤْمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يصْنَعُون . وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَيُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاّ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهنَّ وَلاَيُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ** ﴾[2] الآية .

واستثنى من ذلك من لا ريبة فى كشفها فقال تعالى : ﴿ **وَالقَواعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاتِى لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيم** ﴾[3] .

وبهذا انسدل الحجاب على نسوة الاسلام فكان أعظم إكرام أهداه الاسلام

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى تفسير سورة الأحزاب (١٠ : ١٤٧) والشاهد فى الآية قوله ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾ .

(٢) النور : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) النور : ٦٠ .

للمـرأة حيث أمرهـا بما يصونها ويحفـظ شرفهـا وأنـوثتها ويبعدهـا عن مظان الفتنـة . ويجعلها فى حصن حصين من العفة .

* * * *
* * *
* *
*

الخمر والتدرج في تحريمه

الخمر : ما أسكرت من عصير العنب لأنها خامرت العقل ، والتخمير التغطية[١] .

قال القرطبى : (الخمر مأخوذة من خمر إذا ستر ، ومنه خمار المرأة ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر ، لأنه يغطى ماتحته ويستره ، ولما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سميت بذلك .

والخمر : ماء العنب الذى غلى أو طبخ . وما خامر العقل من غيره فهو فى حكمه . والجمهور من الأئمة على أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرم قليله وكثيره . والحد فى ذلك واجب)[٢] .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قام عمر على المنبر فقال : أما بعد نزل تحريم الخمر وهى من خمسة : العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ماخامر العقل[٣] .

قال الطبرى : قال بعض المفسرين (إن الله تعالى لم يدع شيئا من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة ، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة . فكذلك تحريم الخمر)[٤] .

فقد كان الناس مفتونين بالخمر مولعين بشربها حتى أنها لو حرمت من أول الأمر على سبيل القطع لانصرف الكثير ممن هم مدمنون عليها عن الاسلام أو حتى التفكير فى الدخول الى الاسلام . فكان من لطف الله وبالغ حكمته الجليلة أن نزلت

---

(١) لسان العرب (٤ : ٢٥٤) .

(٢) تفسير القرطبى (٣ : ٥١ ــ ٥٢) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الأشربة (١٢ : ١٣٤) .

(٤) تفسير الطبرى (٣ : ٥٢) .

آيات الخمر بالتدريج آخذة فى التنفير منها ووصفها بالاثم إلى أن وصفها المولى عز وجل بأنها رجس مبينا إثمها وضررها مؤكدا حرمتها على سبيل القطع .

ولنأخذ الآن فى بيان الآيات على سبيل الايجاز وبالله التوفيق .

أولاً : قال تعالى فى سورة النحل : ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالاعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآية لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾(١) .

هذه الآية مكية حيث كان الناس يشربونها والآية تبين أنهم اتخذوا من ثمرات النخيل والأعناب شرابا سكرا ، وكان ذلك قبل نزول آيات التحريم الصريحة والآية تشير إلى الحرمة .

(١) حيث قابل السكر بالرزق الحسن .

(٢) والاتخاذ من قبلهم هم .

(٣) وتذييل الآية كذلك يدل على منافاتها للعقل .

ثانياً : ثم قال تعالى : ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** ﴾(٢) .

أخرج الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء فنزلت التى فى البقرة ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ الآية الحديث(٣) .

فتركها قوم تحريا عن الاثم . وشربها آخرون للمنافع ، ولاشك أن من تركها قدم درء المفاسد على جلب المصالح ، ومن شربها وقف مع ظاهر التخيير الذى لا جزم فيه بالمنع .

ثالثاً : ثم قال تعالى ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون** ﴾(٤) الآية .

---

(١) النحل : ٦٧ .

(٢) البقرة : ٢١٩ .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ٢٥٣) .

(٤) النساء : ٤٣ .

وسبب نزولها ما أخرجه الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت : قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما نعبدون ، قال فأنزل الله تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتُمْ سُكَارَىَ حَتى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون** ﴾ .

قال أبوعيسى هذا حديث حسن صحيح غريب(١) .

ولا يفهم من الآية تحريم الخمر قطعا إنما تحريمها فى الأوقات القريبة من الصلاة وحينئذ لم يبق للمصر على شربها سوى شربها بعد صلاة العشاء وضرره قليل أو بعد صلاة الصبح لمن لا عمل له .

رابعاً : ثم تركوا فترة حتى قوى الايمان فى القلوب ورسخ اليقين وكثرت الوقائع التى ظهر فيها إثم الخمر وضررها وعند ذلك ناسب النهى عنها على سبيل القطع فى كل الأوقات كما فى الآية التالية ، وهى قوله تعالى ﴿ **يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون . إنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِى الخَمْرِ والمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللّه وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون** ﴾(٢) .

اختلفت الروايات فى سبب نزول الآية ونذكر منها ما أخرجه الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال (اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء فنزلت التى فى البقرة ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ الآية ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء فنزلت التى فى النساء ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه ثم قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء ، فنزلت التى فى المائدة ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر** ﴾ الى قوله ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه فقال انتهينا(٣) .

---

(١) سنن الترمذى (٥ : ٢٣٨) .
(٢) المائدة : ٩٠ ــ ٩١ .
(٣) سنن الترمذى (٥ : ٢٥٣) .

قال الطبرى : (وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذى من أجله نزلت هذه الآية وجائز أن يكون نزولها كان بسبب دعاء عمر رضى الله عنه فى أمر الخمر . وجائز أن يكون السبب ما نال سعدا من الأنصاريّ عند انتشائهما من الشراب ، وجائز أن يكون كان من أجل ما كان يلحق أحدهم عند ذهاب ماله بالقمار من عداوة من يَتَتَرَهُ وبغضه . وليس عندنا بأى من ذلك كان خبر قاطع للعذر .

غير أنه أى ذلك كان فقد لزم حكم الآية جميع أهل التكليف ، وغير ضائرهم الجهل بالسبب الذى له نزلت هذه الآية ، فالخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فرض على جميع من بلغته الآية من التكليف اجتناب جميع ذلك كما قال تعالى (فاجتنبوه لعلكم تفلحون)[١] .

هذا وقد أكد القرآن الكريم حرمة الخمر والميسر حتى إنه لم يرد فى القرآن مثل هذه التأكيدات الصارمة فى جل المحرمات مثلما ورد فى الخمر والميسر وذلك لشدة ولع الناس بهما .

وقد ذكر الكشاف وجوها استنبطها من الآيتين فى تأكيد حرمة الخمر :

(١) تصدير الجملة بإنما .
(٢) أنه قرنها بعبادة الأصنام ومنه قوله ﷺ (شارب الخمر كعابد الوثن)[٢] .
(٣) وأنه جعلها رجسا كما قال تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان)[٣] .
(٤) أنه جعلهما من عمل الشيطان . والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت .

---

(١) تفسير الطبرى (٧ : ٣٥) .

(٢) سنن ابن ماجه (٢ : ١١٢٠) بلفظ (مدمن الخمر كعابد الوثن) .

(٣) انظر الكشاف (١ : ٦٤١ ـــ ٦٤٢) تأليف أبى القاسم جارَ الله محمود الزمخشرى (٤٦٧ ـــ ٥٣٨) ط / دار الفكر .

(٥) أنه أمر بالاجتناب فى قوله تعالى (فاجتنبوه) .

(٦) أنـه جعـل الاجتنـاب من الفـلاح . وإذا كان الاجتنــاب فلاحــا كان الارتكاب خيبة ومحقة .

(٧) أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال وهو وقوع التعادى والتباغض وما يؤديـان إليه من الصد عن ذكر الله وعدم مراعاة أوقات الصلاة .

(٨) الأمر بالابتعاد عنهما بصيغة الاستفهـام المقـرون بفـاء السببيـة (فهـل أنتم منتهون) [١] .

* * *

---

(١) الحج : ٣٠ .

الحكمة من تحريم الخمر

أولا : أنها مفسدة خلقية واجتماعية ودينية وبيان ذلك :

(١) أن الخمر تخرج الانسان عن وعيه وتفقده إدراكه حتى يبلغ مرتبة الهذيان وفى ذلك امتهان للعقل وهو أشرف نعمة أكرم به الانسان فالخمر مفسدة للفرد فى عقله وآدميته .

(٢) وما تسببه من وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين وتصرفهم عن ذكر الله وقد وصفها الله سبحانه بأنها (رجس من عمل الشيطان) .

ثانيا : أنها مسببة لكثير من الأمراض الخطيرة وبيان ذلك :

(١) تؤثر على الجهاز الهضمى وذلك يسبب الالتهابات المزمنة بالغشاء المخاطى المبطن للمعدة مع حرمانها من الحمض اللازم لعملية الهضم فيعاني المدمن دائما من عسر الهضم .

(٢) تؤثر على القلب وعضلاته فتصبح شحمية القوام .

(٣) تؤثر على الجهاز العصبى وتصيبه بالتهابات أطراف الأعصاب والشلل والارتعاشات فى أصابع اليد واللسان .

(٤) تؤثر على الصحة العقلية فتظهر تغيرات نفسية عقلية من المدمنين تتسم بشكوك متطرفة تجاه الآخرين من زوجة وزملاء وأصدقاء ونزوع عدوانى اجرامى وتزداد الصور بشاعة مما يعرف بالهوس الكحولى .

(٥) تؤثر تأثيراً مباشراً على الكبد فتعطل عمله وبذلك تصبح هذه السموم خطراً على حياة الشخص وقد تؤدى إلى الوفاة .

ثالثا : مضار الخمر من الناحية الاقتصادية وبيان ذلك :

(١) أن الخمر تضعف شاربها وتجعله إنسانا مريضا لا يتمتع بالقدرات الانتاجية التى يتمتع بها الشخص السوى . وبذلك لا يكون عنصراً فعالا فى الاقتصاد القومى .

(٢) أن تعاطى الخمور يفتح سوقا واسعة لاستيراد المنتجات الكحولية وفى ذلك ضياع للأموال كان الأولى وضعها فيما يمكن أن يعود على الناس بالنفع والفائدة بدلا من إنفاقه فيما يعود عليهم بالضرر والخراب[١] .

* * *

(١) انظر كتاب (نظام التجريم والعقاب فى الإسلام مقارنا بالقوانين الوضعية) للمستشار على على منصور (١ : ٩٣ ــ ٩٤) .

الوصية

الوصية لغة : تطلق على فعل الموصى وعلى ما يوصى به من مال أو غيره من عهد ونحوه .

وفى الشرع : عهد خاص إلى ما بعد الموت .

وسميت وصية لأن الميت يصل بها ما كان فى حياته بعد مماته[1] .

قال تعالى ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ والاقْرَبِينَ بِالمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى المُتَّقِينَ . فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيم . فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم** ﴾[2] .

هذه آية الوصية حيث أوجبت الوصية وفرضتها (كتب عليكم) كتب بمعنى فرض فدل على وجوب الوصية .

أخرج البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ما حق امرىء مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)[3] .

قال ابن حجر : استدل بهذا الحديث مع ظاهر الآية على وجوب الوصية[4] .

اختلف العلماء فى نسخ هذه الآية على أقوال :

أولا : إن هذه الآية منسوخة بآية المواريث ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا**

---

(١) فتح البارى (٦ : ٢٨٥) كتاب الوصية .

(٢) البقرة : ١٨٠ ــ ١٨٢ .

(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٦ : ٢٨٦ ــ ٢٨٧) . ٢٨٧) .

(٤) فتح البارى (٦ : ٢٨٧) .

وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾[1] بقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ﴾[2] الآيتين .

ثانيا : وقيل إنه لا نسخ بل الآيتان محكمتان فالأولى باقية فيمن كان صاحب فرض وحجب فى الميراث أو انه من ذوى الأرحام ، أو أن الأولى فى الوصية المندوب إليها بأن كان من أصحاب الفروض من هو صاحب عاهة لا يستطيع التكسب أو أنه من ذوى العيال . فيؤثره المورث بحظ أوفر فى الوصية .

والذى أرجحه أن آية الوصية منسوخة وبخاصة أن فيها من هم لا يسقطون فى التوريث بحال . وهم الوالدان . وجاء فى الحديث الصحيح الذى أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبى امامة (سمعت رسول الله ﷺ يقول فى خطبته عام حجة الوداع « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » قال الترمذى حديث حسن صحيح واللفظ للترمذي)[3] .

وكذلك الحديث المرفوع الذى أخرجه البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين . فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس وجعل للمرأة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع)[4] .

فثبت النسخ وأن الناسخ الآيات من سورة النساء . وقد جاء ذلك أيضاً فى الاجماع . والاجماع عند العلماء لا يكون إلا عن دليل فثبت النسخ بذلك أيضا .

وأما تصدير آية الوصية (بكتب) فلا يمنع ذلك لأن النسخ معناه العمل بالمنسوخ إلى حين الأبد فإذا نزل الناسخ ألغى هذا الزمن حين العمل بالناسخ .

---

(١) النساء : ٣٢ .

(٢) النساء : ١١ .

(٣) سنن أبى داود (٢ : ١٠٣) .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٠١ — ٣٠٢) .

وتبقى الوصية بمفهومها العام فيمن لا يرث . وهى حق الميت فى حدود ثلث التركة كما ثبت فى الحديث الصحيح عن سعد بن أبى وقاص قلت يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال لا قلت : فالشطر ؟ قال لا : قلت الثلث قال : الثلث والثلث كثير)[1] . الحديث .

وقوله تعالى (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) .

أى من بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ويدخل فى ذلك الكتمان بطريق الأولى وقوله (فمن خاف من موص جنفا أو إثما) الجنف الخطأ وهو يشمل أنواع الخطأ كلها سواء كان غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر ، أو متعمدا آثما فللوصى والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل فى الوصية على الوجه الشرعى[2] .

قال ابن كثير وأحسن ما ورد فى الباب ما أخرجه عبد الرزاق بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فاذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة) .

قال أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم (تلك حدود الله فلا تعتدوها) الآية[3] .

* * *

---

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٦ : ٢٩٤ ، ٢٩٥) .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ٢١٢) .

(٣) المصنف لعبد الرزاق الصنعانى (٩ : ٨٨) حديث رقم ١٦٤٥٥ .

حكمة مشروعيتها

الإسلام جعل المسلم له كيانه المستقل فى استغلال ماله فى وجوهه المشروعة وليس للدولة أن تجور على الأفراد ولا أن تستولى على ثرواتهم وممتلكاتهم ومواردهم . فللفرد المسلم كامل الحرية فى التصرف فيه . ومن جملة الطرق المشروعة فى التصرف فى المال الوصية به . وهى لون من ألوان التكافل العائلى العام فى خارج حدود الوراثة .

والوصية متى ما أحسن الموصى فى وضعها فى الموضع المناسب لها وكانت فى حدود الثلث يناله الثواب الجزيل وقد تكون سببا فى دخول الجنة كما مر علينا فى حديث أبى هريرة السابق وهى بمنزلة الصدقة الجارية كما فى الحديث الصحيح (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية : أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)[1] .

* * *

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الوصايا (١١ : ٨٥) والبخارى فى الأدب المفرد حديث ٣٨ (١ : ١٠٤) .

الفرائض

فى السنة الثالثة بعد غزوة أحد نزلت آية فرض الميراث .

أخرج الامام أحمد[(١)] فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ بابنتيها من سعد فقالت يا رسول الله : هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما فى أحد شهيدا وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال . فقال : يقض الله فى ذلك . قال : فنزلت آية المواريث . فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقى فهو لك .

وآية المواريث هى قوله تعالى : ﴿ **يُوصِيكُمْ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنْثَيَيْنِ** ﴾ إلى قوله (والله عليم حكيم)[(٢)] .

ثم نزلت آية الكلالة وأكملت ما بقى من أصحاب الفرائض .

قال تعالى ﴿ **إنْ امْرِؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ** ﴾ الآية[(٣)] .

وقوله تعالى ﴿ **يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ** ﴾[(٤)] .

وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله قال مرضت فأتانى رسول الله ﷺ وأبو بكر يعودانى ماشيين فأغمى عَلىّ فتوضأ ثم صب عَلىّ من وضوئه فأفقت قلت يا رسول الله كيف أقضى فى مالى

---

(١) الفتح الربانى (١٨ : ١١١) .

(٢) النساء : ١١ — ١٢ .

(٣)(٤)النساء : ١٧٦ .

فلم يرد على شيئا ؟ حتى نزلت آية الميراث (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة)[1] الآية .

والجمهور من العلماء فى أن المراد بالكلالة فى الآية (اسم للميت الذى ليس له ولد ولا والد ذكرا كان الميت أو أنثى) .

قال النووى : ذكر بعض العلماء الاجماع على أن الكلالة من لا ولد له ولا والد[2] .

ومذهب الجمهور أن معنى الآية الكريمة (أن توريث النصف للأخت بالفرض لا يكون إلا إذا لم يكن ولد فعدم الولد شرط لتوريثها النصف فرضا)[3] .

وإذا نظرنا فى الوراثة وكيف كانت فى عهد الجاهلية ثم فى صدر الدعوة الإسلامية وكيف استقر الأمر لها حينئذ يتجلى لنا مدى عناية الإسلام بموضوع الوراثة.

(١) كانت الوراثة فى الجاهلية بالذكورة والقوة فكانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان فأبطل الله ذلك بقوله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية[4] .

(٢) وكانت أيضا فى الجاهلية وابتداء الاسلام بالمحالفة. قال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ** ﴾[5] .

(٣) ثم صارت الوراثة بالهجرة قال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا** ﴾[6] .

---

(١) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووى (١١ : ٥٥) كتاب الفرائض .

(٢) انظر شرح النووى على صحيح مسلم (١١ : ٥٨) .

(٣) أنظر شرح النووى على صحيح مسلم (١١ : ٥٩) .

(٤) النساء : ٧ .

(٥) النساء : ٣٣ .

(٦) الانفال : ٧٢ .

(٤) نسخ ذلك كله وصارت الوراثة بأحد الأمور الثلاثة (النسب أو النكاح أو الولاء) .

والمعنى بالنسب ان القرابة يرث بعضهم من بعض لقوله تعالى ﴿ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ﴾[١] .

والمعنى بالنكاح أن أحد الزوجين يرث صاحبه .

ومعنى الولاء : أن المعتق بكسر التاء الفوقية وعصباته يرثون المعتق بالفتح[٢] .

* * *

(١) الأنفال : ٧٥ .

(٢) الفتح الرباني (١٨ : ١١١) .

الحكمة في تشريع هذه القسمة

(١) لقد شرع الحق سبحانه وتعالى المواريث وفصلها فى كتابه العزيز وتولى توزيعها لأنه العالم بأحوال عباده الخبير بمصالحهم ونلاحظ ختم آيات المواريث بقوله تعالى (إن الله كان عليماً حكيماً) وفى الثانية (عليم حليم) وتوعد من يخالف تلك الفروض بالعذاب المهين ﴿ **وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ . النساء الآيات ١١ — ١٢ — ١٤ ثم فى آية الكلالة ختمها بقوله (والله بكل شىء عليم) لا يخفى عليه شىء سبحانه وتعالى .

(٢) إن فى تلك الفروض التى فرضها الله حكمة عظيمة فهى مدعاة لاستقرار الأسرة وطمأنينتها واستمرارها وفى المحافظة على الثروة وعدم ضياعها .. ذلك أنها حافز للانسان للاستمرار فى العمل وذلك إذا علم أن الثروة ستؤول إلى أهله وأسرته بعد مماته ، ولولا ذلك لقل نشاطه فى حال كبره واستغنائه ، ولعمد هو وأهله لتبديد الثروة إذا كبرت سن رب الأسرة أو المورث .

(٣) إن الإسلام لم يحرم المرأة من الميراث كما هو حال المذاهب الأخرى .

(٤) إنه راعى مضاعفة ميراث الرجل (للذكر مثل حظ الأنثيين) :

(أ) قال تعالى ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِم** ﴾(١) .

فالذى يتولى الانفاق على المرأة هو الرجل سواء أكان أبا أم زوجا أم ابنا إذن لابد من مضاعفة المال فى يده .

---

(١) النساء : ٣٤ .

(ب) إن الرجل أكمل حالا من المرأة فى الخلقة وفى العقل وكذلك شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ومن كان كذلك كان الانعام عليه أزيد .

(جـ) إن المرأة قليلة العقل كثيرة الشهوة ، فإذا انضاف إليها المال الكثير عظم الفساد)[2] .

* * *

---

(١) أنظر تفسير الرازى (٩ : ٢٠٧) .

الحـــدود

الحد لغة : المنع . لذلك عرف بعض فقهاء الشريعة الحدود بأنها موانع قبل الفعل زواجر بعده أى أن العلم بشرعيتها يمنع الاقدام على الفعل وإيقاعها بعده يمنع من العودة إليه(١) .

الحدود : جمع حد وأصل الحد ما يحجز بين شيئين فيمنع اختلاطهما وسميت عقوبة الزنى ونحوه حدا لكونها تمنعه من المعاودة . أو لكونها مقدرة من الشارع(٢) .

وسوف أذكر فيما يلى حد الزنى ، والقذف ، والسرقة ، والحرابة .

حد الزنى

الزنى لغة : الوطء المحرم .

فى الشرع : وطء الرجل امرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح(٣) .

ولقد كان الزنى من أعظم الأمراض تفشيا . ومن أشنع الرذائل وأقبحها . ومن سنة الله عز وجل فى تشريع الأحكام أن يسير بالأمة فى طريق (التدرج) ليكون أنجح فى العلاج ، وألزم فى التطبيق ، وأسهل على النفوس تقبلا كما مر علينا فى تحريم الربا والخمر .

فكانت عقوبة الزنى فى صدر الاسلام مخففة لأن الناس حديثو عهد بحياة الجاهلية . فكانت عقوبة المرأة (الحبس فى البيت) وعدم الاذن لها بالخروج منه وعقوبة الرجل (التأنيب والتوبيخ) بالقول من شتم وتعيير .

---

(١) شرح فتح القدير لابن الهمام (٤ : ١١٢) المطبعة الأميرية .

(٢) انظر فتح البارى (١٥ : ٦١) كتاب الحدود .

(٣) تفسير آيات الأحكام للشيخ الصابونى (٢ : ٨) .

قال تعالى : ﴿ واللاَّتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً.وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيما ﴾[1] .

قال ابن كثير : قال ابن عباس (كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد والرجم) وانتهى ذلك الحكم المؤقت إلى تلك العقوبة الرادعة الزاجرة[2] .

قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ واليَوْمِ الآخِرِ ﴾ الآية .

أخرج مسلم فى صحيحه عن عبادة بن الصامت قال كان النبى ﷺ إذا أنزل عليه كرب لذلك وتربد له وجهه قال فأنزل عليه ذات يوم فلقى كذلك فلما سرى عنه قال : خذوا عنى فقد جعل الله لهن سبيلا الثيب بالثيب والبكر بالبكر الثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة والبكر جلد مائة ثم نفى سنة[3] .

ولم ينص القرآن الكريم على رجم المحصن. وهذا مما نسخ لفظه وبقى حكمه . وقد ثبت ذلك بفعل النبى ﷺ وكذلك بإجماع الصحابة والتابعين وبطريق التواتر . وقد أقام النبى ﷺ (حد الرجم) على بعض الصحابة كماعز والغامدية ولم يخالف فى ذلك إلا فئة شاذة وهم الخوارج حيث أنكروا مشروعية الرجم . وقد تنبأ لذلك الفاروق عمر بن الخطاب . أخرج البخارى ومسلم واللفظ للبخارى

---

(١) النساء : ١٥ ــ ١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ٤٦٢) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (١١ : ١٩٠) وهذا الحديث وان كان صحيحا وقد عمل به الامام على كرم الله وجهه لكنه روجع من الصحابة فرجع عن رأيه ، وذلك أنهم علموا النسخ وشاهدوا رسول الله ﷺ وهو يرجم بدون جلد المحصن ، ومن علم حجة على من لم يعلم . فبقى حكم الجلد لمن لم يحصن والرجم لمن أحصن والله أعلم .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٥ : ١٥٥) ، صحيح مسلم بشرح النووى (١١ : ١٩١) .

بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عمر لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله الا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة ، أو كان الحمل أو الاعتراف . قال سفيان كذا حفظت ، ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده[1] .

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٥ : ١٥٥) ، صحيح مسلم بشرح النووى (١١ : ١٩١) .

لعل أول ما تهدمه جريمة الزنى هو خلق الطهارة والعفة فى النفس البشرية وهو الخلق الذى يرتقى به الانسان عن مستوى الحيوان .

ويعد الزنى فى الشريعة الاسلامية جريمة من أقبح الجرائم وأشنعها لذلك كانت عقوبته شديدة صارمة لأن فى هذه الجريمة إهدارا لكرامة الانسانية وتصديعا لبنيان المجتمع . وفيه تعريض النسل للخطر . فالزنى يفضى إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب وكثرة (اللقطاء) وأولاد البغاء ولا يكون هناك من يتعهدهم ويربيهم وينشئهم النشأة الصالحة، وربما كان هؤلاء الأطفال مصدر فساد للمجتمع .

ومن أهداف الشريعة الاسلامية وأغراضها الأساسية الكليات الخمس وهى (حفظ العقل ، وحفظ النسل ، وحفظ النفس ، وحفظ الدين ، وحفظ المال) ولقد قررت جميع الأديان حفظها وشرعت مايكفل حمايتها لأنها ضرورية لحياة الانسان . ولما كان (النسل) هو أحد هذه الضروريات لذلك شرع الاسلام من العقوبات الصارمة ما يقطع دابر هذه الجريمة ، ويحقق الأمن والاستقرار للمجتمع[1] .

وإذا كان الزنى قد أخل بموازين الزواج وأصوله ، فإنه من ناحية أخرى أوجد الكثير من العوانس والمطلقات ، لأنه إذا فتح باب الزنى أغلق باب الزواج .

ومن مضار الزنى أيضا أنه إذا ما تداخلت الأنساب أدى الى توزيع الميراث على من لا يستحق وحرمان المستحق منه .

---

(١) انظر بتصرف من تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد على الصابونى (٢ : ٥٢) .

وأخيرا فإن فى الـزنى من انـتشار الأمـراض والاصابـة بالعـدوى القاتلـــة من سيلان وزهرى وغالبا مايمتد أثرها إلى الكبد والمثانة والخصيتين **مما لا يخفى ولا عجب** إذا رأينا أن الأديان السماوية كلها مجمعة على تحريمه وصدق الله العـظيم حيث قال **﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إنَّهُ كَانَ فَاحِشَـةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾**[1] .

---

(١) الاسراء : ٣٢ .

حد القذف

القذف : هو الرمى بالزنى — وهو محرم بإجماع الأمة[١] .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيم** ﴾[٢] .

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهى الحرة البالغة العفيفة . فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضا . وليس فيه نزاع بين العلماء . وعلى المقذوف أن يقيم البينة على إثبات القذف وحينئذ يجلد القاذف . فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد . فإذا لم يقم البينة ترتب على ذلك ثلاثة أحكام :

(**أحدها**) : أن يجلد ثمانين جلدة .

(**الثانى**) : أن ترد شهادته .

(**الثالث**) : أن يكون فاسقا ليس بعدل لا عند الله ولاعند الناس[٣] .

وقد لعن الله القاذف وتوعده بالعذاب العظيم .

قال تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم** ﴾[٤] .

والقذف أحد السبع الموبقات التى أمرنا رسول الله ﷺ باجتنابها .

---

(١) المغنى (٩ : ٨٣) لابن قدامة ابى محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة، الناشر مكتبة القاهرة .

(٢) النور : ٤ — ٥ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣ : ٢٦٤) .

(٤) النور : ٢٣ .

أخـرج البخـارى بسنـده عن أبى هريـرة رضى الله عنـــه عن النبـــى ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله **ما هن** قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النـفس التـى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربـا ، وأكل مال اليـتيم ، والتـولى يوم الزحـــف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[1] .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٥ : ١٩٨) كتاب الحدود باب رمى المحصنات .

حكمة التشريع

لقد حارب الاسلام جميع الرذائل حتى جعل من الأمة الاسلامية (خير أمة أخرجت للناس) . ومن تلك الجرائم والرذائل التى حاربها جريمة القذف . فإن اتهام الناس بالباطل والوقوع فى أعراضهم دون رادع وزاجر يمنعهم من ذلك يجعل المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة الشنيعة فتصبح أعراض الأمة الاسلامية مجرحة وسمعتها ملوثة .

لذلك وصيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من إهدار الكرامة وسدا لباب الذين يريدون تلطيخ سمعة الآخرين . شدد فى عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنى (ثمانين جلدة مع اسقاط الشهادة والوصف بالفسق) وغرض الاسلام من هذه العقوبة صيانة الأعراض ، وحفظ الكرامة ، وتطهير المجتمع من مقالة السوء لتظل (الأسرة المسلمة) موفورة الكرامة مصونة الجانب[1] .

---

(١) انظر تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد على الصابونى (٢ : ٧٥) .

حد السرقة

السرقة لغة : أخذ المال فى خفاء وحيلة (والسارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له)[1] .

وفى الشرع (أخذ العاقل البالغ مقدارا من المال خفية من حرز معلوم بدون حق ولا شبهة)[2] .

قال تعالى ﴿ **وَالسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحِيم** ﴾[3] .

وعموم الآية يقتضى قطع كل سارق إلا أن الفقهاء اشترطوا فى القطع شروطا خصصوا بها العموم فمن ذلك من اضطره الجوع إلى السرقة أو سرق من غير حرز ، أو سرق أقل من النصاب .. الخ .

أما ما ذكر فى الآية عن توبة السارق فهو أن يندم على مامضى ويقلع فيما يستقبل ويرد ماسرق إلى من يستحقه[4] .

---

(١) لسان العرب (١٠ : ١٥٥) .

(٢) تفسير آيات الأحكام للشيخ الصابونى (١ : ٥٥٣) .

(٣) المائدة : ٣٨ — ٣٩ .

(٤) انظر تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبى (١ : ١٧٦) .

عقوبة السارق (قطع اليد) وهى عقوبة رادعة زاجرة . تقتلع الشر من جذوره فيسود الأمن والاستقرار ويهنأ المجتمع بحياة كريمة فيا له من تشريع حكيم وعندما خالف القانون الشريعة فجعل السجن عقابا للسارق ازدادت الجرائم وكثرت العصابات اللصوصية وأصبحت تلك الدول مهددة فى أمنها واستقرارها فلا يأمن الانسان على ماله ولا على نفسه .

قال ابن القيم (إن من بعض حكمته سبحانه ورحمته أن شرع العقوبات فى الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض ، فى النفوس والأبدان والأعراض والأموال كالقتل والجرح والقذف والسرقة فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الاحكام ، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجانى من الردع ..) .

وإن فى حد السرقة معنى آخر ، وهو أن السرقة تقع من فاعلها سرا كما يقتضيه إسمها . والعازم على السرقة مختف كاتم خائف أن يشعر بمكانه فيؤخذ به ثم هو مستعد للهرب والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء ، واليدان للانسان كالجناحين للطائر فى إعانته على الطيران ، فعوقب السارق بقطع اليد قصا لجناحه .. وعقوبة السارق بالقطع أبلغ وأردع من عقوبته بالجلد ، ولم تبلغ جنايته حد العقوبة بالقتل فكان أليق العقوبات به إبانة العضو الذى جعله وسيلة إلى أذى الناس وأخذ أموالهم[١] .

---

(١) أنظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢ : ١١٤ — ١١٥ — ١٢٦) .

حد الحرابة

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُم مِن خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِن الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[(١)] .

وسبب نزول هذه الآية هو ما أخرجه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : قدم على النبى ﷺ نفر من عكل فأسلموا فاجتووا[(٢)] المدينة فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا فبعث فى آثارهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل[(٣)] أعينهم ، ثم لم يحسمهم[(٤)] حتى ماتوا .

قال ابن حجر : (المعتمد أن الآية نزلت أولا فيهم وهى تتناول بعمومها من حارب المسلمين بقطع الطريق)[(٥)] .

قال الرازى : كلمة (أو) هنا ليست للتخيير بل هى لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات ، فمن اقتصر على القتل قتل ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يده ورجله من خلاف ومن

---

(١) المائدة : ٣٣ — ٣٤ .

(٢) فاجتووا المدينة : أى أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف اذا تطاول . لسان العرب (١٤ : ١٥٨) .

(٣) سمل أعينهم : سمل العين فقؤها — السمل أن تفقأ العين بحديدة محماة . لسان العرب (١١ : ٣٤٧) .

(٤) الحسم : المنع . أى أنه لم يمنع نزيف دمهم وذلك بكويهم بل تركهم ينزفون حتى ماتوا . لسان العرب (١٢ : ١٣٥) .

(٥) فتح البارى (١٥ : ١١٩) .

أخاف السبل ولم يأخذ المال نفى من الأرض . وهذا قول الأكثرين من العلماء وهو مذهب الشافعى رحمه الله[1] .

(١) تفسير الرازى (١١ : ٢١٥ — ٢١٦) .

لقد حافظ الاسلام على كرامة الانسان . وجعل للاعتداء على النفس أو المال أو العرض وقطع الطريق وإثارة الفزع والخوف بالنهب والقتل أشد العقوبات وأزجرها (القتل ، والصلب ، وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف والنفى) كل ذلك حتى ينعم المسلم بالأمن والاستقرار .

قال ابن القيم : ولما كان ضرر المحارب أشد من ضرر السارق وعداوته أعظم ضم إلى قطع يده قطع رجله ليكف عدوانه وشر يده التى يبطش بها. ورجله التى سعى بها ، وشرع أن يكون ذلك من خلاف لئلا يفوت عليه منفعة الشق بكماله ، فكف ضرره وعدوانه ، ورحمه بأن أبقى له يدا من شق ورجلا من شق[1] .

---

(١) اعلام الموقعين عن رب العالمين (٢ : ١٢٦) .

جريمة القتل

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِى القَتْلَى الحُرُّ بالحُرِّ وَالعَبْدُ بالعَبْدِ وَالأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِىَ لَهُ مِنْ أخِيهِ شَىْءٌ فَاتِّبَاعٌ بالمَعْرُوفِ وَأدَاءٌ إلَيْهِ بإحْسَان ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِن رَبِّكُمْ وَرَحْمَة . فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ ألِيم ﴾[1] .

قال تعالى : ﴿ وَمَاكَانَ لِمُؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلاّ خطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهْلِهِ إلاّ أنْ يَصَّدَّقُوا فَإنْ كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإنْ كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلَى أهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾[2] .

تعتبر جرائم التعدى على النفس من أخطر الجرائم وأهمها فى حياة البشر فالاعتداء فيها يقع على الجسد الانسانى . وقد يتجاوز الجانى إلى إزهاق الروح . وقد سما القرآن بالانسان لمجرد آدميته قال تعالى ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ﴾[4] .

وعلى قدر ما أعلى الاسلام من قدر الانسان فإنه قد اشتد فى النكر على من يتعدى على حياته بغير حق . فجعل الله قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعا واحياء النفس الواحدة بمثابة إحياء الناس جميعا هكذا فى شريعة بنى إسرائيل

---

(١) البقرة : ١٧٨ .

(٢) النساء : ٩٢ ــ ٩٣ .

(٣) الاسراء : ٧٠ .

(٤) التين : ٤ .

وليس فى شرعنا مايخالفه . يقول تعالى ﴿ **مِن أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً** ﴾[1] .

ولقد اعتبر القرآن أيضا أن قتل الشخص للآخر هو قتل لنفسه هو حيث إن النفس المسلمة واحدة فى الجميع قال تعالى ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيما** ﴾[2] .

ولم يأت القرآن بوعيد على المسلم أشد من الوعيد الذى أنذر به قاتل النفس . قال تعالى ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُه جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾[3] .

وقد جاءت السنة المطهرة مشددة فى قتل المؤمن .

أخرج الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم)[4] .

ومن أجل تكريم الاسلام للنفس البشرية من أن يمسها آخر بغير حق كانت شريعة القصاص التى كتبها الله لعباده .

قال تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِى القَتْلى** ﴾[5] الآية .

وشريعة القصاص فعالة فى سد منافذ الجريمة .

---

(١) المائدة : ٣٢ .

(٢) النساء : ١٢ .

(٣) النساء : ٩٣ .

(٤) سنن الترمذى (٤ : ١٦) .

(٥) البقرة : ١٧٨ .

قال ابن كثير : (وفى شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس وفى الكتب المتقدمة (القتل أنفى للقتل)[1] فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿ **ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب** ﴾ قال أبو العالية : كم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل[2] .

(١) هذا مثل مشهور من كلام فصحاء العرب .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٢١١) .

الحكمة التشريعية في القصاص

القصاص هو جزاء جريمة تعمد الاعتداء على النفس التى حرم الله إلا بالحق وهى من أكبر الجرائم التى نهى الشارع الحكيم عنها .

قال تعالى ﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ولعنه وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيما** ﴾[1] .

ذلك لأن الانسان أفضل خلق الله فى الأرض ، وأناط به تعمير الكون والرقى به . فحفظ النفس وصيانتها واجب شرعى كما أقرته العقول السليمة منذ بدء الخليقة وارتضته الفطر السليمة وشعرت بفداحة الاعتداء عليه وحرمته منذ بدء الخليقة[2] .

ولقد كان من حكمة الشريعة الاسلامية أن شرعت القصاص فى العمد وجعلته حقا للمجنى عليه أو أوليائه كما قال تعالى ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إلاّ بِالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فى القَتْلِ إنَّهُ كَانَ مَنْصُورا** ﴾[3] .

ثم جعلت أهل القتيل بخير النظيرين من استرضاء لنفوسهم وشفاء لما بها من الغيظ والألم ثم حببت إليهم العفو استجلابا لمحبة النفوس وإبقاء على أواصر التآلف بين القلوب وإغلاقا لباب التقاطع والنفرة . فرب قاتل جنى على قريب أو صديق فكادت جريمته تقطع أواصر الالفة بين الأقارب والأصحاب فإذا مكن أولياء المجنى عليه من الأخذ بحقهم وأصبحوا بالخيار بين أن يأخذوا بثأرهم أو يعفوا عن الجانى وعلموا مافى العفو من مرضاة الله تعالى رضيت نفوسهم أن يتنازلوا عن

---

(١) النساء : ٩٣ .

(٢) وذلك ما ذكرته من الآيات من سورة المائدة من آية ٢٧ ــ ٣١ من حادثة ابنى آدم .

(٣) الاسراء : ٣٣ .

القصاص إلى غيره من دية أو دونهما لأن عفوهم حينئذ من عفو القادرين وهو كما يشفى النفس يدل على سماحة العافى وكرمه ، ثم جعلت فى الخطأ الدية على عاقلة الجانى وهم أهله وعشيرته الذين يتعاونون فيما بينهم ويتناصرون عند نزول الخطب .

قال تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولى الألبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾[1] .

فانه قد جعل تشريع القصاص ظرفا للحياة وهو يفيد أن مجرد شرعيته يتسبب عنها الحياة المثلى إما بإحياء الجانى إن عفى عنه أو إحياء غيره من الكثيرين الذين ربما لو لم يشرع القصاص من الجانى لأقدموا على الجريمة التى تشيع الفساد فى الأرض وتفتح باب الأخذ بالثأر الذى يجر فى ذيله الجانى وغيره ظلما وعدوانا فكان تشريع القصاص حاجزا دون ذلك كله وسبحان العليم الحكيم[2] .

---

(١) البقرة : ١٧٩ .

(٢) باختصار من كتاب اثر تطبيق الحدود فى المجتمع (القسم الرابع بحث الدكتور عبد السميع امام) طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية المجلس العلمى . وهو من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامى الذى عقدته الجامعة بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ طبعة عام ١٤٠١ هـ .

الفصل الثاني

محاجة اهل الكتاب وبيان الصفات التي وصفهم بها القرآن الكريم

الفصـــل الثـــاني

بنو إسرائيل

ومن مقاصد السور المدنية الحديث عن أهل الكتاب .

لقد فصل القرآن الكـريم الحديث عن بنـى إسرائيـل تفصيـلا وافيـا ووصف عقائدهـم وأخلاقهـم ومواقفهـم من الأنبيـاء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وصفـا مستفيضا .

ولقد اعتـنـت الآيات والسور المكيـة أكثر عنايـة بذكـر قصصهـم وأحـوالهم المختلفة ومواقفهم مع رسلهم إلى غير ذلك من أحداث سبـقت بعثـة خاتم الأنبيـاء عليه الصلاة والسلام .

أما الآيات والسور المدنية والتـى نحن بصدد الحديث عنها فقـد تحدثت عن مواقفهم تجاه الدعوة الإسلامية ، ومحاربتهم لها ، وعما أسبغـه الله عليهم من النعـم ، وما أنزله الله بهم من النقـم ، جزاء كفرهـم وإعراضهـم عن أوامـر ربهم كما تحدثت بالتفصيل عن أخلاقهم ورذائلهم والرد على جميع ما وجهوه من الدعـاوى الباطلـة . وعن مسالكهم المتنوعة لكيد الإسلام والمسلمين قال الشيخ المراغى : (وأمهات ما جاء فى السور المدنية قواعد التشريع التفصيلية ومحاجة أهل الكتاب وبيان ما ضلوا فيه من هدايـة كتبهم ورسلهـم فكثر فى سورة البقـرة محاجـة اليهود . وكثر فى سورة آل عمران محاجة النصارى وكثر فى سورة المائدة محاجة الفريقين ..)[1] .

* * *

---

(١) تفسير المراغى (١٠ : ٤٦) .

من هم بنو اسرائيل

بنو إسرائيل: نسبة إلى أبيهم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام — وإسرائيل : كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة ، ومن (إيل) وهو الله . فيكون معنى الكلمة عبد الله ، أو صفوة الله(١) .

وكان يعقوب يقيم فى أرض كنعان (الشام) وقد أنجب من الولد إثنى عشر ولدا: يوسف ، بنيامين ، شمعون ، لاوى ، رأوبين ، يهودا ، يساكر ، زبولون ، دان ، نفتالى ، جاد ، أشير .

هؤلاء هم أبناء يعقوب عليه السلام المشار إليهم فى القرآن بالأسباط قال تعالى ، داعيا المؤمنين إلى الايمان بالله والايمان بهم وبأنبيائهم :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾(٢) .

قال صاحب الفتوحات الالهية (الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب من بنى إسماعيل فأسباط بنى إسرائيل هم قبائلهم . وهذا كله بالنظر إلى أصل اللغة فى إطلاق السبط على ولد الولد مطلقا وإلا فالعرف الطارىء خصص السبط بولد البنت والحفيد بولد الابن)(٣) .أ.هـ .

---

(١) أنظر كتاب بنو اسرائيل فى القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوى (١ : ٦) ط/ الاولى ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م توزيع دار حراء بالقاهرة . وكذلك تفسير القرطبى (١ : ٣٣١) .

(٢) البقرة : ١٣٦ .

(٣) أنظر الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ (١ : ١١١) ط/ بمطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر .

وتوضيحا لما سبق : المراد بالأسباط : تلك القبائل المتناسلة من هؤلاء الأبناء الاثنى عشر قال تعالى عنهم ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾[١] .

وهؤلاء الأبناء الاثنا عشر كانوا جميعا أنبياء دل على ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾[٢] .

أما عن سبب تسميتهم بيهود فقد اختلف فى ذلك :

(١) قيل إنهم سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل . وقالوا (إنا هدنا إليك)[٣] أى تبنا ورجعنا .

قال ابن منظور (الهود : التوبة ، هاد يهود هودا وتهود : تاب ورجع إلى الحق) فهو هائد ... وفى التنزيل العزيز ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تبنا إليك . وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم[٤] .

(٢) وقيل إنهم سموا بذلك لأنهم يتهودون ، أى يتحركون عند قراءة التوراة .

(٣) وقيل إنهم سموا يهودا نسبة إلى (يهوذا) الابن الرابع ليعقوب عليه السلام وقد رجح بعض العلماء هذا القول . قال البيرونى مؤيدا هذا القول :

(إنما سموا باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الاسباط . فإن الملك استقر فى ذريته وابدلت الذال المعجمة دالا مهملة ، لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء أعجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها ...)[٥] .

---

(١) الاعراف : ١٦٠ .

(٢) النساء : ١٦٣ .

(٣) الاعراف : ١٥٦ .

(٤) لسان العرب لابن منظور (٣ : ٤٣٩) بتصرف ط/دار صادر بيروت .

(٥) تاريخ الملل والنحل (٢ : ٤) للمرحوم الأستاذ أمين الخولى . وانظر تفسير القرطبى (١ : ٤٣٢) .

وعن تسمية المسيحيين -. بالنصارى ــ وأصل اشتقاقها وسبب تسميتهم بذلك :

فالنصارى : جمع ، واحده نصرانى وقيل نصران بإسقاط الياء . وهذا قول سيبويه . والأنثى نصرانة ، كندمان وندمانة . وهو نكرة يعرف بالألف واللام . ولا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياء النسب ، لأنهم قالوا : رجل نصرانى وامرأة نصرانية . وفى الحديث (فأبواه يهودانه أو ينصرانه)[1] أ . هـ .

والديانة المسيحية امتداد للديانة اليهودية وكلاهما كانتا فى بنى اسرائيل ولذا نرى أن المسيح عليه السلام كان يحكم بنى اسرائيل بالتوراة مع الانجيل قال تعالى ﴿ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِن التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[2] .
على لسان عيسى ابن مريم (عليه السلام) .

قال القرطبى[3] : أما سبب التسمية :

(١) فقيل نسبة إلى قرية تسمى « ناصرة » كان ينزلها عيسى ابن مريم فنسب إليها فقيل : عيسى الناصرى ، فلما نسب أصحابه إليه قيل النصارى . قاله ابن عباس وقتادة .

وقال الجوهرى : نصران قرية بالشام ينسب إليها النصارى ، ويقال ناصرة .

(٢) وقيل سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا .

(٣) وقيل سموا بذلك لقوله تعالى ﴿ مَنْ أَنْصارِى إلى الله قَالَ الحَوَارِيُّونَ[4] نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ﴾[5] .

(١) أنظر لسان العرب (٥ : ٢١١) ، تفسير القرطبى (١ : ٤٣٣) .
(٢) آل عمران : ٥٠ .
(٣) تفسير القرطبى (١ : ٤٣٣ ــ ٤٣٤) .
(٤) الحواريون : هم أنصار المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وخاصته الذين استجابوا له ولدعوته .
(٥) آل عمران : ٥٢ .

اليهود وهجرتهم الى الحجاز

اختلفت آراء المؤرخين حول أصل يهود المدينة المنورة ــ والحجاز عامة ــ والمكان الذى هاجروا منه والزمان الذى قدموا فيه ، ولكن أقواها يميل إلى أن بداية نزوحهم من الشام فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد بعد أن نجح الرومان فى السيطرة على سوريا ومصر فى القرن الأول ق.م وعلى اليهود ودولة الأنباط فى القرن الثانى بعد الميلاد مما أدى باليهود إلى الهجرة إلى شبه الجزيرة العربية التى كانت بعيدة عن سيطرة الرومان الذين أفزعوهم .

غير أن هجرة اليهود إلى الحجاز اشتدت بعد فشل التمرد اليهودى ضد الرومان والتى أخمدها الامبراطور تيتوس فى عام ٧٠م ، وقد وصل بعض هؤلاء اليهود المهاجرين إلى المدينة (يثرب) كما وصلت مجموعة أخرى من اليهود إلى المدينة (يثرب) بعد فشل ثورة أخرى قاموا بها فى زمان الامبراطور هادريان بين عامى ١٣٢ ــ ١٣٥م .

وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية فى المدينة والحجاز[١] .

ولا شك أن المجتمع المدنى تأثر باليهود اقتصاديا وسياسيا وفكريا .

لقد حملوا معهم خبراتهم الزراعية والصناعية والعمرانية مما أثر فى ازدهار بساتين المدينة حيث النخيل والأعناب والرمان واشتغلوا بتربية المواشى والدواجن وبرزت صناعات عديدة يدوية فكانت نساؤهم يشتغلن بنسج الأقمشة ومن أهم الصناعات التى اشتهروا بها صناعة الصياغة واشتهر منهم بنو قينقاع حتى لقد عرف سوق خاص باسمهم . كما كانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية .

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام (٦ : ٥١٣ ــ ٥١٤) بتصرف ، د. جواد على ، ط/ بيروت ١٩٦٨م .

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطى الربا وكان لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك . لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد وقد وبخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا الذى نهاهم الله عن أخذه فقال تعالى ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِنَ الّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً ، وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالباطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً** ﴾[١] .

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية فى المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم المالى ، وصاروا يتحكمون فى الاسواق تحكما فاحشا ، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم . ولقد أقام اليهود مساكن خاصة بهم تمتاز بعزلتها ومتناتها . ومن تلك المساكن الآطام حيث بلغ عددها فى يثرب تسعا وخمسين اطما[٢] .

وقد أقاموها ليتحصنوا فيها عند الاخطار وليدافعوا عن أنفسهم من ورائها[٣] .

قال شاعرهم فيها :

وآطامنا عاليَّةٌ مُشمَخِرة ... تلوح فتنكى من نعادى وتمنع[٤]

وقد أخبر عن ذلك القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ **لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ** ﴾[٥] .

---

(١) النساء : ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) وفاء الوفاء للسمهودى (١ : ١٦٥) .

(٣) قال الشهرستانى صاحب الملل والنحل (٣ : ١١ — ١٢) : وانما بنى اسلافهم الحصون والقلاع بقرب المدينة لنصرة رسول آخر الزمان فامروهم بمهاجرة أوطانهم بالشام الى تلك القلاع والبقاع حتى اذا ظهر واعلن الحق بعد أن هاجروا إلى يثرب هجروه وتركوا نصره . وذلك قوله تعالى ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾

(٤) وفاء الوفاء للسهمودى (١ : ١٦٣) .

(٥) الحشر : ١٤ .

أحوالهم الدينية وكتبهم المقدسة :

وقد كان لليهود الذين سكنوا جزيرة العرب مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم كما كانت لهم أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم وكانت هذه الأماكن تسمى (المدراس) أى المكان الذى تدرس فيه نصوص التوراة وأمور الشريعة . وكذلك كانت تلك الأماكن ، المكان الذى يجتمع فيه اليهود لتبادل المشورة فى سائر أحوالهم الدينية والدنيوية . وقد يراد منه كبير اليهود الذى يعلمهم شريعتهم .

وقد جاءت الأخبار الصحيحة بأن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة كان يذهب إلى (مدراسهم) ليدعوهم إلى الاسلام ويحذرهم من الكفر به فقد أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (بينما نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : انطلقوا إلى يهود . فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس[(1)] فقام النبى ﷺ فناداهم يامعشر يهود أسلموا تسلموا ، فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم، فقال ذلك أريد ، ثم قالها الثانية فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، ثم قال الثالثة فقال اعلموا أن الأرض لله ورسوله وأنى أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئا فليبعه ، والا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله)[(2)] .

وقد كانت لليهود تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم فيما يتعلق بالذبائح ، والقصاص ، والميراث ، والختان ، والنكاح ، وما يخص المرأة وغيرها من التشريعات التى بعضها أخذوه عن كتبهم وبعضها وضعه لهم كهانهم وأحبارهم من عند أنفسهم بما يلائم أهواءهم .

ولنضرب مثلا عن بعض تشريعاتهم الخاصة بهم . أخرج مسلم فى

---

(١) المدراس : بكسر الميم وآخره مهملة مفعال من الدرس . والمراد به كبير اليهود ، ونسب البيت اليه لأنه هو الذى كان صاحب دراسة كتبهم أى قراءتها . وفسره بعضهم بالبيت الذى تقرأ فيه التوراة . فتح البارى لابن حجر (١٥ : ٣٥٠) .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٥ : ٣٥٠) كتاب الاكراه .

صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن فى البيوت ــ أى لم يخالطوهن ولم يساكنوهن فى بيت واحد ــ فسأل أصحاب النبى ﷺ النبى ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِى المَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ . إن اللَّهَ يُحِبُ التَّوابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِين** ﴾[1] .

فقال رسول الله ﷺ (اصنعوا كل شىء إلا النكاح) .

فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير ، وعبادة بن بشر فقالا : يا رسول الله تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه النبى ﷺ حتى ظننا أن قد وجد[2] عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبى ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما فعرفا أنه لم يجد عليهما)[3] .

وكانت لليهود أعيادهم الخاصة بهم . كما كانت لهم أيام معينة يصومونها كيوم عاشوراء .

أخرج الامام مسلم فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء . فقال لهم رسول الله ﷺ (ماهذا اليوم الذى تصومونه؟) فقالوا: هذا يوم عظيم. أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرا . فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ (فنحن أحق وأولى بموسى منكم) فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه[4]

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .

(٢) (قد وجد عليهما) أى غضب عليهما . ولم يجد عليهما أى لم يغضب . لسان العرب (٣ : ٤٤٦) .

(٣) صحيح مسلم بتحقيق الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقى (١ : ٢٤٦) ــ كتاب الحيض

(٤) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (٢ : ٧٩٦) باب صوم يوم عاشوراء .

هذه نبذة مختصرة عن أحوال اليهود فى المدينة حيث كانوا يسكنون أما النصارى فكانوا يسكنون فى نجران فى جنوب الجزيرة العربية فى نحو ثلاث وسبعين قرية[1] .

وكان أهل نجران أعظم النصارى فى عيسى قولا فكانوا يجادلون النبى ﷺ فيه .

أخرج الطبرى بسنده عن ابن عباس قوله ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون** ﴾[2] وذلك أن رهطا من أهل نجران ، قدموا على محمد ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا لمحمد : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسى تزعم أنه عبد الله . فقال محمد : أجل إنه عبد الله ، قالوا له : فهل رأيت مثل عيسى ، أو أنبئت به ؟ ثم خرجوا من عنده ، فجاءه جبريل بأمر ربنا السميع العليم فقال : قل لهم : إذا أتوك (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) .. إلى آخر الآية[3] . إلى قوله ﴿**فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَاجَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِين** ﴾[4] .

وقوله(نبتهل) أى نتضرع فى الدعاء .وأصل الابتهال الاجتهاد فى الدعاء باللعن وحكى أبو عبيدة : بهله الله .يبهله بهلة أى لعنة[5] .

قال القرطبى : (هذه الآية من أعلام نبوة محمد ﷺ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه

---

(١) أنظر البداية والنهاية (٥ : ٥٤) .
(٢) آل عمران : ٥٩ .
(٣) تفسير الطبرى (٣ : ٢٩٥) وأنظر البداية والنهاية لابن كثير (٥ : ٥٢ — ٥٥) .
(٤) آل عمران : ٦١ .
(٥) أنظر تفسير القرطبى (٣ : ١٠٤) .

اضطرم عليهم الوادى نارا فإن محمدا نبى مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى ، فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا كل عام ألف حلة فى صفر وألف حلة فى رجب فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك بدلا من الاسلام[1]) . ا.هـ .

ولاشك أن العقيدة التى شرعها عيسى عليه السلام هى عقيدة التوحيد . قال الشيخ محمد أبو زهره[2] : (ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هى التوحيد الكامل بكل شعبه ، التوحيد فى العبادة ، فلا يعبد إلا الله . والتوحيد فى التكوين لخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له التوحيد فى الذات والصفات فليست ذاته مركبة وهى منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه وتعالى .

فالقرآن يثبت أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد الكامل وهذا ما يقوله الله تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من محاورة بينه وبين ربه .

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ ءأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَايَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَن اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أنت الرَّقِيبَ عَلَيهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيد ﴾[3]

---

(١) تفسير القرطبى (٣ : ١٠٤) .

(٢) محاضرات فى النصرانية (ص ١٢ — ١٣) للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . ط/ الرابعة ١٣٩٢ هـ طبع ونشر دار الفكر العربى .

(٣) المائدة (١١٦ — ١١٧) .

صفات بني اسرائيل كما تحدث عنها القرآن الكريم

لقد سجل القرآن الكريم فى آياته وسوره الكريمة وبالأخص المدنية منها كثيرا من أخلاق بنى اسرائيل السيئة وطباعهم القبيحة ونواياهم الخبيثة .

فقد وصفهم بنقضهم للعهود والمواثيق ، وبالكفر والجحود والأنانية والغرور ، والجبن والكذب والخداع وانحراف الطباع ، وقسوة القلب والعصيان والتعدى وأكل أموال الناس بالباطل ، والمسارعة فى الاثم والعدوان .. إلى غير ذلك من الرذائل والصفات الممقوتة والقبيحة التى سطرها القرآن الكريم . واستحقوا الطرد بسببها من رحمة الله .

إن هذه الصفات الدميمة التى سطرها القرآن الكريم يراها ويلمسها البشر واضحة جلية فيهم على مر السنين والدهور وعصرنا الحاضر خير شاهد على رسوخها فيهم وتمكنها منهم . وسوف أذكر بعضها على وجه الاجمال ثم أتحدث عنها تفصيلا فيما سيأتى إن شاء الله .

أولا : سوء أدبهم مع الله ، وعداوتهم للملائكة ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونبذهم لكتاب الله واتباعهم السحر .

ثانيا : تحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتحايلهم على استحلال محارم الله .

ثالثا : نقضهم العهود ، وجحودهم الحق .

رابعا : تنطعهم فى الدين وإلحافهم فى المسألة .

خامسا : حرصهم على الحياة وجبنهم عند الجهاد .

أولا : سوء أدبهم مع خالقهم جل وعلا ــ وعداوتهم للملائكة وقتلهم لأنبيائه ، ونبذهم لكتاب الله واتباعهم السحر .

قال تعالى ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ، سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلِهِمُ الانْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقٍّ . وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيق . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَإِنَّ الله لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد** ﴾[1] .

أخرج الطبرى وابن اسحاق عن ابن عباس رضى الله عنهما قال دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، كان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له : اشيع ، فقال أبو بكر رضى الله عنه لفنحاص : ويحك يافنحاص ، اتق الله واسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل . قال فنحاص : **والله** يا أبا بكر ما بنا إلى **الله** من فقر، وإنه الينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطينا . ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة . وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله ،فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر ما حملك على ما صنعت؟ فقال يا رسول إن عدو الله قال قولا عظيما ، زعم أن الله فقير ، وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه . فجحد ذلك فنحاص ، وقال :ما قلت ذلك ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبى بكر ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ الآية[2] .

---

(١) آل عمران : ١٨١ ــ ١٨٢ .

(٢) تفسير الطبرى (٤ : ١٩٤) .

فهـذا الأثـر يدل على أن اليهود كانـوا يتهكمـون على القـرآن الكـريم عندمـا يحض الناس على البذل والعطاء والجود والسخاء والانفاق فى سبيل الله ــ ويصفـون الله عز وجل ــ بما هو منزه عنه ويحاولون بشتى الطرق تحريض المؤمـنين على الشح وعدم الانفاق لتشكيكهم فى دينهم ، وصرفهـم عن الاستجابـة لكتـاب ربهم وسنـة نبيهم . وليس هذا القول القبيح غريبا على اليهود . فقد سجل القرآن الكريم أمثـال ذلك قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِـمْ وَلُعِنُـوا بِمَـا قَالُـوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ قال ابـن عبـاس (مغلولـة) أى بخيلـة . فهم لا يعنون أن يد الله موثوقـة ولكـن يقولـون بخيـل . تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا[1] .

ومن جملة إساءتهم مع الله عز وجل (نسبـة الابـن إلى الله) وقالـوا أنهم هم أبناء الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا .

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللَّـهِ وأَحِبَّـاؤُه قُلْ فَلِـمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنوبِكُمْ ، بَل أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خلَق يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرِ ﴾[2] .

أخرج ابن جرير بسنده عن ابـن عبـاس قال : أتى رسول الله ﷺ نعمـان ابـن أضا وبحرى بن عمـرو وشاس بن عدى فكلمــوه فكلمهـــم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا ماتخوفنا يامحمد ، نحن والله أبنـاء الله وأحبـاؤه كقول النصارى فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالـنَّصَارَى نَحْـنُ أَبْنَـاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُه ﴾[3] .

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصارى الْمَسِيـحُ ابـنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّـهُ أَنَّـى يُؤْفَكُون اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُـمْ وَرُهْبَانَهُـمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ والمَسِيـحَ ابْـنَ مَرْيَـم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢ : ٧٥) .
(٢) المائدة : ١٨ .
(٣) تفسير ابن جرير الطبرى (٦ : ١٦٤) . انظر تفسير ابن كثير (٢ : ٣٥) .

وما أمروا إلاّ لِيَعْبدُوا إلَهاً وَاحِداً لَا إلَه إلاّ هو سُبْحَانه عَمَّا يُشْرِكُون يُرِيدُون أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إلاّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُون . هُوَ الّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون ﴾(١) .

أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس رضى الله عنهما ــ أنه قال أتى رسول الله ﷺ (سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ، ومالك ابن الصيف) فقالوا : كيف نتبعك يامحمد ، وقد تركت قبلتنا وأنت تزعم أن عزيراً ليس ابن الله، فأنزل الله في ذلك قولهم **﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللّهِ﴾**(٢) .. الآية .

وقال تعالى **﴿ يَاأَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ولا تقولوا عَلَى اللّهِ إلاّ الحَقّ . إنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُم إنَّمَا اللّهُ إلَه وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلا ﴾**(٣) .

فقوله تعالى **﴿ ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه ﴾** التقدير : ولا تقولوا هو ثالث ثلاثة . فحذف المبتدأ والمضاف .

والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث ويقولون : إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم فيجعلون كل اقنيم إلها ويعنون بالاقانيم الوجود والحياة، والعلم. وربما يعبرون عن الأقانيم بالاب والابن وروح القدس .. ومحصول كلامهم يؤول إلى التمسك بأن عيسى إنه بما كان يجريه سبحانه وتعالى على يده من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته وقالوا قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر . فينبغى أن

---

(١) التوبة : ٣٠ ــ ٣٣ .

(٢) تفسير الطبرى (١٠ : ١١٠) .

(٣) النساء : ١٧١ .

يكون المقتدر عليها موصوفا بالإلهية[1] .

وقد رد الله عليهم بقوله ﴿ **إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ واحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً** ﴾.

وقال تعالى ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلَهٌ واحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُون لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أليم . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[2] .

فقوله تعالى (ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة . ولا يجوز فيه التنوين .

وهذا قول فرق النصارى من الملكية والنسطورية واليعقوبية لأنهم يقولون أب وابن وروح القدس إله واحد . ولا يقولون ثلاثة آلهة وهو معنى مذهبهم ، وإنما يمتنعون من العبارة وهى لازمة لهم .

فأكفرهم الله بقولهم هذا وقال (وما من إله إلا إله واحد) أى أن الاله لا يتعدد وهو يلزمهم القول بثلاثة آلهة كما تقدم وإن لم يصرحوا بذلك لفظاً[3] .

ثم توالت الآيات الكريمة تبين لهم حقيقة الأمر وأن المسيح عليه السلام رسول من عند الله وإن ظهرت الآيات على يديه فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل . فإن كان إلها فليكن كل رسول إلها . فهذا رد لقولهم واحتجاج عليهم .

وأنه عليه السلام مولود مربوب ، ومن ولدته النساء وكان يأكل الطعام مخلوق محدث كسائر المخلوقين . وقال بعض المفسرين (كانا يأكلان الطعام) إنه كناية عن الغائط والبول . وفى هذا دلالة على أنهما بشران[4] .

---

(١) أنظر تفسير القرطبى (٦ : ٢٣) .

(٢) المائدة : ٧٣ — ٧٤ .

(٣) تفسير القرطبى (٦ : ٢٤٩ — ٢٥٠) .

(٤) أنظر تفسير القرطبى (٦ : ٢٥٠) .

قال تعالى : ﴿ **مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُون** ﴾[1] .

وخلاصة القول أن أهل الكتاب أساءوا الأدب مع الحق سبحانه وتعالى حيث نسبوه للفقر وقالوا إنه فقير ونحن أغنياء ، وقالوا إنه ثالث ثلاثة ، وأنكروا الحق الذى جاء به الرسول ﷺ ونسبوا الولد إلى الله فقال اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله .

وعن عداوتهم للملائكة . قال تعالى ﴿ **قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإذْنِ الله مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلمُؤْمِنِين مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإنَّ الله عَدُوٌّ لِلْكَافِرِين** ﴾ .

قال الامام أبو جعفر الطبرى رحمه الله أجمع أهل العلم بالتأويل أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بنى إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولى لهم[2] .

أخرج البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال : سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يخترف فأتى النبى ﷺ فقال : إنى أسائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرنى بهن جبريل آنفا قال : جبريل ؟ قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية (قل من كان **عدواً** لجبريل ...) . الحديث[3] .

وأخرج الامام أحمد عن ابن عباس (أن اليهود بعد أن سألوا النبى ﷺ أسئلة أجابهم عنها، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال ولى جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا هو وليه .

---

(١) المائدة : ٧٥ .

(٢) تفسير الطبرى (١ : ٤٣١) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٢٣٢) كتاب التفسير .

قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا إنه عدونا . فأنزل الله قوله ﴿ **قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾الآيات[1] .

حقا إنها صفة عجيبة من صفات اليهود وهى عداوتهم لملك من ملائكة الله وهو من الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

أما عن قتلهم لأنبياء الله ..

قال تعالى : ﴿ **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُون** ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النبيينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ من نَاصِرِين** ﴾[3] .

اشتملت الآيتان الكريمتان على صفتين قبيحتين لبنى إسرائيل .

الصفة الأولى : هى كفرهم بآيات الله التنزيلية والكونية .

الصفة الثانية : هى قتلهم النبيين بغير حق . وهذا قد تكرر منهم فى مختلف الأزمنة والعصور وقد أزهقت أرواح الكثير من أنبيائهم استهتاراً بمقام النبوة وذلك بسبب عمى بصيرتهم وعتوهم واستكبارهم .

وكان قد صدر هذا القتل منهم (بغير حق) فليس هناك أى مُبَرِر يحملهم على ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع . وقد ارتكبوا ذلك مع علمهم أنهم على الباطل . وهذا هو غاية الكبر .

---

(١) مسند الامام أحمد (١ : ٢٧٨) .

(٢) البقرة : ٦١ .

(٣) آل عمران : ٢١ ، ٢٢ .

أخرج ابن جرير الطبرى رحمه الله بسنده عن أبى عبيدة الجراح قال : قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامه ؟ قال : رجل قتل نبيا . أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **إِنَّ الَّذِين يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ** ﴾ إلى أن انتهى إلى (**وما لهم من ناصرين**) ثم قال ﷺ : يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة . فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار فى ذلك اليوم وهم الذين ذكر الله عز وجل .

وقوله تعالى (**فبشرهم بعذاب أليم**) أى موجع مهين[1] .

أما ما جاء من الذكر الحكيم فى نبذهم لكتاب الله وإتباعهم السحر .

فقال تعالى ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ كِتابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَاكَفَرَ سُلَيْمَانَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُر فَيَتَعَلَّمُون مِنْهُمَا مَايُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَاهُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُون مَايَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَن اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاق وَلَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون** ﴾[2] .

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن اليهود لهم جذورهم فى التاريخ حيث تعلموا من قديم السحر وعلموه الناس ليفتنوهم عن دين الله ونبذوا كتاب الله وتعاليمه وما جاءتهم به أنبياؤهم وراء ظهورهم وهلكوا وأهلكوا غيرهم ممن اتبعهم من الناس بتعلمهم وتعليمهم السحر .

---

(١) تفسير الطبرى (٣ : ٢١٦) ، تفسير ابن كثير (١ : ٣٥٥) .

(٢) البقرة : ١٠١ — ١٠٢ .

ثانيا : تحريفهم للكلم عن مواضعه
وتحايلهم على استحلال محارم الله

من أشنع صفات بنى إسرائيل التى كررها القرآن الكريم ووبخهم عليها ووعدهم بالويل والعذاب الأليم هى تحريفهم للكلم عن مواضعه . وحمله على غير وجهه الصحيح. وإنما حملهم على ذلك قسوة قلوبهم ، وجشعهم وحبهم لحطام الدنيا وعمى بصيرتهم .

قال تعالى ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُون . أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُون وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مما كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُون** ﴾[1] . صدق الله العظيم .

فقوله تعالى ﴿ **يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُون** ﴾ .

قال ابن كثير : (قال السدى : هى التوراة حرفوها . وقد اختاره ابن جرير . وقال مجاهد الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء . وقال أبو العالية : عمدوا إلى ما أُنزل الله فى كتبهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه .. حرفوا التوراة التى أنزلها الله عليهم يجعلون الحلال فيها حراما والحرام حلالا . والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا[2] .

---

(١) البقرة : ٧٥ ــ ٧٩ .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ١١٥) .

قلت : والسنة المطهرة قد روت لنا الكثير من تحريفهم لكتبهم بما يناسب أهواءهم . أخرج البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبى ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنى منكم : قالوا : نحممهما[1] ونضربهما فقال : ألا تجدون فى التوراة الرجم ؟ فقالوا : لا نجد فيها شيئا . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم فقال : ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم فأمر بهما فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد . فرأيت صاحبها يجنأ[2] عليها يقيها الحجارة[3] .

ونختم حديثنا بقوله تعالى فى سورة النساء حيث صرحت الآية الكريمة بتحريفهم للكلم عن مواضعه وبإساءتهم للنبى ﷺ بلسان حالهم ومقالهم . قال تعالى ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾[4] .

فقوله تعالى عن اليهود (يحرفون الكلم عن مواضعه) أى يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصدا منهم وافتراء (ويقولون سمعنا) أى سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه (واسمع غير مسمع) أى اسمع ما نقول لا سمعت . وهذا استهزاء منهم واستهتار عليهم لعنة الله[5] .

---

(١) نحممهما ــ تحميم الوجه : أى يصب عليه ماء حار مخلوط بالرماد والمراد تسخيم الوجه بالحميم وهو الفحم وفى رواية أخرى للبخارى (تحميم الوجه والتجبية) والمراد بالتجبية : من جبهت الرجل إذا قابلته بما يكره من الاغلاظ فى القول والفعل .. وقال عياض فسر التجبية فى الحديث بانهما يجلدان ويحمم وجوههما ويحملان على دابة مخالفا بين وجوههما . فتح البارى (١٥ :١٤٠) .

(٢) يجنأ : جنأ عليه جنوءا أو جانأ عليه وتجانأ عليه . اكب وفى الحديث فجعل الرجل يجنىء عليها.أى يكب ويميل عليها ليقيها الحجارة . لسان العرب (١ : ٥٠) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٢٩٢) كتاب التفسير .

(٤) النسـ[illegible] ٤٦ . (٥) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ٥٠٧) .

ثالثاً : نقضهم العهود وجحودهم الحق

ان من أبرز صفات اليهود التى اشتهروا بها منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا هى نقضهم العهود والمواثيق وجحودهم للحق . وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحدثنا عن هذه الخصلة الذميمة التى أصبحت طبيعة فيهم .

فقد أخذ الله عز وجل عليهم كثيراً من المواثيق على لسان أنبيائه ورسله ولكنهم نقضوها وعاهدهم صلوات الله وسلامه عليه مرات كثيرة فكانوا ينقضون عهدهم فى كل مرة .

قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنكُمْ وَأَنتُمْ مُعْرِضُونَ** ﴾[1] .

فقد أخذ العهد عليهم بألا يعبدوا سوى الله وأن يحسنوا إلى آبائهم وباداء جميع الحقوق نحوهم وكذلك الاحسان إلى ذى القربى واليتامى والمساكين ومخاطبة الناس بالحسنى بما فيه صلاحهم ونفعهم وكذلك المحافظة على فريضة الصلاة وايتاء الزكاة ولكنهم نقضوا عهدهم إلا قليلا منهم حافظوا على ذلك العهد .

وهناك نوع آخر من الميثاق الذى أخذ عليهم ولم يحافظوا عليه فكان عقابهم الخزى فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة .

قال تعالى ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُون . ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُمْ مِن دِيَارِهِمْ تُظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ**

---

(١) القرة : ٨٣ .

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلا خِزْىٌ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾[1] .

وخلاصة الميثاق الذى أخذ عليهم : هو عدم التعرض لبعضهم البعض بالقتل . وألا يخرج أحدهم الآخر من مسكنه وإذا وقع أحدهم فى الأسر فادوه وبذلوا أموالهم لفدائه وأقروا العهد وشهدوا على الوفاء به والالتزام بما جاء فيه . ولكنهم خرجوا على تعاليم التوراة فنقضوا عهدهم وأراق بعضهم دماء بعض وأخرجوا إخوانهم فى الملة والدم من ديارهم ظلما وعدوانا إذ أنه لما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج انضمت بنو قريظة إلى الأولى وانضمت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الخزرج وصارت كل قبيلة تقاتل الأخرى مع حلفائها . ومع ذلك إذا وقع إخوانهم الذين قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم فى الأسر فادوهم . فقال تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) إن هذا التفريق بين أحكام الله جزاء فاعله الهوان فى الدنيا والعذاب الأليم الشديد فى الآخرة .

تلك هى بعض العهود التى نقضوها مع الله عز وجل . ومع أنبيائه عليهم السلام فلما بعث النبى ﷺ الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به ونقضوا عهودهم معه فى كل مرة وحاربوه بكل وسيلة لذلك حذر الله تعالى نبيه ﷺ من اليهود المعاصرين له والذين ورثوا رذائل آبائهم ونقضهم لعهودهم وغدرهم وخيانتهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم . لذلك لعنهم الله وطردهم من رحمته وجعل قلوبهم قاسية وهى فى قساوتها أشد من الحجارة[2] .

قال تعالى ﴿ **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ** ﴾[3] .

---

(١) البقرة : ٨٤ ــ ٨٦ .

(٢) أنظر بنو اسرائيل فى القرآن والسنة ، د. محمد سيد طنطاوى (٢ : ٤٣٩) .

(٣) البقرة : ٧٤ .

قال تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا به . وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١] .

أما عن جحودهم للحق : فقد تكرر فى القرآن هذا الوصف الذميم وهو جحودهم الحق عن معرفة وعلم ونكتفى بهذه الآية الكريمة :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ،فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِين . بِئْسَما اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِين ﴾ .

قال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فقال الله تعالى ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾[٢] .

وأخرج محمد بن إسحق بسنده عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ماكانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل الشرك وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم اخو بنى النضير :ما جاءنا بشيء نعرفه وماهو الذى كنا نذكر لكم[٣] .

(١) المائدة : ١٣ .
(٢) تفسير ابن كثير (١ : ١٢٤) .
(٣) نفس المرجع السابق .

رابعاً : تنطعهم في الدين وإلحافهم في المسألة

ومن الصفات الذميمة التى اشتهرت فى بنى إسرائيل تنطعهم فى الدين . ومحاولتهم تضييق ماوسعه الله عليهم . وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق وتشككهم فى صدق أنبيائه وتعنتهم فى السؤال . إما للتحلل من الامتثال وإما لانطماس بصيرتهم عن فهم مقاصد الشريعة وقصة أمرهم بذبح بقرة على لسان نبيهم موسى عليه السلام خير دليل على ما وصفهم الله به من رذائل ومن فسوق عن أمر ربهم ، وسوء تقبل لنعم خالقهم[١] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إنها بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عوانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَاتُؤْمَرُون . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال أنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَاهِيَ ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُون . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إنها بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُون . وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفساً فَادَّارأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَاكُنْتُمْ تَكْتُمون . فَقُلْنَا اضْرِبُوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُون ﴾[٢] .

وتؤخذ من القصة العبر والعظات الآتية :

(١) دلالتها على ماجبل عليه بنو اسرائيل من فظاظة وغلظة وسوء أدب مع مرشديهم واحفاء فى الأسئلة بلا موجب ، وعدم الاستعداد للتسليم بما يأتيهم به رسلهم .

---

(١) انظر بنو اسرائيل فى القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوى (٢ : ١٦٧) .

(٢) الآيات من ٦٧ ـــ ٧٣ سورة البقرة .

(٢) دلالتها على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه فقد أخبر عن هذه القصة الواقعية التى لم يشاهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الاخبار من أعلام نبوته ﷺ كما أنها تدل على صدق نبوة موسى عليه السلام وأنه رسول من رب العالمين .

(٣) دلالتها على أن التنطع فى الدين والالحاف فى المسألة يؤديان إلى التشديد فى الأحكام لأن بنى اسرائيل لو أنهم من أول الأمر عمدوا إلى ذبح أية بقرة لأجزأتهم . ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

(٤) دلالتها على قدرة الله تعالى فى إحياء الميت . وصدق تعالى حيث يقول ﴿ **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[1] .

---

(١) انظر كتاب (بنو اسرائيل فى القرآن والسنة) د. محمد سيد طنطاوى (ص ١٨٧ ــ ١٨٩) .

خامســا : حرصهم على الحياة وجبنهم عن الجهاد

ومن الصفات الممقوتة التي جبل عليها بنو إسرائيل فى كل مكان وزمان هى تهالكهم على الدنيا وحرصهم على الحياة ممــا أدى بهم هذا الحب الشديد للحياة إلى الجبن والهلع . والاعتذار عن القتال بشتى أنواع وألوان المعاذير وقد صورها القرآن فى آياته الكريمة . قال تعالى :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون ﴾[1] .

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن اليهود بأنهم أحرص الناس والمراد بالناس جميعهم على (حياة) وَنَكَّر سبحانه الحياة التى يحرصون عليها زيادة فى تحقيرهم تلك الحياة التى يضحون من أجلها بدينهم وكرامتهم حتى إنهم أحرص عليها حتــى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث. وهم فى حرصهم هذا على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهورا طويلة (يود أحدهم لو يعمر الف سنة) ثم بين سبحانه أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة لأن الموت لن يتركهم مهما طال عمرهم . **﴿ والله بصير بما يعملون ﴾** تهديد ووعيــد لهم وأن الله سيجــازيهم عن كل ذلك بما يستحقون[2] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جبنهم قال تعالى :

﴿ لَأَنْتُم أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدورِهِم مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُون لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إلاّ فِي قُرىً مُحَصَنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلون ﴾ .

المعنى الاجمالى للآية : يخبر تعالى عن اليهود الجبناء أنــه من شدة هلعهــم لا يقدرون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصنين فى قلاعهم وحصونهم وخنادقهم لفرط جبنهم. (بأسهم بينهم شديد) أى عداوتهم فيما بينهم شديدة **﴿تحسبهم جميعا**

---

(١) البقرة : ٩٦ .

(٢) انظر بنو اسرائيل فى القرآن والسنة (٢ : ١١٤) .

وقلوبهم شتى ﴾ أى تظنهم مجتمعين على أمر ورأى وهم مختلفون غاية الاختلاف .

قال قتادة : أهل الباطل مختلفة آراؤهم . مختلفة أهواؤهم مختلفة شهاداتهم وهم مجتمعون فى عدواة أهل الحق[1] .

وهم فى خوفهم وجبنهم هذا ضاهوا آباءهم وأجدادهم عندما أمرهم نبيهم موسى عليه السلام بأن يدخلوا الارض المقدسة[2] فأجابوه : بأن فيها قوما جبارين وأنهم لا يدخلونها حتى يخرج منها أهلها .وقالوا له إنهم لا يدخلونها ما داموا فيها وقالوا له : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدون ﴾ .

واليك بيان الآيات الكريمة :

﴿ يَا قَومِ ادْخلُوا الأَرْض المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لكم وَلا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبوا خاسِرينَ. قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيها قَوماً جَبَّارِين وَإِنَّا لَن نَّدخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا. فإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُون. قال رَجُلاَنِ مِنَ الّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخلوا عليهم البَابَ فإذا دَخلتموه فإنَّكم غَالِبون وَعَلَى اللَّهِ فَتوكَّلوا إن كُنْتُمْ مؤمنين . قالوا يامُوسى إنَّا لَن نَدخُلَهَا أَبداً مَادَامُوا فِيها فَاذْهبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَهُنا قَاعِدون . قال رَبِّ لا أملك إلاَّ نفسى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَومِ الفاسِقِين . قَالَ فإنَّها مُحَرَّمَةٌ عليهم أَرْبَعين سَنَةً يَتِيهُونَ فى الأَرْضِ فلا تَأْس على القَوْمِ الفَاسِقِين ﴾[3] .

فتلك الآيات الكريمة تصور لنا مافطر عليه بنو إسرائيل من جبن شديد وعزيمة خوارة وعصيان لرسلهم . وايثار للذل مع الراحة على العزة مع الجهاد .

---

(١) انظر تفسير القرطبى (١٨ : ٣٥) .

(٢) اختلف بالمراد منها قيل هى اريحاء ، وقيل الشام ، وقيل الطور وقيل فلسطين . وقال ابن جرير الطبرى (واولى الأقوال فى ذلك بالصواب ان يقال هى الأرض المقدسة كما قال نبى الله موسى عليه السلام لأن القول فى ذلك بأنها أرض دون ارض لاتدرك حقيقة صحته إلا بالخبر ولا خبر بذلك يجوز القطع به غير انها لا تخرج عن أن تكون من الارض التى بين الفرات وعريش مصر لاجماع جميع أهل التأويل والسير والعلماء بالاخبار على ذلك) . (٦ : ١٧٢) .

(٣) المائدة : ٢١ ــ ٢٦ .

الفصل الثالث

بيان ضلال المنافقين وحقيقة امرهم وما اتصفوا به من الصفات القبيحة وما أعد لهم من العذاب والنكال وما هو موقف الرسول صلى الله عليه وسلم تجاههم واشهر مواقفهم العدائية

الفصل الثالث

المنافقون

من مقاصد السور والآيات المدنية الحديث عن المنافقين وصفاتهم .

وسوف أتحدث بمشيئة الله عن هذه العناصر الآتية :

أولا : صفات المنافقين كما تحدث عنها القرآن الكريم والسنة المطهرة .

ثانيا : حقيقة المنافقين وخطرهم وما أعد لهم من العذاب .

ثالثا : موقف الرسول ﷺ من المنافقين .

* * *

* *

*

اولاً : صفات المنافقين كما تحدث عنها القرآن الكريم والسنّة المطهرة

المنافق :

هو الذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر والعداء والبغضاء للاسلام .

والنفاق هو مخالفة الباطن للظاهر .

واختلف فى اشتقاقه .

قال الأنبارى : وهو مأخوذ من النفق وهو السرب . فهم يتسترون بالإسلام كما يستتر الرجل فى السرب .

وقال غيره : إنه مشتق من النافقاء ، وهو جحر اليربوع . أو أحد بابيه قال أبو عبيدة : إنه يجعل لجحره بابين أحدهما القاصعاء . والآخر النافقاء . فإذا طلب من أحدهما خرج من الآخر . وهكذا شأن (المنافق) يظهر للمؤمنين من باب الايمان . وللكافرين من باب الكفر . فإذا أصابته مشقة من أحدهما لجأ إلى الآخر .. وهو إسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص . وهو الذى يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله فى اللغة معروفا[١] .

والنفاق مرض نشأ مع بداية ظهور الإسلام فى المدينة ولا زال هذا المرض الخطير يجوب كثيراً من المجتمعات حتى وقتنا الحاضر .

وهو مرض قلبى وكثيراً ما جمع القرآن بين المنافقين ومرضى القلوب .

قال تعالى ﴿ **وإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا** ﴾[٢] .

---

(١) أنظر لسان العرب (١٠ : ٣٥٩) .

(٢) الاحزاب : ١٢ .

وقال تعالى ﴿ لَئِنْ لم ينته المُنَافِقُونَ وَالَّذِيـنَ فِى قُلُوبِهـم مَّرَضٌ وَالمُرْجِفُـونَ فِى المَدِينَةِ ﴾[1] الآية .

وقـد يذكـر فى الآية مرضى القلـوب وحدهـم وحينئـذ يكـون المراد بهم المنافقون .

قال تعالى ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمْ الله مَرَضًا ﴾[2] .

وقـال تعـالى ﴿ فَترىَ الذِيـنَ فِى قُلُوبِهـم مَّرَضٌ يُسَارِعُـونَ فِيهِـمْ يَقُولُـونَ نَخْشَى أنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾[3] .

وقـال تعـالى ﴿ أمْ حَسِبَ الَّذِيـنَ فِى قُلُوبِهِـم مَّرَضٌ أنْ لَنْ يُخْـرِجَ الله أضْغَانَهُمْ﴾[4] .

ولا بد أن نتعرف على بعض صفات المنافـقين وحقيقـة أمرهـم . وقـد أفصح عنها القرآن الكريم فى عدد من سوره وآياته واكدتها السنة المطهرة .

(١) الكـذب :

هو الأخبـار عن الشىء بخلاف ما هو عليـه . قال تعـالى ﴿ إنَّمَـا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله وأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُون ﴾[5] .

فهـو السبيـل للمنافـقين فى إظهـار خلاف ما يبطنـون فيظهـرون الايمان بقولهم .. قال تعالى ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا باللهِ وَباليَـوْمِ الآخِرِ وَمَـا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[6] . وقال تعالى يبين لنا أساليب كذبهم : ﴿ وَإِذَا لَقُـوا الَّذِيـنَ آمَنُـوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ فلجأوا إلى الكذب لتثبيت إيمانهم ﴿ وإذَا خَلَوْا إلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُـوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون ﴾[7] .

---

(١) الاحزاب : ٦٠ .

(٢) البقرة : ١٠ .

(٣) المائدة : ٥٢ .

(٤) محمد (ﷺ) : ٢٩ .

(٥) النحل : ١٠٥ .

(٦) البقرة : ٨ .

(٧) البقرة : ١٤ .

وقال تعالى متوعدا لهم العذاب جزاء لكذبهم ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[1] .

وقد وضحت السنة أن الكذب أحد خصال النفاق .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب**) ... الحديث[2] .

(٢) الخلف فى الوعد والغدر فى المعاهدة :

وكلاهما من الصفات القبيحة الممقوتة التى اتصف بها المنافقون وذلك بأنهم يعدون الناس ويعاهدونهم وفى نيتهم عدم الوفاء . لكن لو كان الانسان عازماً على الوفاء فعرض مانع فلا إثم عليه ولا يعد من المنافقين بمجرد إخلاف الوعد .

قال النووى : هذا الحديث عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث إن هذه الخصال قد توجد فى المسلم المجمع على عدم الحكم بكفره ، قال وليس فيه إشكال بل معناه صحيح ، والذى قاله المحققون إن معناه أن هذه خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين فى هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم[3] قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِين . فَلَمَّا آتَاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُعْرِضُون . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُون ﴾[4] .

(٣) الخيانة :

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾[5] .

---

(١) البقرة : ١٠ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١ : ٩٧) .

(٣) أنظر شرح مسلم للنووى (٢ : ٤٦ — ٤٧) .

(٤) التوبة ٧٥ — ٧٧ .

(٥) الانفال : ٢٧ .

وهى من الصفات القبيحة التى ارتداها المنافقون وتحلوا بها . وقد مقت الله الخائنين قال تعالى ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِين** ﴾[1] . وفى الحديث (وإذا أؤتمن خان)[2] .

(٤) الضلال والحيرة :

فهم غارقون فى الظلمات ، يغتالهم اليأس ، ويعميهم الشك ماضيهم ذكريات سوداء معتمة ، وحاضرهم رعب قاتل مدمر ، ومستقبلهم الخيبة والضياع والناس من حولهم أعداء . وقد ضرب الله لضلالهم وحيرتهم الأمثال .

قال تعالى ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يرجعون** ﴾إلى قوله ﴿ **إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير** ﴾[3] .

(٥) الجبن :

قال تعالى ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُو فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُون** ﴾[4] .

يقول جل ذكره لنبيه محمد ﷺ : وإذا رأيت هؤلاء المنافقين تعجبك أجسامهم لتناسب أشكالهم وحسن منظرهم وإن يتكلموا تسمع للين كلامهم وحسن منطقهم كأنهم خشب مسندة لا خير فيهم ولا فقه لهم ولا علم . يحسب هؤلاء المنافقون من خبثهم وسوء ظنهم وقلة يقينهم كل صيحة عليهم لأنهم دوما على وجل من أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك أسرارهم ويفضحهم ويبيح للمؤمنين قتلهم وسبى ذراريهم . (فاحذرهم) فإن ألسنتهم معكم وقلوبهم مع أعدائكم أخزاهم الله إلى أى وجه يصرفون عن الحق .

---

(١) الانفال : ٥٨ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١ : ٩٧) .

(٣) البقرة ١٧ ــ ٢٠ .

(٤) المنافقون : ٤ .

قال تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ، وَمَا هُمْ مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾(٢) .

يصف الله تعالى المنافقين الجبناء بأنهم إذا حضر البأس وجاء القتال خافوا الهلاك والقتل رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم خوفا من القتل وفراراً منه كدوران عين الذى يغشى عليه من الموت النازل به) .

قال تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾(٣) الآية .

وهناك الكثير من الصفات التى وردت بحقهم فى القرآن .

قال ابن القيم رحمه الله(٤) : (لما ذكر تعالى أقسام الخلق فى أول سورة البقرة (٢ ـــ ٢٠) فقسمهم إلى مؤمن ظاهرا وباطنا ، وكافرا ظاهرا وباطنا ، ومؤمن فى الظاهر كافر فى الباطن وهم المنافقون ، ذكر فى حق المؤمنين ثلاث آيات (٣ ـــ ٥) وفى حق الكافرين آيتين (٦ ـــ ٧) فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية (٨ ـــ ٢٠) ذمهم فيها غاية الذم وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم) .

---

(١) التوبة : ٥٦ ـــ ٥٧ .

(٢) الاحزاب : ١٩ .

(٣) محمد (ﷺ) : ٢٠ ـــ ٣١ .

(٤) كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين تأليف الامام شمس الدين محمد بن القيم الجوزية . حققه خادم العلم عبد الله الانصارى طبع على نفقة الشيخ حمد بن فالح آل ثانى (ص :٧٠١) .

وصفهم بالخداع (وهو إظهار خير يتوسل به إلى إبطان شر يؤول إليه أمر ذلك الخير المظهر[1] .

قال تعالى ﴿ **يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُون** ﴾[2] .

وصفهم بأنهم مرضى القلوب ـــ قال القرطبى (المرضى عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم وذلك إما أن يكون شكا وَنِفاقا . قال تعالى ﴿ **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا** ﴾ الآية . وإما جحدا وتكذيبا[3] . والله عز وجل يزيدهم مرضا على مرضهم .

وصفهم بالافساد فى الأرض والاستهزاء بدينه وبعباده وبالطغيان .

قال تعالى ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُون . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَّا يَشْعُرُون وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُون وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُون اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون** ﴾[4] .

قال تعالى ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُون**﴾[5] .

ونعتهم بأنهم المغبونون فى اشترائهم الضلالة بالهدى وأنهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون . قال تعالى ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَاكَانُوا مُهْتَدِين** ﴾[6] .

---

(١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى (١ : ١٠٧) .

(٢) البقرة : ٩ .

(٣) القرطبى (١ : ١٩٧) .

(٤) البقرة : ١١ ـــ ١٥ .

(٥) التوبة : ٦٥ .

(٦) البقرة : ١٦ .

وقال تعالى ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُون ﴾[1] .

وأنهم كسالى عند عبادته وفى أعمال الخير وقلة ذكره .

قال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُون ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُون الله إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3] .

ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبو ذلك وأعرضوا عنه ودعوك إلى التحكم إلى طواغيتهم .

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوآ أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَآ أَنْزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِالله إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ الله مَافِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَولاً بَلِيغًا﴾[3] .

وأنهم مذبذبون مترددون بين المؤمنين والكفار فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[4] .

وقال تعالى ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْن ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾[5] .

ومن صفاتهم الحلف بالله كذبا وباطلا فهم جبناء كاذبون كما قال تعالى

---

(١) البقرة : ١٨ .

(٢) التوبة : ٥٤ .

(٣) النساء : ٦٠ — ٦٣ .

(٤) النساء : ١٤٢ . (٥) النساء : ١٤٣ .

﴿ **وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾(١) .

وإن من عدائهم للمؤمنين أنهم يحزنون لما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر . ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء .

قال تعالى ﴿ **إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ** ﴾(٢) .

وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين . قال تعالى ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ** ﴾(٣) .

والمراد بقوله (قل هل تربصون بنا) أى تنتظرون بنا (إلا احدى الحسنيين) شهادة أو ظفر بكم(٤) .

ومن جهلهم وعمى قلوبهم أنهم يعيبون على النبى ﷺ فى قسم الصدقات . قال تعالى ﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾(٥) .

فهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا وإن منعوا سخطوا .

ومن صفاتهم الايذاء . فهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إلى ما برأه الله منه ويعيبونه مما هو من كماله وفضله .

قال تعالى ﴿ **وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ**

---

(١) التوبة : ٤٢ .

(٢) التوبة : ٥٠ .

(٣) التوبة : ٥٢ .

(٤) ابن كثير (٢ : ٣٦٣) .

(٥) التوبة : ٥٨ .

رَسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم ﴾[1] .

والمراد بقوله (ويقولون هو أذن) أى من قال له شيئا صدقه ومن حدثه صدقه فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . وقوله تعالى (قل أذن خير لكم) أى هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب[2] .

ومن أقبح صفاتهم أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الانفاق فى مرضاته عز وجل . وقد نسوا الله فنسيهم وأنهم فاسقون . قال تعالى ﴿ **المُنَافِقُونَ والمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ إنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُون** ﴾[3] .

وأنهم يعيبون المؤمنين ويرمونهم بما ليس فيهم . فيلمزون المتصدقين ويعيبون مزهدهم ، ويرمون بالرياء وإرادة الثناء مكثرهم .

قال تعالى ﴿**الَّذِينَ يلمزون المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ والَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إلَّا جُهدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[4] .

أخرج البخارى بسنده عن أبى مسعود قال لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل[5] فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه . فقال المنافقون إن الله لغنى عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رياء . فنزلت ﴿ **الَّذِينَ يَلْمِزُونَ المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ والَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إلَّا جُهْدَهُمْ** ﴾[6] الآية .

---

(١) التوبة : ٦١ .

(٢) ابن كثير (٢ : ٣٦٦) .

(٣) التوبة : ٦٧ .

(٤) التوبة : ٧٩ .

(٥) تحامل فى الأمر أى تكلفه على مشقه .

(٦) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٠٠) .

وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ ويكرهون الجهاد فى سبيل الله فهم جبناء .

قال تعالى ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾(1) .

وأنهم أحلف الناس قد اتخذوا أيمانهم جنة تقيهم من إنكار المسلمين ووصفهم الله بأنهم رجس . والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره فهم أخبث بنى آدم وأقذرهم وأرذلهم وبأنهم فاسقون .

قال تعالى ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** ﴾(2) .

وأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة فى المؤمنين فيلطخون أعراض المؤمنين النزهاء الأبرياء بأشنع التهم وذلك يتجلى فى قصة أهل الافك والبهتان المنافقين حين رموا السيدة عائشة فأنزل الله براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ .

قال تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالافْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَحِيم** ﴾(3) .

---

(1) التوبة : ٨١ — ٨٢ .

(2) التوبة : ٩٥ — ٩٦ .

(3) النور : ١١ — ٢٠ .

ووصفهم الله بعدم الفقه فى الدين وبالبلادة وقلة الفهم وأنهم يخرجون من مجلس رسول الله ﷺ لا يفهمون منه شيئا فإذا خرجوا من عنده (قالوا للذين أوتوا العلم) من الصحابة رضى الله عنهم (ماذا قال آنفا) أى الساعة .

قال تعالى ﴿ **وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ الله عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم** ﴾[1] .

وأنهم قد استحوذ عليهم الشيطان أى استولى عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلا . (وعلامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهرة من المآكل والمشارب والملابس ويشتغل قلبه عن التفكر فى آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان ويشغل لبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها)[2] .

وهؤلاء هم حزب الشيطان وأعوانه . وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله .

قال تعالى ﴿ **اسْتَحْوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ الله أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُون** ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ** ﴾[4] الآية .

وإن من استكبارهم واحتقارهم إذا عرضت عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها .

قال تعالى ﴿ **وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولَ الله لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ**

---

(١) محمد (ﷺ) : ١٦ .

(٢) تفسير النسفى (٤ : ٢٣٦) .

(٣) المجادلة : ١٩ .

(٤) المجادلة : ٢٢ .

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُون ﴾[٥] .

تلك صفات المنافقين التى وردت فى القرآن الكريم وقد أشار إليها ابن القيم رحمه الله فى كتابه طريق الهجرتين وباب السعادتين[٦] .

* * *

---

(١) المنافقون : ٥ .

(٢) بتصرف من الكتاب المذكور (ص ٧٠١ — ٧٦)

ثانيًا : حقيقة المنافقين وخطرهم على المسلمين وما أعدّ لهم من العذاب

المنافقون : هم قوم أظهروا الاسلام ومتابعة الرسل وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله .

وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بأشد أنواع الوعيد :

(١) قال تعالى ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا** ﴾(١) .

فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف عذابا . وهم فوقهم فى دركات النار لأن الطائفتين إشتركتا فى الكفر ومعاداة الله ورسوله وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق والخداع . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين .

والذى أنزلهم فى الدرك الأسفل من النار هو شدة كفرهم . فقد خالطوا المسلمين وعاشروهم ، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الايمان مالم يباشره الأعداء ، ووصل إليهم من معرفته وصحته مالم يصل إلى المنابذين بالعداوة ، فاذا كفروا مع هذه المعرفة كانوا أشد كفرا وأخبث قلوبا ، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم ، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين . ولهذا قال تعالى عنهم ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كفروا فَطُبِعَ عَلَى قُلوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُون** ﴾(٢) . وقال تعالى فيهم ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون** ﴾(٣) . وقال تعالى فى الكفار ﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون** ﴾(٤) .

---

(١) النساء : ١٤٥ .

(٢) المنافقون : ٣ .

(٣) البقرة : ١٨ .

(٤) البقرة : ١٧١ .

فالكافر لم يعقل ، والمنافق أبصر ثم عمى وعرف ثم تجاهل وأقر ثم أنكر وآمن ثم كفر ومن كان هكذا كان أشد كفرا وأخبث قلبا وأعتى على الله ورسوله . فاستحق الدرك الأسفل .

(٢) ولهذا قال تعالى فى حقهم ﴿ **هُمُ العَدُو فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُون** ﴾[١] .

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر ، أى لا عدو إلا هم . ولكن لم يرد هٰهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها . لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياما ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر . وهؤلاء معهم فى الديار والمنازل صباحا ومساء يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر فلهذا قيل (هم العدو فاحذرهم) .

(٣) وهؤلاء المنافقون أشقى الأشقياء ، ولهذا يستهزأ بهم فى الآخرة فيعطون نورا يتوسطون به على الصراط ثم يطفىء الله نورهم ويقال لهم ﴿ **ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورا** ﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿ **بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِىُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الغَرُور** ﴾[٢] .

وهذا أشد مايكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه القسوة ونعوذ بالله من غضبه وعقابه[٣] .

---

(١) المنافقون : ٤ .

(٢) الحديد : ١٣ — ١٤ .

(٣) باختصار وتصرف من كتاب طريق الهجرتين و . السعادتين لابن القيم (ص ٦٩٨ — ٧٠٠)

(٤) وقد أمر الله نبيه ﷺ بأن يبشرهم بالعذاب الأليم قال تعالى ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيما** ﴾[1] .

ومن الوعيد الذى ورد فى المنافقين قول الله تعالى ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّم خَالِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ** ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ **وَيُعَذِّب الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِينَ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾[3] .

---

(١) النساء : ١٣٨ .

(٢) التوبة : ٦٨ .

(٣) الفتح : ٦ .

ثالثًا : بيان موقف الرسول - ﷺ - من المنافقين

قال ابن القيم (وأما سيرته فى المنافقين : فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمره أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاه أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم)[١] . أ هـ .

أخرج البخارى بسنده عن زيد بن أرقم قال : كنت فى غزاة[٢] فسمعت عبد الله بن أبى يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل . فذكرت ذلك لعمى أو لعمر فذكره للنبى ﷺ فدعانى فحدثته ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبى وأصحابه فحلفوا ماقاله فكذبنى رسول الله ﷺ وصدقه فأصابنى هم لم يصبنى مثله قط . فجلست فى الدار فقال لى عمى : ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك . فأنزل الله تعالى ﴿ **إذا جاءكَ المُنافِقون** ﴾ فبعث إلىَّ النبى ﷺ فقرأ فقال إن الله قد صدقك يا زيد[٣] .

وفى الحديث السابق نرى أن رسول الله ﷺ قبل منه علانيته ووكَلَ سريرته إلى الله تعالى[٤] . فهو علام الغيوب يعلَم سرهم ونجواهم . قال تعالى ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله يعلم سِرَّهُم وَنَجْوَاهُمْ وأَنَّ اللَّهَ عَلامُ الغُيُوب** ﴾[٥] .

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم الجوزية . تحقيق شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر الارناؤوط (٣ : ١٦١) .

(٢) اختلف فيها فقيل تبوك . والذى عليه أهل المغازى أنها غزوة بنى المصطلق .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٢٦٩) .

(٤) انظر حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الديبع الشيبانى (٢ : ٥٥٨ ــ ٥٥٩) .

(٥) التوبة : ٧٨ .

وأما مجاهدته ﷺ بالعلم والحجة وإعراضه عنهم وأن يغلظ عليهم وتبليغه القول البليغ إلى نفوسهم ، فتوضحه الآية الكريمة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَافِي قُلُوبِهِمْ فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾(١) .

أما ما ورد فى نهيه ﷺ عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم وعدم قبول إستغفاره لهم إن استغفر لهم :

قال تعالى **﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾**(٢) .

وقال تعالى : **﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾**(٣) .

وسبب نزول الآيات ما أخرجه البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال لما توفى عبد الله بن أبى جاء إبنه عبد الله بن عبد الملك إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه اباه ، فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أتصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ إنما خيرنى الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة . وسأزيد على سبعين . فقال : إنه منافق ، قال : فصلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله **﴿ ولا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾**(٤) .

قال الخطابى : (إنما فعل ذلك النبى ﷺ مع عبد الله بن أبى ما فعل لكمال شفقته على من تعلق بطرف من الدين ولتطييب قلب ولده عبد الله الرجل

---

(١) النساء : ٦٣ .

(٢) التوبة : ٨٤ .

(٣) التوبة : ٨٠ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٠٣) كتاب التفسير سورة التوبة .

الصالح ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهى الصريح لكان سبة على ابنه وعارا على قومه فاستعمل أحسن الأمرين فى السياسة إلى أن نهى فانتهى)[1] .

وهناك المواقف الكثيرة التى تحدث عنها القرآن والتى وقعت بين الرسول ﷺ والمنافقين واكتفى بذكر ثلاثة منها وهى :

(١) موقف المنافقين فى غزوة أحد .

(٢) قصة الافك .

(٣) قصة مسجد ضرار .

* * *

(١) فتح البارى (٩ : ٤٦) .

ذلك أن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، علت هيبتهم فى نفوس القبائل وعندئذ دخل فى الاسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا . فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق فأظهر المنافقون نفوسهم فى هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه . وعاد تلويحهم تصريحا . وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ، ومنافق انقساما ظاهرا . وعرف المؤمنون أن لهم عدو فى نفس دورهم وهو معهم لا يفارقهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . قال تعالى **﴿ وَمَاكَانَ اللَّهُ لِيذَرَ المُؤمنين عَلَى مَا أَنْتُمْ عَليهِ حَتَّى يَميزَ الخبيثَ مِنَ الطَّيب وَمَاكَان اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ ، ولكِنَّ اللَّـهَ يَجْتَبِى مِن رُسلهِ مَنْ يَشاءُ ﴾**[1] .

أى ماكان ليذركم على ماأنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الايمان من أهل النفاق . فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ . وهتك به ستر المنافقين فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ بانخذالهم مع عبد الله بن أبى بنحو ثلث العسكر وقال (ما أرى أن يكون قتال ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم) . قال تعالى **﴿ وَمَاأَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتقى الجَمْعَانِ فَبِإذْنِ اللَّه وَلِيَعْلَمَ المُؤْمِنين . وليعلم الذين نافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالوا قَاتِلوا فِى سَبيل الله أو ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفر يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلايمانِ يَقُولُونَ بِأفْواهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾**[2] . أى مايخفون من النفاق .

---

(١) آل عمران : ١٧٩ .

(٢) آل عمران : ١٦٧ .

قصة الإفك

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُم لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لكُمْ لِكُلِّ امرىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الاثْمِ وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِين لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمْ الكَاذِبُون ﴾ .

إلى قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ مُبَرءونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1] .

أخرج البخارى[2] بسنده عن عروة عن عائشة رضى الله عنها — والذى تولى كبره — قالت عبد الله بن أبى بن سلول . وقيل غير ذلك والصحيح ما رواه البخارى وقصة الافك مشهورة[3] وهى أيضا نوع من أنواع الابتلاء حتى يتميز المؤمن من المنافق ، ذلك المنافق الذى يحب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . وقد أشاعوها هنا فى أم المؤمنين زوج سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وكان إمتحان وابتلاء عظيم واقتضى تمام الامتحان أن يحبس الوحى عن رسول الله ﷺ شهراً لم ينزل عليه شيء فى أمر (الافك وأصحابه) وكذلك توقف النبى ﷺ فى أمر زوجته الطاهرة المبرأة حتى نزلت براءتها من فوق سبع سموات .

---

(١) النور : ١١ — ٢٦ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٦٧) كتاب التفسير .

(٣) تراجع فى صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٦٧) تفسير سورة النور .

وإنما حبس الوحى هذه الفترة المديدة حتى تنبىء القلوب عن مكنونها ويعرف المؤمن من المنافق والبار من الفاجر . وهنا تتطلع قلوب المؤمنين إلى ما يوحيه الله إلى رسوله ﷺ . فوقع منهم أعظم موقع وأكرمه . ولقد تولى سبحانه الدفاع عن نبيه والرد على أعدائه المنافقين .

والقصد من رمى السيدة عائشة هو ايذاؤه ﷺ وتلطيخ طهارة فراشه وهو معلم الناس الطهارة ، وكذلك رمى صفوان بن المعطل المسلم المجاهد الذى كان لا يملك إلا أن يقول فى مواجهة هذا الاتهام الأليم (سبحان الله ما كشفت كتف أنثى قط) .

ثم تنزل براءتها رضى الله عنها وكان البكاء لا يفارقها .

وتروى لنا السيدة عائشة ذلك الموقف (ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى ينزل عليه قالت فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها يا عائشة أما الله عز وجل قد برأك وأنزل عز وجل (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه) ـــ العشر الآيات كلها)[1] . أ.هـ .

---

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٩٢) .

مسجد الضرار

قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أبداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِين . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هار فَانْهَارَ بِهِ فى نَارِ جَهَنَّمَ والله لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوا رِيبَةً فِى قُلوبِهِم إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[1] .

وهذا المسجد أعده المنافقون وكرا لاجتماعهم . ومنطلقا لدسائسهم ولنشر روح الفرقة بين صفوف المسلمين .

وقد جاءوا إلى رسول الله ﷺ بعد أن بنوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله .. إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه فقال ﷺ (انى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه) .

فلما نزل بعد رجوعه من تبوك فى (ذى أوان) جاءه خبر المسجد من السماء فدعا مالك بن الدخشم آخا بنى سلمة بن عوف ، ومعن بن عدى العجلانى فقال (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه فخرجا مسرعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك الدخشم فقال مالك لمعن أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، ودخل إلى أهله ،

---

(١) التوبة : ١٠٧ — ١١٠ .

فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه النار ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه ـــ وفيه أهله ـــ فحرقاه وهدماه ، فتفرقوا عنه .

وذكر ابن اسحاق الذين بنوه وهم اثنا عشر رجلا منهم ثعلبة بن حاطب[1] .

قال الطبرى فى تفسير الآية الكريمة ﴿ والَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية . فتأويل الكلام : (والذين ابتنوا مسجدا ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ وكفرا بالله لمحادتهم بذلك رسول الله ﷺ ، ويفرقوا به المؤمنين ليصلى فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ ، وبعضهم فى مسجد رسول الله ﷺ ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا (وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل) يقول : واعداداً له ، لابى عامر الكافر الذى خالف الله ورسوله وكفر بهما وقاتل رسول الله من قبل يعنى من قبل بنائهم ذلك المسجد ، وذلك أن أبا عامر هو الذى كان حزب الاحزاب ، يعنى حزب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله ، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبى الله وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذى كانوا بنوه فيما ذكر عنه ليصلى فيه فيما يزعم إذا رجع إليهم . ففعلوا ذلك ، وهذا معنى قول الله جل ثناؤه (وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى) يقول جل ثناؤه وليحلفن بانوه إن أردنا إلا الحسنى ببنائه إلا الرفق بالمسلمين والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة من عجز على المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه ، وتلك هى الفعلة الحسنة (والله يشهد إنهم لكاذبون) فى حلفهم ذلك ،

---

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم (ص ٥٤٩) ، بهجة المحافل وبغية الاماثل (٢ : ٣٥) ، تفسير الطبرى (١١ : ٢٣) تفسير سورة التوبة .

وقيـــل لهم ما بنينـــاه إلا ونحن نريـــد الحسنـــى ، ولـــكنهم بنـــوه يريـــدون ببنائـــــه السوء أى ضراراً لمسجـــــــد رسول الله ﷺ ، وكفـــــــرا بالله وتفريقا بين المؤمنين ، وإرصاداً لأبى عامر الفاسق)[1] .

* * *

(١) تفسير الطبرى (١١ : ٢٣) تفسير سورة التوبة .

الفصل الرابع

بيان قواعد الجهاد وحكمة تشريعه والاحكام المتعلقة: بالحروب والغزوات والصلح والمعاهدات

الجهاد

من مقاصد السور والآيات المدنية الحديث عن الجهاد .

وسوف أتحدث عنه بإذن الله تعالى من نواح ثلاث :

(١) تعريف الجهاد وأنواعه ومتى فرض .

(٢) بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمة تشريعه .

(٣) ذكر الأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات من الصلح والمعاهدات والغنائم والفيء وفك الأسرى .

أولا : تعريف الجهاد وبيان أنواعه ومتى فرض :

الجهاد لغة : مصدر جاهد . وهو مشتق من الجهد ، وهو المشقة .

والجهاد بالكسر : القتال مع العدو كالمجاهدة وهو المبالغة واستفراغ مافى الوسع والطاقة من قول أو فعل[١] .

قال الراغب الاصفهانى (الجهاد والمجاهدة) استفراغ الوسع فى مدافعة العدو[٢] .

الجهاد شرعا : بذل الوسع والطاقة بالقتال فى سبيل الله عز وجل بالنفس والمال واللسان وغير ذلك[٣] .

---

(١) تاج العروس (٢ : ٣٢٩) .

(٢) مفردات القرآن للاصفهانى (١ : ١٤٢) (الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى الناشر مكتبة الانجلو المصرية .

(٣) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع للامام علاء الدين أبى بكر بن مسعود الكاسانى الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ ، ط /الأولى ١٣٢٨ هـط/الثانية ١٣٣٤ هـ الناشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان (٧ : ٩٧) .

أنواع الجهاد

أولا : مجاهدة العدو الباطن .

هى عبارة عن :

(أ) مجاهدة النفس

(ب) مجاهدة الشيطان .

ثانيا : مجاهدة العدو الظاهر . ويتحقق ذلك بما يلى :

(أ) المجاهدة بالمال .

(ب) المجاهدة بالنفس (الروح) .

(جـ) المجاهدة باللسان .

أولا : مجاهدة العدو الباطن .

(أ) **مجاهدة النفس :**

الجهاد يبتدىء بجهاد النفس بتخليصها من الأهواء والشهوات وإتجاهها إلى الحق فى ذاته ، لا حبا فى شهرة ولا رغبة فى متعة ولا رجاء أى شأن من شئون الدنيا .

وإنما اعتبر المجاهد من يجاهد لإرضاء الله وطلب ماعنده ، ولرفعة الحق وجعل كلمة الله هى العليا وكلمة أعداء الله هى السفلى ، وأن ذلك لا ريب لا يكون إلا إذا جاهد نفسه وأخضع أهواءه وشهواته لأحكام الله . وتبعا لما جاء به النبى ﷺ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى كتابه (الفوائد) تعليقا على قوله عز وجل ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾[1] علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا . وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الدنيا . فمن جاهد هذه الأهواء الأربعة فى الله ،

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .

هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ... ولا يتمكن من جهاد عدوه فى الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا ، فمن نصر عليها نصر على عدوه ، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه)[١] أ.هـ .

وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾[٢] .

قال القرطبى : قوله (حق جهاده) إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به والانتهاء عن كل مانهى الله عنه ، أى جاهدوا أنفسكم فى طاعة الله وردها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان فى رد وسوسته ، والظلمة فى رد ظلمهم والكافرين فى رد كفرهم[٣] .

وقد ذكر العلامة ابن القيم مراتب جهاد النفس فقال :

أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه والا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإن استكمل هذه المراتب الأربعة صار من الربانيين)[٤] .

والنفس الانسانية أشبه ماتكون بالمريض الذى وضع تحت المراقبة . فقد كلفنا حفظها ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التى تقيمها ، لا بد من إعطائها مايقيمها .. ونحن كالوكلاء فى حفظها . لأنها ليست لنا بل هى وديعة عندنا فمنعها حقوقها على الاطلاق خطر . ثم رب شد أوجب استرخاء ورب

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٥٩) لشمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ط/ دار مصر للطباعة . طبع على نفقة عمر عبد الجبار .

(٢) الحج : ٧٨ .

(٣) تفسير القرطبى (١٢ : ٩٩) .

(٤) زاد المعاد لابن القيم (٣ : ١٠) .

مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلافيها ، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل يحملها على مكروهها فى تناول ماترجو به العافية ويذوب فى المرارة قليلا من الحلاوة ويتناول من الأغذية مقدار مايصفه الطبيب ، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعا ، ومن لقمة ربما حرمت لقمات ، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ، ولا يهمل مقودها، بل يرخى لها فى وقت والطول[1] بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقها فى التضييق عليها ، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف فإن ونت وأبت فبالعنف ، ويحبسها فى مقام المداراة ، كالزوجة التى مبنى عقلها على الضعف والقلة ، فهى تدارى عند نشوزها بالوعظ ، فان لم تصلح فبالهجر ، فان لم تستقم فبالضرب . وليس فى سياط التأديب أجود من سوط عزم[2] .

قال البوصيرى فى قصيدته (البردة) :

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ماتولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة ... وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

إلى أن قال :

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم[3]

---

(١) الطول الزمام . قال لبيد (كالطول المرخى وثنياه فى اليد) .

(٢) صيد الخاطر (ص ٨٤) للامام ابن الجوزى . راجعه على الطنطاوى وحققه ناجى الطنطاوى ، ط/ دار الفكر بدمشق ط/ الثانية ١٣٩٨ هـ .

(٣) مجموع أمهات المتون (ص ٨١) ، قصيدة البردة أو الكواكب الدرية لشرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجى البوصيرى ، مطبعة البابى الحلبى بمصر الطبعة الرابعة ١٣٦٩ هـ (ص ٦٠٨ — ٦٩٦) .

(ب) مجاهـــدة الشيطان :

إن الشيطان العدو اللدود للإنسان منذ أن كان آدم عليه السلام فى الجنة . فحين خلق الله آدم عليه السلام أسكنه الجنة ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾[1] فطرده الله من الجنة وتوعده بالعقاب الشديد .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمِ فَسَجَدُوا إلاّ إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِن السَّاجِدِين .قَالَ مَا مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ قَالَ أنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين . قَالَ أنْظِرْنِى إلى يَوْمِ يُبْعَثُون . قَالَ إنَّكَ مِنَ المُنْظَرِين . قَالَ فَبِمَا أغْوَيْتَنِى لَأقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيم . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أكْثَرَهُمْ شَاكِرِين . قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأمْلَأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أجْمَعِين ﴾[2]

قال الطبرى : فى قوله تعالى (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ...) الآية .

أى لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل فاصدهم عن الحق ، وأحسن لهم الباطل[3] .

وكان آدم عليه السلام وزوجه قد أسكنهما الله الجنة فوسوس لهما الشيطان فكان سببا لارتكابهما ما نهاهما الله عنه من أكل الشجرة .

قال تعالى ﴿ وَيَا آدمُ أسْكُنْ أنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين . فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ

---

(١) الاعراف : ١٢ .

(٢) الاعراف : ١١ ـــ ١٨ .

(٣) تفسير الطبرى (٨ : ١٣٧) .

لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِين فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَّرَق الجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِين . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِين . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين ﴾(١) .

والشيطان وأعوانه سواء من الجن أو الانس . لأن هناك من الانس من جند نفسه لخدمة الشيطان لذلك جاءت الآيات تعيذنا منهم ﴿ مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ الَّذِى يُوَسْوِسُ فى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾(٢) . وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا ﴾(٣) . وهؤلاء الشياطين هم سبب الهلاك والضلال للانسان لذلك حذرنا الله عز وجل من اتباع خطواتهم والانقياد لما يزينونه لنا من الملذات . قال تعالى ﴿ يأَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الارْضِ حَلَالاً طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٤) .

وقال تعالى ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ واللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيم ﴾(٥) .

وهو يحض الانسان على الكفر والخروج عن الملة ثم يتبرأ منه ويقول أنا برىء منك . قال تعالى ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ للانْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِين﴾(٦) .

---

(١) الاعراف : ١٨ — ٢٤ .

(٢) الناس : ٤ — ٦ .

(٣) الانعام : ١١٢ .

(٤) البقرة : ١٦٨ — ١٦٩ .

(٥) البقرة : ٢٦٨ .

(٦) الحشر : ١٦ .

أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته)[١] .

وخير سلاح يتسلح به المؤمن لمواجهة مكايد الشيطان هو الاستعاذة بالله . قال تعالى ﴿ **وإمّا ينزغنّك من الشّيطان نزغ فاستعذ باللّه إنّه سميع عليم.إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشّيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٢] .

وكذلك آية الكرسى[٣] فانها حافظة من الشيطان . كما ورد فى صحيح البخارى فى قصة أبى هريرة رضى الله عنه حينما قال الشيطان **له** :

(إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، لم يزل معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . وقال النبى ﷺ : صدقك وهو كذوب ، ذاك شيطان)[٤] .

قال ابن القيم : وأما جهاد الشيطان فمرتبتان :

(**إحداهما** : جهاده على دفع مايلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة فى الايمان .

الثانية : جهاده على دفع ما يلقى إليه من الارادات الفاسدة والشهوات . فالجهاد الأول يكون بعده اليقين .. والثانى يكون بعده الصبر)[٥] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (٢ : ١٥٤) ، ط/ دار الفكر .

(٢) الاعراف : ٢٠٠ ــ ٢٠١ .

(٣) البقرة : ٢٥٥ وهو قوله تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم**) **الآية**

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٤٣٢) .

(٥) زاد المعاد لابن القيم (٣ : ١٠) .

ثانيا : مجاهدة العدو الظاهر :

(أ) المجاهدة بالمال :

لقد ورد الأمر بالجهاد بالمال والنفس فى القرآن معا . قال تعالى ﴿ **انْفِرُوا خِفَافاً وثِقالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون** ﴾[1] .

ولقد ضرب الله الأمثال فى تضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته . قال تعالى ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعُ عَلِيم . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون** ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَموالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ** ﴾[3] .

ولا شك أن مقابلة الأعداء تتطلب أصناف السلاح والعتاد لذلك أمر المولى عز وجل عباده المؤمنين بإعداد القوة للأعداء وختم قوله جل وعلا بأن ما ينفقه المؤمن مهما كان ذلك الانفاق سوف يجازى به الجزاء الأوفى .

قال تعالى ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُون** ﴾ .

قال القرطبى[4] : قال ابن عباس : القوة هاهنا السلاح والقسى .

---

(١) التوبة : ٤١ .

(٢) البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) البقرة : ٢٦٥ .

وقوله وابل : المطر الشديد . فطل : المطر الضعيف المستدق من القطر الخفيف . تفسير القرطبى (٣ : ٣١٧) .

(٤) تفسير القرطبى (٨ : ٣٥) .

وفى صحيح مسلم[1] عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى). فقد فسر رسول الله ﷺ (القوة) فى الآية الكريمة بالرمى. والرمى لا بد له من سلاح وبدون بذل الأموال لا يتوفر السلاح.

ولقد سطر لنا التاريخ مواقف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فى إنفاقهم الأموال الطائلة فى سبيل تجهيز الجيوش للجهاد فى سبيل الله..

فهذا سيدنا عثمان بن عفان جهز جيش العسرة بأحلاسها[2] وأقتابها[3].

أخرج البخارى بسنده عن أبى عبد الرحمن أن عثمان رضى الله عنه حين حوصر أشرف عليهم وقال: أنشدكم الله ولا أنشد إلا أصحاب النبى ﷺ ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال من حفر رومة فله الجنة فحفرتها؟ ألستم تعلمون أنه قال: من جهز جيش العسرة فله الجنة؟ فجهزته. قال: فصدقوه بما قال[4].

وأخرج البخارى بسنده عن أبى سعيد قال: سمعت سعيداً المقبرى يحدث أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول: قال النبى ﷺ من احتبس فرسا فى سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة[5].

وبهذا يتضح لنا الثواب العظيم الذى أعده المولى عز وجل للمنفقين فى سبيل الله من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

---

(١) صحيح مسلم وبهامشه شرح النووى (١٣ : ٦٤).

(٢) احلاس: جمع حلس: كل شيء ولى ظهر البعير والدابة تحت الرجل والقتب والسرج. لسان العرب (٦ : ٥٤).

(٣) اقتابها: جمع قتب: اكاف البعير وفى الصحاح: رحل صغير على قدر السنام. لسان العرب (١ : ٦٦٠).

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٣٦).

(٥) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٩٧).

(ب) المجاهدة بالنفس (الروح) :

قال تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وعْداً عليهِ حَقًا فِي التَّوراة والإنجيل وَالقُرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِه وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ** ﴾[1] .

لما كان الجهاد ذروة سنام الاسلام . جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مبينة لمنازل أهله . فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة ، وكان المثل الأعلى والنموذج الأمثل للمجاهد هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فلقد جاهد فى الله حق جهاده .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا ايمان بى وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل)[2] .

وأخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلنى على عمل يعدل الجهاد قال : لا أجده . قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك[3] .

وأخرج البخارى أيضا عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا ومافيها[4] .

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١ : ١٠٠) كتاب الايمان .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٤٥) كتاب الجهاد .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٥٤) كتاب الجهاد .

وقد ترجم البخارى أيضا فى كتاب الجهاد باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . وقوله تعالى ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكم وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ** ﴾[1] .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قيل يارسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله ﷺ مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله قالوا : ثم من ؟ قال مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره[2] .

(١) الصف : ١٠ ـــ ١٢ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٤٦) كتاب الجهاد .

(جـ) المجاهدة باللسان :

الدعوة إلى دين الله وتبليغ ما أنزل الله من الذكر الحكيم وإقامة الحجة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أمام الملحدين وأعداء الاسلام من الكافرين والمنافقين والفاسقين . كل ذلك وغيره إنما يكون الجهاد به بواسطة اللسان فهو الوسيلة لنشر دين الله وتوصيله إلى القلوب ويلزم للداعى التحلى بالحكمة والرفق واختيار أنسب الأساليب لذلك .

قال تعالى ﴿ **وَمنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلىَ الله وَعَمِلَ صَالِحاً وقالَ إنَّنى من المسلمين** ﴾[1] .

وقال تعالى فى حق المجاهدين بأنهم يقومون بمهمة الرسل الذين يبلغون رسالات الله .. ﴿ **الّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ ويَخْشونَهُ وَلاَ يَخْشَونَ أَحَداً إلاّ اللّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبا** ﴾[2] .

أخرج الامام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[3] .

وأخرج الامام مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه . فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان)[4] .

هذا وإن كانت المجاهدة باللسان موجودة فى القرآن المكى إلا أن وجودها فى القرآن المدنى أظهر حيث إن الظروف فى المدينة كانت مهيأة لتبليغ الدعوة حيث أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسله للأقاليم المجاورة وكتب الكتب إلى الملوك والقياصرة .

---

(١) فصلت : ٣٣ .

(٢) الأحزاب : ٣٩ .

(٣) مسند الامام أحمد ــ الفتح الربانى مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا (١٣ : ٧) الناشر دار الحديث بالقاهرة .

(٤) صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ــ كتاب الايمان ــ باب كون النهى عن المنكر من الايمان (١ : ٦٩) .

فرضية الجهاد

ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح (إن أول ماشرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقا)[1] .

وقد ورد أن أول آية فرض فيها القتال نزلت فى السنة الثانية للهجرة وهى قوله تعالى ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُو كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ** ﴾[2] .

وهكذا نفهم أن المسلمين الأوائل منعوا من القتال قبل الهجرة وأذن لهم فيه بعد الهجرة بدليل قوله تعالى ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِير . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّه** ﴾[3] .

فقوله تعالى (**الذين أخرجوا**)يدل على أن الاذن فى القتال كان بعد هجرة النبى ﷺ . ومع ذلك فنضيف أن فرضية الجهاد كانت بآية البقرة (**كتب عليكم القتال** ...) الآية وكان نزولها فى السنة الثانية من الهجرة ... والله أعلم .

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى (٦ : ٣٧٧) .

(٢) البقرة : ٢١٦ ، انظر تفسير المراغى (٢ : ١٣٢) .

(٣) الحج : ٣٩ — ٤٠ .

ثانياً : بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمة تشريعه

(مفهوم الجهاد)

لا بد لنا قبل الخوض فى بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمه وتشريعه أن نتعرف على مفهوم الجهاد فى الاسلام . حيث ان أعداء الاسلام شوهوا الصورة الحقيقية الواضحة . والغاية السامية من الجهاد . ورسموها فى صورة بشعة من شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . وللأسف إن كثيراً من أبناء المسلمين والمثقفين بالثقافة الغربية قد انخدعوا وعلقت هذه الصورة البشعة فى أذهانهم فوقعوا فى الحيرة والشك وقد يعتريهم الخجل والندامة من تاريخهم المجيد الذى كان عنوانه الجهاد .

إن القتال فى الاسلام لا يكون قط إلا فى سبيل الله . لإعلاء راية الاسلام ولنشر دعوته والدفاع عن حزبه والمحافظة على المسلمين عامة وبلادهم وممتلكاتهم من الطامعين فى اغتصاب خيرات بلادهم أو انتهاك مقدساتهم ونشر مبادئهم . فهو دفاع عن العقيدة وإحقاق الحق وإبطال الباطل ومطاردة الكفر وقطع دابر الظالمين .

والاسلام لم يعمد إلى القتال كوسيلة من وسائل نشره . وإنما كان ذلك تطورا تقتضيه طبيعة الدعوة واضطرت إليه نتيجة لموقف الكافرين منها ولم يتقرر إلا بعد أن مرت الدعوة الاسلامية بمراحل متعددة وهى :

أولا : مرحلة الدعوة سرا .

ثانيا : مرحلة الدعوة جهرا .

ثالثا : مرحلة القتال للدفاع .

رابعا : مرحلة القتال الخاصة ببعض الأماكن والأزمنة دون غيرها وذلك بمواجهة القوة بالقوة واستخلاص الحقوق المغتصبة والتمكن للحق فى غير الأشهر الحرم

والبيت الحرام . قال تعالى ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ**﴾[1] . وقال تعالى ﴿ **وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ . فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انتَهَوا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾[2] .

خامسًا : القتال مطلقا فى كل زمان ومكان : وهى للتخلص من العدو الداخلى كاليهود والمشركين وتأديب العدو الخارجى كالفرس والروم وتأمين المسلمين على دعوتهم ودولتهم ووطنهم وللتفرغ للاصلاح العام ونشر الدعوة . قال تعالى ﴿ **فَإِنْ لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَأُولئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا** ﴾[3] .

فالجهاد الاسلامى ليس حربا استعمارية كتلك الحروب التى اصطلى العالم بها في القديم والحديث .

إن الخلط بين الجهاد والحروب الاستعمارية خطل فى الرأى وجور فى الحكم ومجافاة للحق وتجن على الإسلام . لأن الحروب الاستعمارية انطلاق إلى التوسع والتطلع إلى الاحتكار والسلب والاستيلاء على خيرات البلاد والقبض على ينابيع ثروتها وليست لها غاية نبيلة تسوغ ما تقترفه من جرائم وآثام .

على حين نرى الجهاد لا يذكر إلا مقترنا بلفظ (فى سبيل الله) وسبيل الله فى المصطلح الاسلامى لفظ جامع لأصول الخيرات شامل لمهمات المبرات . فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاء لمرضاة الله لا تريد به مغنما أو مكسبا فى الحياة العاجلة فهو فى سبيل الله فما قيد الشارع الجهاد بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى .

---

(١) التوبة : ٥ .

(٢) البقرة : ١٩١ ــ ١٩٣ .

(٣) النساء : ٩١ .

وصدق الله جل وعلا حيث يقول في كتابه الكريم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾[(١)] . أ.هـ[(٢)] .

وإذا نظرنا فى هديه ﷺ وما جاء عنه من التشريعات الحكيمة والتى جعلته بحق أعظم القادة العسكريين الذين عرفوا فى التاريخ أدركنا الفرق الشاسع بين الجهاد والحروب الاستعمارية وذلك نظرا للاختلاف الكلى بين قواعدها ومقوماتها .

فمن تلك القواعد التشريعية :

(أ) مبايعته ﷺ لأصحابه على عدم الفرار فى الجهاد وربما بايعهم على الموت . قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ﴾[(٣)] .

وقال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[(٤)] . فلا جماعة إلا بثبات . وكذلك لاثبات إلا بجماعة . قال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون. وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾[(٥)] أى تتلاشى قوتكم.

---

(١) النساء : ٧٦ .

(٢) باختصار وتصرف من كتاب الدعوة الاصلاحية تأليف فضيلة الشيخ الدكتور السيد محمد علوى مالكى .

(٣) الفتح : ١٠ .

(٤) الانفال : ١٥ — ١٦ .

(٥) الانفال : ٤٥ .

(ب) وأمر المجاهدين بالصبر . وأن يكون القصد من خروجهم إعلاء كلمة الله وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ولا يكون خروجهم لبث الفزع والطغيان على العباد والمفاخرة بين الناس لإظهار قوتهم وعدتهم وعتادهم . قال تعالى ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[1] .

(جـ) وكان يشاور أصحابه فى أمر الجهاد وأمر العدو وتخير المنازل .

ومن ذلك مشاورته لأصحابه يوم بدر فكان يقول : (أشيروا على) فقام سعد بن معاذ فقال إيانا تريد يارسول الله . والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا .

ونزل بدراً على أدنى ماء إلى العدوة ونزلت المياه كلها خلفه بمشورة الحباب ابن المنذر وبنى له عريشا يستظل فيه بمشورة سعد بن معاذ[2] .

وكان يتخلف فى ساقتهم فى المسير ، فيزجى الضعيف ، ويردف المنقطع . وكان أرفق الناس بهم فى المسير .

(د) ومن هديه أنه إذا أراد غزوة ورّى بغيرها . أخرج البخارى بسنده عن كعب ابن مالك رضى الله عنه (كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها)[3] .

وأخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمى رسول الله ﷺ الحرب خدعة[4] .

(هـ) وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوه ويطلع الطلائع . وكان إذا لقى عدوه وقف ودعا واستنصر الله . وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله[5] .

---

(١) الأنفال : ٤٥ ـــ ٤٧ .
(٢) بهجة المحافل وبغية الاماثل (١ : ١٨١ ـــ ١٨٣) .
(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الجهاد (٦ : ٤٥٤) .
(٤) صحيح البهخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الجهاد (٦ : ٤٩٩) .
(٥) انظر بهجة المحافل (١ : ١٨٣) .

(و) وكان ﷺ ينظم الجيش وقسمه إلى ميمنة وميسرة ويجعل فى كل جهة كفأ لها قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾[1] .

(ز) وأخيرا فإن الاسلام لم يشرع القتال لذاته ولا حبا له ، بل شرعه لدرء الشر ، ودفع البغى والعدوان وحماية الدعوة ، وكف الطغيان والباطل عنها . لذلك فهو يفضل استخدام الطرق السلمية لتحقيق أهدافه وغاياته .

فعن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ اذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : (اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر ولا تغلوا[2] ولا تغدروا ، ولا تمثلوا[3] ، ولا تقتلوا وليدا . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال . فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم الى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ماللمهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين ، فإذا أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فان هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) . الحديث[4] .

ولقد حرم الاسلام محاربة غير المحاربين . فهو لا يجيز قتل المرأة والصبى والشيخ والعجزة أو من انقطعوا للعبادة .

---

(١) الصف : ٤ .

(٢) لا تغلوا : أى لا تخونوا فى الغنيمة .

(٣) لا تمثلوا : لا تشوهوا القتلى بقطع الانوف والاذان ونحوها .

(٤) اخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير (٣ : ١٣٥٧) باب تأمير الامام الامراء على البعوث ـــ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

فعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، واصلحوا إن الله يحب المحسنين)[1] [2] .

والجهاد فى الاسلام لا يمتد إلى قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار . مالم تكن هذه وسائل لكسب المعركة كالحيوانات التى تساعد فى الحرب أو البيوت والأشجار التى تتخذ حصونا ومعاقل .

---

(١) رواه أبو داود بسند صالح (٢ : ٣٦) .

(٢) انظر كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية بحث الشيخ محمد أبو زهرة .

حكمة مشروعية الجهاد

القتال سنة من سنن الكون منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها فهو أمر فطرى فى الانسان لأن الظلم والعدوان طبيعة البشرية منذ حلت على الأرض . وقد بين القرآن الكريم طبيعة هذا الظلم حيث قال جل شأنه ﴿ **إِنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴾[1] .

لذا فإن القوى يحاول أن يتعدى على الضعيف . ولعل هذا هو الأمر السائد اليوم . وهذا الأمر ليس قاصرا على الانسان ، بل لو نظرنا إلى الحيوان الأعجم نجده يدافع عن نفسه إذا اعتدى عليه بدافع غريزة حب البقاء قال ابن خلدون : (أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، فهى إذن أمر طبيعى فى البشر لا تكاد تخلو منه أمة ولا جيل ، وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده)[2] .

وقد جاءت الأديان السماوية لتهذيب هذه الطبيعة وتقويمها ، دعوة الناس للتعاون والمسالمة لكن الذين اعتنقوا هذه الأديان حرفوها لتلائم طباعهم فاستمر الظلم والعدوان حتى جاء الاسلام بتنظيم دقيق مبدع للجهاد وتحديد لاسبابه وأهدافه ومحاولة لجعل الجهاد وسيلة اذا عجز السلام المحض أن يمنح البشرية الأمن والسلامة . فعلى مر التاريخ لم يسعد قوم إلا بعد أن دافعوا عن أنفسهم وأثبتوا لمن حولهم أنهم يستطيعون حماية الديار حتى لقد ارتبط عز الأقوام بجهادهم[3] .

---

(١) ابراهيم : ٢٤ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (ص ٢٧٠ — ٢٧١) ، ط/ دار احياء التراث العربى — بيروت .

(٣) انظر الجهاد فى التفكير الاسلامي (ص ٥٧) للدكتور أحمد شلبى ط/ الثانية ١٩٧٤م ط/ ونشر مكتبة النهضة المصرية .

انظر الجهاد فى التشريع الاسلامي (ص ٤٢ — ٤٣) د. محمود محمد على ط/ أولى ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧م ط/ دار الاتحاد العربى للطباعة القاهرة .

وأخيرا فان الأحكام المثالية التى شرعها تعالى قبل القتال وفى أثنائه لتخفيف ويلات القتال والنهى عن الاعتداء والعدوان ، لتدل دلالة واضحة على أن الاسلام ماقصد من تشريع الجهاد ازهاق الأرواح وتخريب الديار والثمار وسلب الأموال وتعذيب الناس ، وإنما أراد من تشريع الجهاد دفع الشر وحماية المؤمنين ودعوتهم وبلادهم وأموالهم من العدوان ، وأراد هداية الناس وحسم شرهم لا إبادتهم وسحقهم[1] .

---

(١) انظر كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية ــ بحث فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة (ص ٢٤٩) .

ثالثاً : الاحكام المتعلقة بالغزوات من الصلح والمعاهدات والغنائم والفيء وفك الاسرى

لقد أمر الاسلام بالمحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق فى الحرب والسلم . حتى إن الله لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين من الكفار كما جاء فى قوله تعالى ﴿ **وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾[1] .

لأن هؤلاء المعاهدين يجب الوفاء بعهدهم ، وعدم نقض مواثيقهم قال تعالى ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين** ﴾[2] .

ولقد حافظ النبى ﷺ والخلفاء من بعده على العهد حتى إن عهد الحديبية الذى قست شروطه على المسلمين وجاء فيه (على انه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرده عليه، إلى آخر **ما ورد فيه**) قدم عليه الصلاة والسلام على تنفيذه تنفيذا دقيقا ، يدل على ذلك أنه بينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد[3] وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلبيبه، ثم قال يامحمد قد لجت[4] القضية بينى وبينك قبل ان ياتيك هذا ، قال : صدقت ، فجعل ينتره بتلبيبه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته ، يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوننى

---

(١) الانفال : ٧٢ .

(٢) التوبة : ٤ .

(٣) اى يمشى مشى المقيد (رسف) انظر لسان العرب (٩ : ١١٨) .

(٤) قال ابن منظور (وفى حديث الحديبية : قال سهيل بن عمرو : قد لجت القضية بينى وبينك أى وجبت ، قال هكذا جاء مشروحا ، قال : ولا أعرف اصله) . لسان العرب (٢ : ٣٥٥) .

فى دينى؟ فقال ﷺ (يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجاً انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم)[١]

فالوفاء بالعهد من فرائض الاسلام مادام العهد معقودا والعهد المؤقت يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وشروط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره فإذا خيف من العدو المعاهد لنا أن يخون فى عهده ،وظهرت آية ذلك فى قوله أو عمله فحينئذ يجب على الامام أن ينبذ إليه عهده ، على طريق عادل سوى صريح لاخداع فيه ولا استخفاء ولا خيانة ولا ظلم .

قال تعالى : **﴿ وإمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إليهِمْ عَلى سَوَاءٍ إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الخَائِنِينَ ﴾**[٢] .

وذلك بأن يعلمهم بفسخه وعدم التقيد به ، قبل حربهم[٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا ـــ ابراهيم الابيارى ـــ عبد الحفيظ شلبى (٣ : ٣٣٢ ـــ ٣٣٣) دار احياء التراث العربى .

(٢) الانفال : ٥٨ .

(٣) انظر كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية بحث فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله (ص ٢٤٥ ـــ ٢٤٧) .

الغنائم

الغنيمة : لغة : مايناله الرجل أو الجماعة بسعى — تقول غنمت الشيء أغنمه غنما إذا أصبته غنيمة والجمع الغنائم[١] .

وفى عرف الفقهاء : كل ما أخذ من العدو عنوة بطريق القهر والغلبة[٢] .

وفى هذا يقول الشافعى رحمه الله (ماأخذ من مشرك بوجه من الوجوه فهو على وجهين لا يخرج منهما : الغنيمة : وهى الموجف عليها بالخيل والركاب ولمن حضر من غنى أو فقير ، والفىء : وهو مالم يوجف عليها بخيل ولا ركاب)[٣] .

ويقول ابن القيم : (والأرض لا تدخل فى الغنائم المأمور بقسمتها بل الغنائم هى الحيوان والمنقول)[٤] .

وهذه هى التى تخمس لله وللرسول والباقى للغانمين بينهم .

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى تشريعا محكما فى توزيع الغنائم حيث قال جل وعلا : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[٥] .

قال ابن القيم : (وكان ﷺ إذا ظفر بعدوه أمر مناديا فجمع الغنائم كلها فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقى فوضعه حيث أراه الله ،

---

(١) لسان العرب (١٢ : ٤٤٦) .

(٢) راجع تفسير ابن كثير (٢ : ٣١٠) وانظر تفسير القرطبى (١ : ٨) .

(٣) بتصرف واختصار من كتاب الأم للشافعى، (٤ : ١٣٩) ط/دار المعرفة بيروت .

(٤) راجع زاد المعاد (٣ : ١١٨) .

(٥) الانفال : ٤١ .

وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ[1] من الباقى لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ثم قسم الباقى بالسوية بين الجيش ، للفارس ثلاثة أسهم . سهم له ، وسهمان لفرسه ، وللراجل سهم هذا هو الصحيح الثابت عنه[2] .

قلت : وهذا ما عليه الجمهور خلافا للأحناف . واحتج الجمهور بما أخرجه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهم[3] .

والفىء كما سبق أن عرفته : وهو مالم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

قال القرطبى فى الفىء هو : (مارجع للمسلمين من أموال الكفار عفوا صفوا من غير قتال ولا ايجاف ـــ كالصلح . والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار . ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم أو يموت أحد منهم فى دار الإسلام ولا وارث له ...

وكانت الغنائم فى صدر الإسلام للنبى ﷺ يصنع فيها ما شاء كما قال تعالى فى سورة الأنفال (قل الانفال لله والرسول) ثم نسخ بقوله تعالى (واعلموا انما غنمتم من شىء) الآية .

وأما الفىء فقسمته وقسمة الخمس سواء ، والأمر عند مالك فيهما للامام[4] .

قال تعالى ﴿ **وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُم عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ واللهُ عَلَى كُلِّ**

---

(١) الرضخ : العطية القليلة . انظر لسان العرب (٣ : ١٩) .

(٢) زاد المعاد لابن القيم (٣ : ١٠٠ ـــ ١٠١) .

(٣) أنظر عمدة القارى شرح صحيح البخارى (١٤ : ١٥٤) كتاب الجهاد باب (سهام الفرس) .

(٤) تفسير القرطبى (١٨ : ١٤ ـــ ١٥) .

شَيْءٍ قَدِير . مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾[1] .

والذى عليه الجمهور أن الفىء لجميع المسلمين الفقير والغنى وأن الامام يعطى منه للمقاتلة وللحكام والولاة وينفق منه فى النوائب التى تنوب المسلمين كبناء القناطر وإصلاح المساجد وغير ذلك ولا خمس فى شىء منه[2] .

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن الغلول .

والمراد من الغلول : الخيانة فى المغنم ـــ وقد نقل ابن حجر سبب تسميته بذلك فقال : (قال ابن قتيبة : سمى بذلك لأن آخذه يغله فى متاعه أى يخفيه ونقل النووى الإجماع على أنه من الكبائر)[3] . قال تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون ﴾**[4] .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام فينا رسول الله ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، قال لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء[5] على رقبته فرس له حمحمة[6] يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، وعلى رقبته بعير له رغاء[7] يقول

---

(١) الحشر : ٦ ـــ ٧ .

(٢) بداية المجتهد لابن رشد القرطبى (١ : ٣٤٢) ط/المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٣) فتح البارى (٦ : ٥٢٥) ، شرح النووى (١٢ : ٢١٧) .

(٤) آل عمران : ١٦١ .

(٥) ثغاء : صوت الشاة .

(٦) حمحمة : صوت الفرس عند العلف وهو دون الصهيل .
انظر فتح البارى (٦ : ٥٢٦) .

(٧) رغاء : صوت البعير .

يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك وعلى رقبته صامت[١] فيقول : يا رسول الله أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك وعلى رقبته رقاع تخفق[٢] فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك)[٣] .

* * *

---

(١) صامت : أى الذهب والفضة .

(٢) رقاع تخفق : أى تتقعقع وتضطرب إذا حركتها الرياح . وقيل معناه تلمع والمراد بها الثياب .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٥٢٦) .

الأسير : مشتق من الاسار وهو القيد الذى يشد به المحمل فسمى أسيرا لأنه يشد وثاقه ـــ فهو أسير ومأسور والجمع أسرى وأسار .

والأسير : الأخير وأصله من ذلك . وكل محبوس فى قد أو سجن أسيرا[1] .

قال تعالى ﴿ **مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[2] .

وسبب نزول هذه الآيات : ما أخرجه الامام مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر (ما ترون فى هؤلاء الاسارى ؟) فقال أبو بكر : يا نبى الله . هم بنو العم والعشيرة . أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار . فعسى الله أن يهديهم للاسلام. فقال رسول الله ﷺ : (ما ترى يا ابن الخطاب ؟) قلت : لا والله يا رسول الله . ما أرى الذى رأى أبو بكر . ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم . فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه . وتمكنى من فلان (نسيبا لعمر) فاضرب عنقه . فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها[3] . فهوى رسول الله ﷺ ما قاله أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ

---

(١) لسان العرب (٤ : ١٩) .

(٢) الانفال : ٦٧ ـــ ٦٩ .

(٣) يعنى أشرافها .

وأبو بكر قاعدان يبكيان قلت يا رسول الله . أخبرني من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : (أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة من نبى الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ ﴾. إلى قوله تعالى : فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا .. فأحل الله الغنيمة لهم[1] .

فكانت تلك الآيات عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ .

(والمعنى : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبى ﷺ أسرى قبل الاثخان . والاثخان : كثرة القتل . والنبى ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا . وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب ، فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبى ﷺ بأخذ الفدية ـــ هذا قول المفسرين وهو الذى لا يصح غيره ، وجاء ذكر النبى ﷺ حين لم ينه عنه حين رآه من العريش وأذكره سعد بن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحه ، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهى عن الاستبقاء ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات والله أعلم)[2] .

أقول : ولعل عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ كان لأنه قبل الفداء قبل أن ينزل القرآن ولم يكن ذلك فى الشرائع السابقة . وهذا لا ينقص من قدر رسول الله ﷺ لأنه من باب خلاف الأولى وحسنات الابرار سيئات المقربين .

قال القرطبى : فأعلم الله سبحانه وتعالى نبيه أن قتل الأسرى الذين فودوا ببدر كان أولى من فدائهم . وقال ابن عباس رضى الله عنه كان هذا يوم بدر والمسلمين يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباق (٣ : ١٣٨٥) .

(٢) انظر تفسير القرطبى (٨ : ٤٦ ـــ ٤٨) .

هذا فى الأسارى ﴿ **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ** ﴾[١] .

اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فقيل إنها منسوخة . وهى فى أهل الأوثان لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم وقيل إنها فى الكفار جميعا وهى منسوخة . وقيل إنها ناسخة .

والذى ارجحه ما قاله القرطبى أن الآية محكمة والامام مخير فى كل حال . رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب الامام مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم وهو الاختيار . لأن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ، فقتل النبى ﷺ عقبة بن معيط والنضر بن الحارث يوم بدر صبرا ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفى ، وهبط عليه (عليه السلام) قوم من أهل مكة فأخذهم النبى ﷺ ومنّ عليهم وقد منَّ على سبى هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح...)[٢] .

قال أبو جعفر النحاس : (وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما وهو قول حسن لأن النسخ إنما يكون بشىء قاطع فأما إذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى فى القول بالنسخ إذ كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قبل الأسر قتلناهم فإذا كان الأسر جاز القتل والمفاداة والمن على ما فيه الصلاح للمسلمين وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعى وأبى عبيد وبالله التوفيق)[٣] أ.هـ .

---

(١) محمد ﷺ : ٤ .

(٢) تفسير القرطبى (١٦ : ٢٢٨)

(٣) الناسخ والمنسوخ لابى جعفر النحاس (ص ٢٢٢) .

معاملة الاسير :

لقد دعت تعاليم الإسلام إلى الرفق بالأسارى والرحمة بهم والعناية بشأنهم ، ولم يعرف التاريخ معاملة حسنة للأسير كمعاملة المسلمين الأولين للأسرى .

قال عليه الصلاة والسلام فى أسارى بدر (استوصوا بالاسارى خيرا)[1] .

وإذا كان الإسلام يأمر بشد الوثاق على من أسر من الاعداء فهذا كناية عن قيد الاسر . والشد المشار إليه إن دل على شيء فإنما يدل على أن الاسير يجب منعه من الفرار .

وكان الأسير فى صدر الإسلام يوضع فى المسجد كما حبس ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربط بسارية من سوارى المسجد[2] .

والقرآن الكريم حض على إطعام الاسرى . قال تعالى ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا** ﴾[3] .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابى عزيز (حسن) .

(٢) شرح مسلم (١٢ : ٨٧) .

(٣) الدهر : ٨ — ١٠ .

الخاتمة

الحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات . والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فبعد أن أنهيت هذا البحث أود أن ألخص أهم ماورد فيه من البحوث والاستنتاجات .

أولا : بعد أن عرفت كلا من المدنى والمكى رجحت أشهر الأقوال وهو الذى اتخذ الزمان حدا ضابطا .

وهو (ان المدنى مانزل بعد الهجرة . وإن كان نزوله بمكة . والمكى مانزل قبل الهجرة) . وبينت الضوابط التى يعرف بها المدنى والفرق بين تلك الضوابط وضوابط المكى . وتحدثت عن خصائص السور والآيات المدنية من الناحية الأسلوبية والموضوعية .

وقد يتساءل شخص ما هى الفائدة من معرفتنا بالمدنى والمكى ؟

أقول إن معرفتنا بالمدنى والمكى من القرآن له أهميته الكبرى : —

(١) أنه به يتميز الناسخ والمنسوخ فى كتاب الله . فلو وردت آيتان متعارضتان وإحداهما مكية والأخرى مدنية فإننا نحكم بنسخ الثانية للأولى لتأخرها عنها .

(٢) أنه هو السبيل لمعرفتنا بتاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام والوقوف على سنة الله الحكيمة فى تشريعه بتقديم الأصول على الفروع والاجمال على التفصيل .

ثانيا : بينت السور المتفق على مدنيتها والمختلف فيها .

ولا بد من الاشارة إلى أن العمدة فى معرفتنا للمدنى والمكى هو النقل الصحيح عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحى والتنزيل . وكذلك عن التابعين الآخذين عنهم وأنه لم يرد عن النبى ﷺ فى ذلك قول .

ثالثا : بينت الآيات المدنية فى السور المكية والآيات المكية فى السور المدنية .

ولابد من الإشارة إلى أن السورة قد تسمى مكية أو مدنية بحسب الغالب فيها من الآيات .

رابعا : قمت بالرد على الشبه التى أثيرت حول المدنى والمكى من القرآن الكريم .

خامسا : تحدثت عن المقاصد الأساسية للسور والآيات المدنية :

(١) التشريعات التفصيلية والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات . وغالبا ماكنت أتطرق للحكمة التشريعية فى تلك العبادات والتى حفل بها القسم المدنى .

(٢) أهل الكتاب . إلى من ينتمون ؟ ومتى هاجروا إلى الجزيرة العربية ؟ وماهى أشهر صفاتهم الذميمة التى جاء بها القرآن الكريم ؟ ومحاجة القرآن لهم .

(٣) ثم تحدثت عن ضلال المنافقين وحقيقة أمرهم وأشهر صفاتهم القبيحة التى وردت فى القرآن الكريم . وما أعد لهم من العذاب والنكال وماهو موقف الرسول ﷺ تجاههم . وذكرت أشهر مواقفهم العدائية .

(٤) وبينت أيضا قواعد الجهاد وحكمة تشريعه والأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والصلح والمعاهدات .

سادسا : لا بد من التنبيه إلى أن المصاحف التى بين أيدينا قد كتب فى مطلع كل سورة (مدنية أو مكية أو أنها مدنية بها آيات مكية أو العكس) ... ولا نستطيع أن نسلم به ولا يمكن الاعتماد عليها فى الحكم على مدنية السورة أو مكيتها . وأقترح أن تشكل لجنة من كبار العلماء المتخصصين فى التفسير وعلوم القرآن لدراسة تلك الأقوال المذكورة فى مطلع كل سورة وإعادة وضعها فى المصحف . ولا يمكن أن يقوم بهذا العمل فرد واحد لأهمية هذا الموضوع حيث يتعلق بكتاب الله .

واضرب على ذلك مثلا . سورة الرحمن يشير المصحف الذى بين يدى أنها مدنية (وهو طبعة دار المصحف) بالقاهرة « المصحف المعلم » .

وكذلك (مصحف الحرمين) طباعة (شركة الشمرلى بالقاهرة) طبع بتصريح من مشيخة الأزهر . ومن خلال دراستى للآثار وأقوال العلماء من المفسرين وغيرهم رجحت أن سورة الرحمن مكية . ومن الأمثلة كذلك سورة يوسف عليه السلام[1] .

وأخيرا أبتهل إلى الله العلى القدير أن يفيض علينا من بركات القرآن ولا يحرمنا من خيراته ويرزقنا فهما فى كتابه العزيز يرضاه عنا . ويرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار . وأن يغفر لنا ولوالدينا ولأهلينا ولمشايخنا ولكل من يتمسك بحبل الله المتين ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وأصلح لِى فِى ذُرِّيَتِى إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِين** ﴾[2] والحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه باحسان إلى يوم الدين .. آمين ..

رجـــاء

هذا وأرجو من القارئ الكريم الذى يطلع على هذا الكتاب ويجد ملاحظات عليه أن يصلحها ويرشدنى إلى إصلاحها وله من الله تعالى الأجر والثواب ومنى خالص الدعاء وجزيل الشكر ..

والله الموفق

---

(١) انظر (ص ١٣٩) من بحثنا هذا .

(٢) الاحقاف : ١٥ .

فهـــرس الاعـــلام

ثبت المراجـــع

(١) الاتقان في علوم القرآن .
للحافظ جلال الدين السيوطى
دار الفكر بيروت .

(٢) أثر تطبيق الحدود في المجتمع .
طبعـة جامعـــة الامـــام محمـــد بن سعـــود الاسلاميـــة ــ المجلس الاعلى
ط/١٤٠١ هـ .

(٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية .
على بن محمد بن حبيب الماوردي
ط/٣القاهرة شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٣ هـ .

(٤) أحكام القرآن .
لابي بكر محمد بن عمر بن العربي .
تحقيق على محمد البجاوى ــ ط/عيسى البابي الحلبى .

(٥) احياء علوم الدين .
للامام أبى حامد الغزالى
ط/دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي وشركاه .

(٦) ارجوزة في المكي والمدني .
بدر الدين الحلبي التادفي
مخطـوط في مركـز البـحث العلمـي مصور عن المكتبـة الظاهريـة تحت رقـم ٧٦٥٩ .

(٧) ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكـريم (تفسير أبي السعـود) لقـاضي القضاة أبي السعود محمـد العمـادى ت ٩٥١ هـ) ــ دار إحيـاء التـراث العربي ــ لبنان .

(٨) الاستيعاب في معرفة الاصحاب .
للشيخ ابن عبد البر النمري القرطبي ت ٤٦٣ هـ . طبع على هامش الاصابة ط/الأولى ١٣٢٨ هـ ـ دار صادر بيروت .
(٩) أسباب النزول .
لابى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى ت ١٦٨ هـ
ط/دار الفكر ـ مكتبة الرياض الحديثة .
(١٠) أسباب النزول
محمد أسعد العراقي
مخطوط مكتبة دبلن برقم ٥١٩٩ ومنه نسخة مصورة لدى مركز البحث العلمي بأم القرى .
(١١) أسباب النزول .
للواحدى
تحقيق الاستاذ سيد صقر
(١٢) اسعاف أهل الاسلام بوظائف الحج إلى بيت الله الحرام
للعلامة الشيخ حسن مشاط
ط/٣ ، ١٣٩٧ هـ .
(١٣) الاعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره
د . محمد أحمد يوسف القاسم
ط/ ، ١٣٩٩ هـ .
(١٤) اعجاز القرآن .
للباقلانى
تحقيق سيد صقر ـ طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٣ م .
(١٥) الاصابة في تمييز الصحابة
لابن حجر العسقلانى
بهامشه الاستيعاب ط/الأولى ١٣٢٨ هـ دار صادر بيروت .

(١٦) الاعـــلام
خير الدين الزركلي
ط/دار العلم للملايين ، ط/الرابعة ١٩٧٩ م .
(١٧) اعلام الموقعين عن رب العالمين
محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ
المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٣٧٤ هـ .
(١٨) الام
للامام محمد بن ادريس الشافعي (١٥٠ ــ ٢٠١)
ط/ دار المعرفة بيروت ــ ط/الثانية ١٣٩٣ هـ .
(١٩) البحر المحيط
للامام محمد بن يوسف بن على بن حيان الاندلسي الغرناطى
المتوفى سنة ٧٥٤ هـ بالقاهرة .
الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديث ــ الرياض .
(٢٠) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع
للامام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاسانى الحنفي ت ٨٧ هـ
ط/الاولى ١٣٢٨ هـ الناشر دار الكتاب العربي ــ لبنان .
(٢١) بداية المجتهد
لابن رشد القرطبي
ط/دار المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
(٢٢) البداية والنهاية
للحافظ ابن كثير ت ٧٧٤ هـ
ط/مكتبة المعارف بيروت ــ ط الرابعة ١٩٨١ م
(٢٣) البرهان في علوم القرآن
بدر الدين الزركشي
ط/٢ عيسى البابي الحلبي مصر سنة ١٣٩١ هـ تحقيق محمد أبو
الفضل ابراهيم

(٢٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب
للعلامة محمود شكري الألوسي
شرح محمد بهجة الأثري ط/٣ القاهرة دار الكتب ١٣٤٢ هـ .
(٢٥) بنو إسرائيل في القرآن والسنة
د . محمد سيد الطنطاوى
ط/ الاولى ١٣٨٩ هـ توزيع دار حراء ــ القاهرة .
(٢٦) بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل
يحيى بن أبي بكر العامري ت ٨٩٣ هـ
المدينة المنورة ــ المكتبة العلمية
(٢٧) بينات المعجزة الخالدة
د . حسن ضياء الدين عتر
ط/دار النصر ــ حلب ــ الطبعة الأولى ١٩٧٠ م .
(٢٨) تاج العروس من جواهر القاموس .
للعلامة محمد بن محمد مرتضي الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ
ط/منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ــ لبنان .
(٢٩) تاريخ ابن معين رواية الدورى
تحقيق د . أحمد محمد نور سيف ــ ط/الأولى ــ مركز البحث العلمي
جامعة أم القرى ١٣٩٩ هـ .
(٣٠) تاريخ بغداد أو مدينة السلام
أحمد بن على الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ
بيروت ــ دار الكتاب العربي
(٣١) تاريخ العرب قبل الاسلام
د . جواد على
ط/بيروت ١٩٦٨ م .
(٣٢) تأملات في تفسير سورة النور
د . محمد أحمد يوسف القاسم
ط/الاولى ١٣٩٩ هـ ــ دار الطباعة المحمدية .

(٣٣) التسهيل لعلوم التنزيل
لابن جزي الكلبي
ط/الثانية ١٣٩٣ هـ ــ دار الكتاب العربي .

(٣٤) تفسير الدر المنثور
للسيوطى
ط/دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت

(٣٥) تفسير القرآن العظيم
لابن كثير ت ٧٧٤ هـ
ط/دار الفكر ــ بيروت .

(٣٦) التفسير الكبير
فخر الدين الرازي
ط/٢ دار الكتب العلمية ــ طهران .

(٣٧) تفسير المراغي
أحمد مصطفى المراغي
ط/٣ القاهرة ــ مكتبة الحلبى ١٣٩٤ هـ .

(٣٨) تلخيص المستدرك
للذهبي
مطبوع بذيل المستدرك ــ ط/دار الكتاب العربي ــ بيروت .

(٣٩) تهذيب التهذيب
لابن حجر العسقلاني
دائرة المعارف النظامية ــ الدكن ــ حيدر أباد ــ الهند ط/١ ، ١٣٢٥ هـ .

(٤٠) جامع البيان عن تأويل آى القرآن
لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى م ٣١٠ هـ
ط/الثالثة ١٣٨٨ هـ ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر .

(٤١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)
لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي
ط/٢دار الكتب المصرية ١٣٥٦ هـ .
(٤٢) الجهاد في التشريع الاسلامي
د . محمود محمد على
ط/الاولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ـ ط/دار الاتحاد العـربي للطباعـة بالقاهرة .
(٤٣) الجهاد في التفكير الاسلامي
د . أحمد شلبى
ط/الثانية ١٩٧٤ م ـ نشر مكتبة النهضة المصرية .
(٤٤) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ط/المكتبة الاسلامية أزمير ـ تركيا .
(٤٥) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وآله المصطفين الأخيار .
عبد الرحمن بن على بن الديبع الشيبانى
دمشق مطبعة محمد هاشم الكتبي .
(٤٦) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
للسيوطى
المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ ـ القاهرة .
(٤٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور
للامام الحافظ جلال الدين السيوطى ت ٩١١ هـ
ط/دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت .
(٤٨) الدعوة الاصلاحية .
الدكتور السيد محمد علوي مالكي
(٤٩) الرحيق المختوم
الشيخ صفي الرحمن الماركفورى
ط/الاولى ١٤٠٠ هـ منشورات رابطة العالم الاسلامى .

(٥٠) روائع البيان تفسير آيات الأحكام
للشيخ محمد على الصابونى
ط/١٩٣١ م دار القرآن الكريم ــ الكويت .
(٥١) روح الصلاة في الاسلام .
للاستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة
ط/الثامنة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت .
(٥٢) روح المعانى .
للألوسى البغدادى
دار الطباعة المنيرية ــ تصوير دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
(٥٣) زاد المعاد في هدى خير العباد
لابن القيم الجوزية
تحقيق شعيب الارناؤوط ــ عبد القادر الارناؤوط ــ ط/الثانية ١٤٠٢ هـ .
مؤسسة الرسالة .
(٥٤) سنن ابن ماجه
للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢١٧ ــ ٢٧٥ هـ)
ط/دار إحياء الكتاب العربي ــ عيسى البابي الحلبي .
(٥٥) سنن أبي داود
لأبي داود السجستانى
ط/الاولى ١٣٧١ هـ ــ مطبعة البابى الحلبي مع تعليق الشيخ أحمد سعد على
(٥٦) سنن الترمذي
لأبي عيسى الترمذي المتوفى ٢٧٩ هـ
تحقيق أحمد شاكر ــ نشر المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ .

(٥٧) سنن الدارقطني
الدارقطنى
تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدنى ــ ط/دار المحاسن القاهرة ١٣٨٦ هـ .
(٥٨) سنن النسائى .
بشرح الحافظ السيوطى
ط/دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
(٥٩) سير أعلام النبلاء .
للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
مؤسسة الرسالة ــ ط/١ بيروت ١٤٠١ هـ .
(٦٠) السيرة النبوية
لإبن هشام
تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الانبارى وعبد الحفيظ شلبى ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .
(٦١) السيرة النبوية
للشيخ أبو الحسن على الندوى
ط/دار الشروق ــ ط/الثانية ١٩٧٩ م .
(٦٢) شرح فتح القدير
لإبن الهمام
المطبعة الأميرية .
(٦٣) شذرات الذهب
عبد الحى بن أحمد بن العماد الحنبلى ت ١٠٨٩ هـ
القاهرة ــ مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ .
(٦٤) شريعة الله الخالدة
الدكتور السيد محمد علوى المالكى

(٦٥) الصحاح (للجوهرى)
بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار ــ ط/الثالثة ١٤٠٢ هـ .

(٦٦) صحيح ابن خزيمة
للامام محمد بن اسحاق بن خزيمة ت ٣١١ هـ
تحقيق د . محمد مصطفى الاعظمي ــ ط/المكتب الاسلامى .

(٦٧) صحيح البخـاري
محمد بن اسماعيل البخاري
طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ط/الاولى ١٣٨٣ هـ .

(٦٨) صحيح مسلم
تحقيـق محمـد فؤاد عبـد البـاقى ــ دار إحيـاء التـراث العـربي ــ بيروت
ط/الأولى ١٣٧٤ هـ .

(٦٩) صحيح مسلم
بشرح الامام النووى
ط/٢ دار الفكر ــ بيروت ١٣٩٢ هـ

(٧٠) الصحيح المسند في أسباب النزول
مقبل الوادعى
ط/مكتبة المعارف ــ الرياض ــ ط/الأولى ١٤٠٠ هـ .

(٧١) صفوة التفاسير
للشيخ محمد على الصابونى
ط/الرابعة ١٤٠٢ هـ ــ دار القرآن الكريم ــ بيروت .

(٧٢) صيـد الخـاطر
للامام ابن الجـوزى
راجعه على الطنطاوى ــ حققه ناجى الطنطاوى ــ ط/دار الفكـر بدمشق
ط/الثانية ١٣٩٨ هـ .

(٧٣) الطبقات الكبرى
لابن سعد
ط/دار صادر ــ بيروت

(٧٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين
للامام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
تحقيق الشيخ عبد الله الأنصاري ــ مطابع الدوحة الحديثة .

(٧٥) العبادة أحكام وأسرار
للدكتور عبد الحليم محمود
ط/٢ دار الكتاب اللبناني ــ بيروت ١٩٧٥ م .

(٧٦) العبادة في الاسلام
د . يوسف القرضاوى
ط/مؤسسة الرسالة ، ط/التاسعة ١٤٠٢ هـ .

(٧٧) علوم القرآن
د . عبد المنعم النمر
ط/الأولى دار الكتاب المصري ــ دار الكتاب اللبناني .

(٧٨) علوم القرآن الكريم
للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم وآخرون
ط/الأولى ١٤٠١ هـ مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة

(٧٩) عمدة القارى شرح صحيح البخارى
للعلامة بدر الدين أبي محمد محمود العيني الحنفى
دار الطباعة العامرة ــ الشركة الصحافية العثمانية في دار السلطنة
السنة ١٣٠٨ هـ .

(٨٠) غاية النهاية في طبقات القراء
لأبي الخير شمس الدين الجزرى ت ٨٣٣ هـ .
ط/١القاهرة ــ مكتبة الخانجي ١٩٣٣ م .

(٨١) فتح الباري
للحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى
تحقيق ومراجعة ابراهيم عطوة عوض ــ مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده
بمصر ط/الأولى ١٣٨٣ هـ .

(٨٢) الفتح الرباني
أحمد عبد الرحمن البنا
الناشر دار الحديث ــ القاهرة ط/الثانية .
(٨٣) فتح القدير
محمد بن على الشوكاني ت ٢١٥٠ هـ
مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٤٩ هـ .
(٨٤) الفتوحات الالهيـة
سليمان بن عمر العجلي المعروف بالجمل
ط/عيسى البابى الحلبي ــ القاهرة .
(٨٥) فضائل القرآن لابن كثير
وهو ذيل تفسير الحافظ لابن كثير ت ٧٤٤ هـ
ط/دار الفكر
(٨٦) فقه الزكاة
د . يوسف القرضاوى
مؤسسة الرسالة ــ ط/الخامسة ١٤٠١ هـ .
(٨٧) فقه السيرة
للشيخ محمد الغزالى
ط/السادسة ــ دار الكتب الحديثة .
(٨٨) الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامى
لمحمد بن الحسن الحجوى الفاسى
الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
(٨٩) الفوائد
محمد بن أبي بكر بن قيـم الجوزية ت ٧٥١ هـ
دار مصر للطباعة ــ طبع على نفقة عمر عبد الجبار
(٩٠) في ظلال القرآن
للامام الشهيد سيد قطب
دار إحياء التراث العربي ط/٧ سنة ١٣٩١ هـ .

(٩١) قادة الأديان وأقوامهم
لتوماس كارليل
ط/نيويورك ١٩١٩ م .
(٩٢) القرآن المعجزة الكبرى
محمد أبو زهرة
ط/دار الفكر العربي
(٩٣) الكامل في التاريخ
للامام العلامة أبي الحسن على المعروف بابن الأثير م ٦٣٠ هـ
ط/الثانية ١٣٨٧ هـ دار الكتاب العربي ــ لبنان .
(٩٤) كتاب المناسك وأماكن طرق الحج
تحقيق الشيخ حمد الجاسر
من منشورات وزارة الحج والاوقاف ١٤٠١ هـ .
(٩٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل
لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشرى الخوارزمي (٤٦٧ ــ ٥٣٨ هـ)
ط/الاولى ١٣٩٧ هـ دار الفكر .
(٩٦) كشف الغمة عن جميع الأمة
لأبى المواهب عبد الوهاب الشعرانى الانصارى
ط/الأخيرة ١٣٧٠ هـ البابى الحلبى ــ القاهرة .
(٩٧) كشف القناع على متن الاقناع
للشيخ منصور بن يونس البهوتى ت ١٠٥١ هـ
مطبعة الحكومة بمكة ١٣٩٤ هـ .
(٩٨) لباب النقول في أسباب النزول
جلال الدين السيوطى
دار إحياء العلوم ــ بيروت ط/٣ سنة ١٤٠٠ هـ .
(٩٩) لسان العرب
لابن منظور
ط/دار صادر ــ بيروت

(١٠٠) مجموع أمهات المتون
مطبعة البابي الحلبي بمصر ط/الرابعة ١٣٦٩ هـ .
(١٠١) محاسن التأويل (تفسير القاسمى)
للعلامة محمد جمال الدين القاسمى
ط/الأولى عيسى البابي الحلبي ١٣٧٩ هـ ، تعليق وتخريج محمد فؤاد عبد الباقي .
(١٠٢) محاضرات في الثقافة الاسلامية
للاستاذ أحمد محمد جمال
(١٠٣) محاضرات في النصرانية
للشيخ محمد أبو زهرة
ط/الرابعة ١٣٩٢ هـ طبع ونشر دار الفكر العربي .
(١٠٤) مختصر المنذرى على سنن أبي داود .
للحافظ عبد العظيم المنذري .
تحقيق محمد حامد الفقي مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة .
(١٠٥) المدخل لدراسة القرآن الكريم .
الدكتور محمد محمد أبو شهبة
٢مطابع القاهرة الحديثة ١٩٧٣ م .
(١٠٦) المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الاسلامية .
د . شعبان محمد اسماعيل .
ط/دار الانصار بالقاهرة ط/الأولى ١٤٠٠ هـ .
(١٠٧) المستدرك على الصحيحين .
للأمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري
بيروت دار الكتاب العربي .
(١٠٨) مسند أبي داود الطيالسي .
نسخة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد ١٣٢١ هـ .

(١٠٩) مسند الامام أحمد
للامام أحمد بن حنبل الشيباني
دار صادر ـــ بيروت .
(١١٠) المستشرقون بين الانصاف والعصبية .
للدكتور السيد محمد علوي المالكي
مطابع سحر ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م .
(١١١) المصنـف
للحافظ أبي بكر عبد الرزاق الصنعاني (١٢٦ ـــ ٢١١ هـ)
تحقيق حبيب الرحمن الأعظمى ـــ من منشورات المجلس العلمي
ط/الأولى ١٣٩٠ هـ ، المكتب الاسلامي ـــ لبنان .
(١١٢) معالم التنزيل تفسير البغوى
للأمام البغوى ت ٥١٦ هـ
ط/الأولي مطبعة المنار بمصر ١٣٤٧ هـ على هامش تفسير ابن كثير .
(١١٣) معجم البلدان
لياقوت الحموى
ط/دار الكتاب العربي بيروت
(١١٤) مغنى المحتاج إلى معرفة الفاظ المنهاج
للأمام شمس الدين محمد بن أحمد الشربينى الخطيب ت ٩٧٧ هـ .
مطبعة البابى الحلبي ١٩٥٨ م القاهرة .
(١١٥) المغـنى
ابن قدامة .
(١١٦) مفردات القرآن للاصفهانى .
الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهانى
الناشر مكتبة الانجلو المصرية .
(١١٧) مقدمة ابن خلدون
ط/دار إحياء التراث العربي ـــ بيروت .

(١١٨) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ
للاستاذ أحمد الشريف
(١١٩) الملل والنحـل
للشهرستانى ت ٢٤٨ هـ
على هامش الفصل لابن حزم ــ مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بالقاهرة .
(١٢٠) مناهل العرفان في علوم القرآن
عبد العظيم الزرقاني
ط/٢ عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
(١٢١) المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية (في مقال لعبد الله بن كنون)
رجب ١٣٨٨ هـ القاهرة ط/المدني .
(١٢٢) مؤتمر رسالة المسجد
ط/رابطة العالم الاسلامي ١٣٩٥ هـ .
(١٢٣) الموافقات في أصول الشريعة
لأبي اسحاق الشاطبى
(١٢٤) ميزان الاعتدال
لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى
دار المعرفة ــ بيروت ــ لبنان .
(١٢٥) الناسخ والمنسوخ
لأبي القاسم هبة الله بن سلامة
ط/الثانية البابي الحلبي ١٣٨٧ هـ .
(١٢٦) الناسخ والمنسوخ .
لأبي جعفر النحاس
مطبعة السعادة ط/الأولى ١٣٢٣ هـ .
(١٢٧) النجوم الزاهرة
لابن تغري بردي
مطبعة دار الكتب المصرية .

(١٢٨) نظام التجريم والعقاب فى الاسلام مقارنا بالقوانين الوضعية
للمستشار على منصور
(١٢٩) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور
للبقاعى
(١٣٠) وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى
للإمام نور الدين على بن أحمد السمهودى ت ٩١١ هـ
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ــ ط/دار إحياء التراث العربي ــ بيروت
(١٣١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
لابن خلكان
تحقيق د . احسان عباس ط/دار صادر ــ بيروت .
(١٣٢) اليهود في بلاد العرب وصدر الاسلام
للدكتور اسرائيل ولفنسون
مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٧ م .
وغيرها من المراجع ....